جويديب روي - باتاتشاريا

JOYDEEP ROY-BHATTACHARYA

المراقبة

THE WATCH

مكتبة النخبة

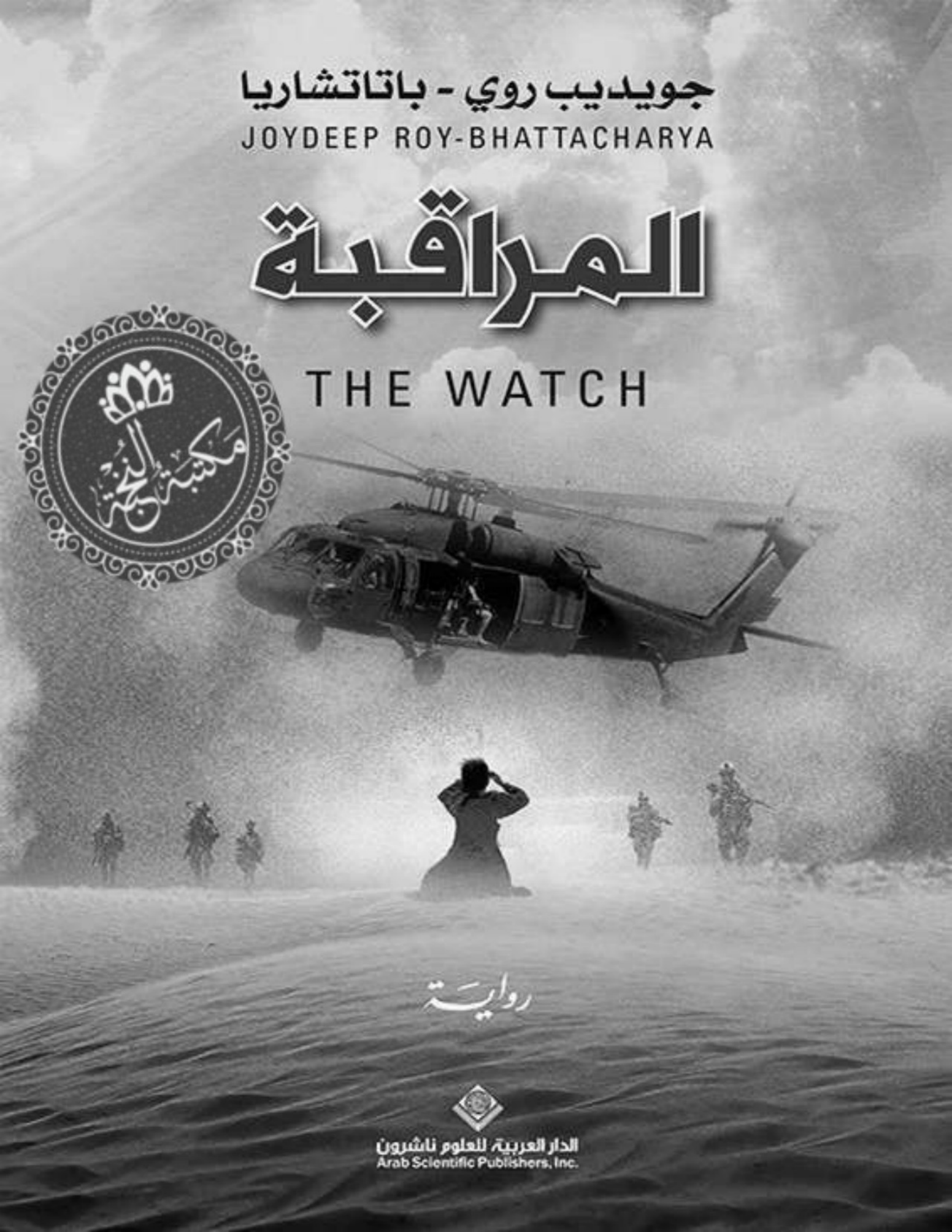

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

المراقبة

THE WATCH

جويديب روي – باتاتشاريا

JOYDEEP ROY - BHATTACHARYA

المراقبة

THE WATCH

ترجمة مهـا عز الدين

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE WATCH

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً عبر

The Susijn Agency Ltd, London, UK

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © Joydeep Roy-Bhattacharya All rights reserved Arabic
Copyright © 2018 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: تموز/يوليو 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978-614-02-3498-7

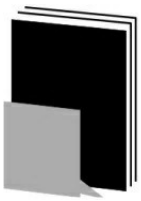

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

جميع الحقوق محفوظة للناشر

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة

نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف (+9611) 786233

أهدي هذا الكتاب إلى أهل أفغانستان

وإلى كريس هيدجيز:

السيد النموذج

وإلى ريك سوليفان:

الضابط والسيد النبيل

وإلى جوناثان شاي:

الطبيب المعالج

أعلم أنكَ كنت على يقين أنني ميت

ولم تصرّح بذلك

لذا، فإن أقبل الموت نحوي مسرعاً، فسأعتبر وصوله إليّ ربحاً صافياً

فمن أترعت حياته بالتعاسة والآلام، فإنه لا يرى في الموت إلا انتصاراً

لذا تراني أجد في قدري سبباً للسعادة لا الحزن.

لقد تحملت أن أترك جثة ابن أمي هناك دون دفنها،

كان عليّ أن أحزن وكل ما بـي يستدعي الحزن،

ولكن ليس الآن...

سوفوكليس، أنتيغون

موقع القتال تارساندان

مقاطعة قندهار

أفغانستان

أنتيغون [1]

واحد.

اثنان.

ثلاثة.

أربعة.

رحتُ أعد الثواني وأبسمل في رأسي: *بسم الله الرحمن الرحيم*...

الأمر عائد لي الآن. إنني خائفة، يداي ترتجفان وفمي جاف. نظرت بعيداً إلى الجبال التي أمضيت عمري فيها، هناك حيث ولدت وحيث توفيت عائلتي؛ عائلتي كلها عدا أخي يوسف. أذكر ما قاله لي يوسف قبل أن يندفع لاقتحام معقل الأعداء: "هنالك لحظات يتوجب على المرء أن يفقد فيها صوابه كي يكون سيد الموقف، وفي الوقت ذاته عليه المحافظة على هدوء أعصابه".

تذكرت هذا عندما كنت أدفع عجلات عربتي بمشقة باتجاه أسفل المسار المنحدر وصولاً إلى الساحة المربعة أمام القاعدة. لقد سووا كل شيء بالأرض هنا. لا أشجار ولا نباتات ولا أي شيء يمكن للمرء أن يستظله. أما الأرض فقد كانت جافة متشققة تنفث لهيباً حاراً بالرغم من أن الوقت لا يزال باكراً. دار الغبار حولي في حلقات في الوقت الذي كانت الشمس ترسل بأشعتها الحارقة الأرضَ الترابية حول القاعدة العسكرية، وقد ظهرت عليها طبعات أحذية الجنود وعجلات آلياتهم. عند أحد جوانب القاعدة، ارتفعت كومة من القمامة كانت خليطاً من الأعمدة الحديدية المنحنية، وعلب زيت مرمية، وأكياس ودلاء بلاستيكية.

الدليلان الوحيدان اللذان كانا يشيران إلى وجود حياة تمثلا في لمعان المعدن الذي يظهر بين الفينة والأخرى عاكساً وهج الشمس التي ترتفع في كبد السماء، وفي عمود الدخان الرفيع. لكم تختلف هذه الأرض القاحلة عن الوادي الخصيب الأخضر الذي بدأت رحلتي منه. وبالرغم من ذلك أمضيت الليل بطوله أعبر الجبال كي أطالع هذا المشهد القاحل.

تملّكني العجب، وأنا أضغط الأرض براحتي كفيّ دافعة عربتي إلى الأمام، كيف استطعت المضي عبر المسارات الجبلية المعرضة للانهيار بهاتين الذراعين الهزيلتين والكتفين الضئيلتين؟ بات لمس بعض عضلاتي مؤلماً كلمس جرح متقيح، أما بعضها الآخر فقد فقدت الإحساس به تماماً. لقد عاود الجرح النزف في الموضع الذي بترت فيه ساقاي، وهو الذي بالكاد التأم، فالدفع المستمر

إلى الأمام الذي تطلبته رحلتي سبب احتكاكاً وإيذاءً للغرز. تجاهلت ألمي، تجاهلت كل شيء عدا حقيقة وجودي هنا، ورحت أشحذ عزيمتي بالقول إنني هنا لأن قلبي عظيم وحناني دفاق وصادق. أنا هنا لأدفن أخي وفقاً للشريعة. هذا كل ما في الأمر.

أعاقت تقدمي جثة يعلوها الهام. شعرت بالمادة الصفراء تتصاعد من معدتي إلى حلقي من المنظر، لكني بإحساس لا ينتمي إلى هذا العالم، تحاملت على نفسي، وملت إلى الأمام خارج عربتي، وقلبت الجثة على ظهرها. لا لم يكن يوسف، بل كان شاباً يافعاً، اخترقت رصاصة جبينه، وتجمع الدم المتخثر عند إحدى عينيه فيما كانت الأخرى مغمضة. أفلته وتلوت له ما تيسر من القرآن. على مسافة قريبة تكومت جثة أخرى. إنه رحمت، أحد رجال يوسف. رفعت رأسه، فانحلت عمامته السوداء متهاوية في حلقات. رحمت، كم كان شديد البأس، لقد كان بمقدوره رفع جذع شجرة بلوط بذراع واحدة. أما الآن فها هي تلك الذراع تتمدد بلا حياة. في الأعلى حام سرب من الغربان، بينما أطل من الأعالي نسر يرفرف بجناحيه مستعداً للهبوط. عند زاوية القاعدة وبفعل الرياح خفقت راية بسرعة وبدا صوت خفقانها طلقات البندقية. كم كان أخي أحمق بمهاجمته هذا المكان الذي بدا بتحصيناته المتعددة من الأسلاك الشائكة، وأكياس الرمل، والجدران الطينية والحجرية، حصناً عصياً على الاختراق.

تقدمت إلى الجثة الثالثة الأخيرة المرمية في الساحة. إنه بهرام غل، الأكبر سناً بين رفاق يوسف، والذي أحضر لي في سالف الأيام، عندما كنت طفلة صغيرة، باقة من رياحين الجبل. بدا فمه المفتوح أحمر على نحو غير طبيعي، ولحيته المحناة مخضبة بالمسك القرمزي. أحب بهرام الغناء، لكن بقدوم طالبان انكفأ عن الغناء إلى الاعتناء بحقوله. مؤخراً، عاد صوته ليصدح مجدداً. خلّفت جثته ورائي، وأنا أكاد أسمع صدى صوته يتردد في جنبات رأسي. ابنته أنيسة كانت صديقتي المقرّبة قبل أن تتوفى أثناء وضعها لمولودها. والآن سيلتئم شملهما، لكم أحسدهما على حظهما الطيب. قطعت أفكاري كومة من الغبار رأيتها قد ثارت بزاوية عيني اليسرى قبل أن أستنشق عبابها الحارق للرئتين وأسمع الصوت العالي الذي رافقها. بعقل مجهد متبلد واصلت تقدمي دافعة نفسي إلى الأمام إلى أن انتفضت كومة غبار أخرى إلى يميني، حينها أدركت جلياً أنني في مرمى النيران. وعندما أزت الرصاصة الثالثة مارة بجانبي عندها توقفت، وران صمت بدا أنه لا متناهٍ. فيما تهادى ظل غيمة منفردة وحيداً على الأرض.

تلمستْ أصابعي طريقها صعوداً إلى تعويذتي التي أطوق بها عنقي. فقبل سنوات خلت عاد أبي حاملاً معه أدعية مكتوبة من مقام صوفي قرب زاري شاران، ومنذ ذلك اليوم وأنا أطوق رقبتي بسلسلة تحمل هذه الكتابات في صرة جلدية مخيطة. بث ملمس الجلد الطري الطمأنينة في نفسي. وعوضاً عن تدقيق النظر في القاعدة لأرى من يطلق النار عليّ، نظرت خلفي إلى الجبال. كانت تنتصب هناك شامخة كحراس أوفياء حتى السماء بمهابة جعلت كل ما حولها يبدو قزماً. حين استدرت ثانية لأطالع القاعدة، بدت لي ضئيلة مقارنة بالجبال، فلم تعد تثير رهبتي. لقد رأيت ما كانت عليه حقاً: هيكل بدائي محصن بالطين، وأكياس الرمل، والجدران فبدت للناظر تراكماً غريب الشكل.

رفعت واحداً من قمصان يوسف البيضاء، وصرت ألوح به في الهواء. بعد دقائق علا صوت رنان مخترقاً الساحة وصولاً إلى أذني سائلاً إياي عن مبتغاي. قال: "تسه غواري؟". بالرغم من أن اللغة كانت باشتونية إلا أنني ميزت فيها لكنة الطاجيك. لم يفاجئني ذلك.

بدت القاعدة لي بعيدةً جداً، فرفعت صوتي قدر ما استطعت لأجيب أنني هنا لدفن أخي الذي قُتل في معركة البارحة. "أنا أخته، واسمي نظام".

ساد الصمت ليعاود الصوت بعدها السؤال: "ما اسم أخيك؟". أخبرته، فساد الصمت مرة أخرى. رحت أحاول تصور كيف عساهم يروننني من الداخل. كيان صغير مغطى في عربة خشبية خفيضة قريبة من الأرض. أتخيل مدى دهشتهم وعليّ استغلال ذلك.

عاد الصوت ليقطع حبل الصمت المخيم، فشعرت بالبغض تجاه غرغرته الرنانة، سألني: "من أخبرك أن بمقدورك العثور عليه هنا؟".

أجبته: "الناجون من المعركة".

سألني: "كيف يبدو؟".

شعرت بجوابـي شديد الوطأة على نفسي كما كان خبر فقداني لأخي، لكنني سيطرت على مشاعري ووصفت له يوسف، وحرصت على أدق التفاصيل.

قبل أن يقول الصوت لي: "إن أخاك محتجز لأسباب تتعلق بالتعريف عن هويته".

أجبته: "أنا بمقدوري أن أتعرف إليه".

فكان الرد: "عليك المغادرة. سيتم التعرف إليه من قبل أشخاص مختصين سيأتون من مكان بعيد. بعدها سيتم دفنه".

سألت: "متى سيأتون؟".

"قريباً".

"قريباً متى؟".

"في غضون يومين".

"هذا غير ممكن". قلت ذلك بصوت جاهدت لكي لا تخنقه انفعالاتي. "يجب أن يدفن يوسف بصورة ملائمة، لهذا أنا موجودة هنا، وهذا من حقي".

"لم ينتهِ شأننا معه بعد".

قلت: "إنه ميت، أي شأن سيكون لكم معه بعد هذا؟".

أجاب الصوت: "إنه إرهابـي، ينتمي إلى طالبان".

صرخت محتجة: "هذا غير صحيح! أخي بطل باشتوني، مجاهد ومكافح من أجل الحرية. لقد قاوم الطالبان واستشهد وهو يحارب الغزاة الأميركيين. لقد كان رجلاً شجاعاً".

أجاب: "أيتها البشتونية لقد ضُلِّلْتِ كما ضُلِّل تماماً. ليس لك مكان هنا. اذهبـي بعيداً".

قلت: "لقد أحضرت له كفناً أبيض. أريد ماء لأغسل جثته، هذا حقي. سأحفر له قبراً بنفسي وأواريه فيه بعد أن أولي وجهه القبلة، ثم سأدعو له، وأهيل عليه ثلاث حفنات من التراب وأتلو عليه آيات من القرآن: **[مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى]**([2]). بعد هذا سأغادر، أعدكم. لا تنكروا عليّ هذا، إنه واجبـي ويجب عليّ القيام به".

في فسحة الصمت التي تلت، نظرت إلى جلد الماعز المثبت بالخرق والأربطة فرأيته، وقد اصطبغ ببقع حمراء. ساقاي اللتان غالباً ما أشعر فيهما بالخدر، بات مكان بترهما ملتهباً ومؤلماً.

أخيراً، رد الصوت بنبرة متعجبة لا تخلو من السخرية: "أنت امرأة، ولا دور لك في مراسم الدفن الإسلامية. لدينا ما يكفي من الرجال هنا، سنهتم بهذا الأمر. لقد طلبت ذلك من قائد القاعدة العسكرية هنا وهو رجل محترم، وقد وعدني خيراً".

أرخيت علمي الأبيض وأنا أقول: "لن أغادر". خرج صوتي مرتجفاً من التعب والغضب، وكانت دموعي على وشك الانهمار.

سمعت صوت إغلاق المايكروفون تاركاً إياي لحيرتي. لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ إن غراباً راح يحلق أمامي لأدرك بعدها أنني محاطة بالطيور آكلة الجيف. ثم سمعت صوت طلقة مال نسر على أثرها على جانبه ثم هوى أرضاً.

عندما عاودت النظر أمامي، راعني رؤية أربعة رجال يخرجون من بوابة مموهة ومتماهية مع الجدران العالية مقبلين باتجاهي إلى أن بلغوا الأسلاك الشائكة، فوقفوا خلفها موجهين أسلحتهم نحوي. كان الوحيد بينهم الذي لا يرتدي بزة عسكرية فتى طويل القامة، مهلهل الهيئة، جامح العينين والذي لم يكن يكبرني كثيراً. لا بد أنه المترجم الطاجيكي، وكان أول من تحدث إلي.

"ما الذي تفعلينه هنا أيتها الحمقاء؟" انفجر في وجهي بصوت ساخط عصبـي اختلف بشكل ملحوظ عن ذاك الصوت الرنان المهيمن الذي انبعث منذ قليل عبر مكبر الصوت. "ألم تقرئي اللافتات؟ كان يمكن أن يطلقوا النار عليك!".

"أنا لا أجيد القراءة"، قلتها وأنا أجاهد كي لا أبدو متوترة. لكن جوابـي لم يعجبه فلوّح بيده باستياء. بدا لي شخصاً يحاول أن يلعب دور البالغ، إلا أنه كان أبعد ما يكون عن البراعة في تأدية ذلك الدور.

ثم قال ما يهمني سماعه: "يود القائد أن تعرفي أن لا خصومة بينه وبينك"، قالها مشيراً إلى رجل قصير ممتلئ الجسم، "لكنك بالغت في تقدير مكانتك وعليك المغادرة. إنها ساحة معركة، وليست مكاناً لأفعال النساء العاطفية".

عزمت على تجاهله والتركيز على رفاقه، فأخذت أراقبهم بوجه يخلو من أي تعبير وهم يقفون هناك تثقلهم الأكاذيب والشعور بالذنب.

تقدم الضابط خطوات سريعة إلى الأمام يرافقه جنديان يعتمران خوذتين. ثلاثتهم كانوا يرتدون ستراً سميكة وفضفاضة ويضعون نظارات شمسية سوداء، تصورت أنهم يشعرون - ولا بد - بالاختناق في هذه الحرارة العالية. كنت بعيدة عنهم جداً إلى درجة أن المسافة الفاصلة بيننا لا تمكّنني من تمييز ملامحهم. وحين أشاح القائد بنظره عني مخاطباً الفتى الطاجيكي، صوّب الجنديان بندقيتيهما نحوي. صوت القائد وكلامه المقتضب، المترجم النزق، والجنديان المرهقان... كلهّا دلائل أشارت إلى السلوك الحذر الذي تتميّز به مجموعة من المقاتلين وجدوا أنفسهم في مواجهة موقف غير مسبوق. من الواضح أنني شكلت معضلة بالنسبة إلى هذا القائد. أنا امرأة في عالمهم الذكوري، وهم لا يدرون كيف يتصرفون.

نظروا إليّ بحذر ينتظرون مني أن أقول شيئاً، لكنني آثرت الصمت. فخاطبني الطاجيكي وكان دوري لأصاب بالدهشة إذ قال: "اصغي إليّ أيتها الباشتونية. يقول القائد إن لك الحرية في أن تبقي هنا تحت أشعة الشمس اللاهبة. لكن إن ألقيت نظرة واحدة على القاعدة، سيردونك قتيلة على الفور".

سألته: "هل بمقدوري دفن الرجال الملقين في الساحة؟".

فالتفت الطاجيكي إلى القائد، الذي بدا عليه الانزعاج وهو يرد مشيراً بكلتا يديه. وأتاني الجواب: "هذا أمر عليك تسويته مع الطيور الجارحة، ولا شأن لنا به".

استدار الأربعة، وهمّوا بالعودة إلى القاعدة، ولكن الطاجيكي التفت إليّ نصف التفاتة وراح يتوعدني: "تذكري أوامر القائد. نظرة واحدة إلى القاعدة وستكون آخر ما ترينه". وقد أثار انسحابهم السريع غباراً تصاعد إلى السماء.

غمرني شعور - ولو طفيف - بالانتصار عليهم، وهذا ما أثار فيّ رغبة جنونية بالضحك، لكنني كبحت جماح نفسي. ففي النهاية كان يمكن أن أقتل عرضاً وبكل سهولة. أدرت عربتي، وتحركت باتجاه بهرام غل. راحت مفصلات العربة المعدنية تصدر صريراً حاداً وعجلاتها الخشبية

الثقيلة تنسحب بصعوبة على الأرض المشققة. لا بد من أن الصوت كان يصل القاعدة لكنني لم أكن لأكترث لذلك.

حين وصلْتُ إلى بهرام غل أبعدتُ بمجرفتي الغربان عنه. بمعزل عن هذه الطيور الملعونة وأسراب الذباب المزعجة لم يكن هناك أي أثر للحياة في الجوار. أخذت نفساً عميقاً، ثم أدرت ظهري للقاعدة، ورفعت الغطاء عن وجهي. سيكون عملاً شاقاً وعليّ إنجازه بسرعة. بهرام المسكين العزيز، لقد بدأت تفوح منه رائحة نتنة. تذكرت الأزهار التي أهدانيها وأنا أتلو له بعض الأدعية القصيرة، ثم بدأت بالحفر. لحسن حظي كانت الأرض طرية، واستسلمت بسهولة لمجرفتي.

بعد ساعات لا أدري عددها أنهيت عملي. ارتفعت ثلاثة كثيبات صغيرة من التراب المحفور حديثاً أشارت إلى المراقد الأخيرة لرفاق أخي المخلصين الثلاثة. وضعت حجراً أعلى كل قبر، غير أن تبعثر التلال الصغيرة الثلاث تلك أشعرني بالحرج. كان ينبغي أن يكون لكل منها شاهدة وأعمدة عند الرأس والقدمين مزينة بالأعلام الخضراء، كما يليق بأبطال مثلهم. لكنني لم أتوقع أن أواجه بمثل هذا الموقف، والعلم الوحيد الذي أحمله احتفظت به لأخي يوسف.

عدت مترنحة إلى عربتي، بظهر يكاد يتصلب من الألم، وكفين غطتهما جروح نازفة، ولكن بشعور من السلام والرضى يغمر نفسي. وضعت المجرفة ورحت أنظف يدي من التراب، ثم ارتشفت بعض الماء من قربتي المصنوعة من جلد الماعز، غير أن الإجهاد بلغ بـي حداً جعل الماء يتدفق خارجاً على جانبـي فمي. عندما انتهيت، أرخيت البرقع على وجهي، واستدرت لأواجه القاعدة، فألفيت صفاً من الجنود يراقبونني بصمت. بعضهم كان يحمل سلاحه على كتفه، وبعضهم الآخر كان يوجهه نحوي. أحدهم أزال خوذته ومسح وجهه بمنديل يد أحمر، وبعد أن انتهى، حشاه في جيبه، واستدار نحوي متعمداً بما لا يدع مجالاً للخطأ، ورسم علامة الصليب على صدره، كدلالة بسيطة على الإنسانية. ومع هذا، لقد أمضيت طيلة بعد الظهر وأنا أشتمّ رائحة اللاإنسانية التي تفوح من أسلحتهم.

حل الغسق لاحقاً على السهول مختلفاً عما عهدته في الجبال. خرجت الصراصير من شقوق الأرض تجوب المكان في برودة الهواء. ورسم غروب الشمس في السماء لوحة مهيبة باهية الأنوار، لتغطس بعدها خلف الجبال مودعة الأرض بوهج قرمزي اللون. وسرعان ما ظهرت آلاف النجوم لتأخذ مكان الشمس الذاوية وتعوض غياب القمر. أما القاعدة فقد بدت معلقةً وسط دوامة من الضباب المسائي، وقد أخذت سقوفها المائلة تتماهى في الظلام. على الأرض بدت شبكة المسارات التي توجب عليّ اجتيازها لأصل إلى هنا بأفرعها الخطرة المرصعة بالألغام، وكأنها جزء من حياة أخرى.

في عربتي حقيبة من الخيش ملأتها بمؤونة تقيم أودي ليومين مكونة من: خبز النان، والجوز، والفستق، والفواكه المجففة. تناولت شيئاً من الخبز بعد أن قسمته إلى لقم صغيرة. غير أن فمي الجاف جعل اللقمة تستلزم مني وقتاً طويلاً في المضغ قبل أن أتمكن من ابتلاعها. وبينما احتسيت رشفات من الماء، أشعلت الأنوار في إحدى جهات القاعدة، لكن الظلام بقي مخيماً هنا. في

مكان ما أسمع ضباعاً تعوي بعويل مملوء بالسخرية، يبدو أنها قد خرجت في جولاتها الليلية. سرت في جسدي قشعريرة لا إرادية، فهذه المرة الأولى التي أمضي بها وحدي في العراء. لكن التعب - الذي كان قد بلغ مني مبلغاً - حال بيني وبين التفكر في الأمر كثيراً. فضلاً عن أني فكرت أن حديقة النجوم السماوية فوقي ستكون مؤنستي.

عندما خيم الظلام تماماً، توجهت بعيداً عن عربتي لأقضي حاجتي وأهتم بشؤوني الخاصة. وسرعان ما أضحى الليل بارداً، فسحبت الغطاء إلى كتفي، وبحثت عن آلتي الوترية التي علمني والدي العزف عليها بعد أن فقد بصره. لقد كان خبيراً بالعزف على العود، وكنت أنا تلميذة نجيبة، انتقلت من المقاطع الموسيقية البسيطة إلى ألحان أكثر تعقيداً، إلى أن شهد لي بأنني بت أعزف أفضل منه. ما إن نقرت على الأوتار حتى شعرت باهتزازها يسري في شراييني، ويملأ الفراغ اللامتناهي حولنا. تراءت لي القاعدة غارقة في الصمت كأنها تصغي إلى ألحاني، لا بد من أني أتخيل. رحت أفكر بوالدي وأنا أعزف. إنما لاحقاً عندما تقوقعت مستلقية في عربتي كان طيف ابتسامة يوسف هو ما لوّن أحلامي، شاحذاً إصراري وعزيمتي، ما جعلني أجدد عهدي له بألا أغادر هذا المكان إلا وقد دفنته بما يليق بجثته.

وفجأة أُشعل ضوء كشاف وراح يجوب بأنواره المكان، إلى أن وصل إلي ودفعني بوهجه الحار إلى فتح عيني على وسعهما. ومن وقت إلى آخر كان يتحرك بسرعة ودونما كلل ليسبر الأرض خلفي والطريق الذي أتيت منه، ثم يعود بحركة خاطفة ليستقر عليّ ثانية. استمرت هذه الحال إلى أن انبلج الفجر. حاولت حينها استجماع كل ما بقي لديّ من قوة ورفعت غطائي فوق رأسي ودسست كفي بين فخذي طلباً لبعض الدفء.

حل الصباح، وجاب الضباب الأرض. أضحى شعري رطباً وغطى الندى غطائي. حين اعتدلت جالسة في عربتي، كدت أصرخ من ألم عضلاتي المتشنجة. كانت رقبتي متصلبة، وحركاتي متثاقلة. تحول البرد في الجو إلى طبقة هشة مرئية للعين، جعلت الحيّز الصغير الذي كان بمقدوري رؤيته من الحقل يلتمع كالمرايا. وبالرغم من أن الشمس بدأت تعلو خط الأفق، إلا أن الضباب لا يزال يغلفني برفق. لم يكن بمقدوري رؤية القاعدة، ففكرت في نفسي: أيمكن أن يكون كل هذا حلماً سيئاً؟

كان الفتى الطاجيكي هو أول من ظهر لي يرافقه جنديان يشهران سلاحيهما. تقدم الثلاثة إلى أن وصلوا حاجز الأسلاك الشائكة المحيط بالقاعدة، ثم جثى الجنديان على ركبتيهما ووجها بندقيتيهما صوبـي، فيما وقف الطاجيكي بينهما يكسوه شال رمادي متسخ لفه حول قميصه وسرواله الهنديين صارخاً نحوي بسؤال لم أفهمه. فمن الصعب تبيُّنُ ما يقوله نظراً لأنه كان يغطي الجزء الأسفل من وجهه بوشاح. وبالكاد كان يصلني صوته المتوتر ما اضطرني أن أطلب منه أن يرفع صوته. طريقة التواصل هذه عبر الصراخ من مسافة بعيدة أثارت إعجابـي، هل تراها الطريقة الأميركية في إنجاز الأمور؟ فمحاورة البارحة ولدت لديّ بحة في صوتي وقد مقتها.

أزاح الوشاح عن فمه وأعاد سؤاله: "لِمَ أنتِ هنا حقاً؟".

أجبته: "لقد أخبرتك مسبقاً، أنا هنا للمطالبة بجثة أخي".

فقال: "لكن هذا عمل الرجال، أين رجال عائلتك؟".

أجبته: "لقد قتلتموهم جميعاً، الرجال والنساء والأطفال. أنا الناجية الوحيدة بينهم".

تجاهل اتهامي، وراح يسألني عما حدث لساقيّ، فقلت: "لقد خسرتهما بسبب القنبلة التي أفنت عائلتي. لقد نزلت علينا من السماء فيما كنا عائدين من أحد الأعراس".

دار على عقبيه، وانكفأ عائداً مع مرافقَيه، غير أن وميض البنادق الآتي من القاعدة، ظل يذكرني بأنني تحت المراقبة. رميت غطائي جانباً، فقد بدأت الحرارة بالارتفاع، وانتقلت من الشعور بالرجفة من البرد إلى التعرق بغزارة، ورحت أحدث نفسي بأن الحرارة هي السبب وليست أعصابـي المنهكة.

تبدد الضباب وأنا أنتظر، وانبثقت القاعدة إلى الوجود ثانية في ضوء النهار. وظهرت جميع المعالم حولي من سماء وأرضٍ ساكنةٍ يغمرها السلام. ومع تقدم ساعات النهار، اكتسحت موجة شديدة من الرطوبة السهل جعلت القاعدة تتأرجح في حالة غريبة من الظهور والتلاشي. لم يمض وقت طويل حتى تصاعد أول عمود من الدخان في الجو خارجاً من القاعدة، وفاحت معه رائحة الطهو، فمددت يدي إلى حقيبة طعامي المكسوة غباراً، وكنت على وشك البدء بالأكل، عندما ظهر الفتى الطاجيكي ومعه جندي أميركي، وقد دس الأخير يديه عميقاً في جيبه، ومن وقت إلى آخر تلمس ياقته بعناية. وشأنه شأن بقية بني جنسه كان يملك وجهاً لا يمكن وصفه. مشى المترجم بتراخ، وقد غطى وجهه ثانية بوشاحه. وتوقفا أمام القاعدة ليبدآ معاً بالكلام وقد بدا أن الطاجيكي يكافح ليسرع في أثر الأميركي كي لا يفوته شيء من الكلام.

قالا: "لقد استمتعنا بعزفك على العود البارحة، كانت أنغامه مطمئنة".

لم أرد.

استطردا: "من الجيد أن تتمكنوا من عزف الموسيقى ثانية في هذه البلاد. فقد كان ذلك ممنوعاً تحت حكم الطالبان، ونحن من جعلناه ممكناً. هذا ما تعنيه الحرية".

أجبته: "تحت حكم الطالبان كانت أسرتي على قيد الحياة. والآن هم أموات. أيهما أفضل؟ الحياة أم الحرية؟".

أحبط جوابـي الأميركي، وبدت عليه بوضوح أمارات الارتباك والانزعاج. ذرع المكان جيئة وذهاباً بغطرسة وتردد في آن. ثم قال شيئاً للمترجم بصوت مقتضب، فصاح بـي المترجم: "لقد أثرتِ استياء الملازم!".

أجبته: "ولِمَ الاستياء؟ أنا أقول الحقيقة".

جاءني الرد: "الأمر ليس بهذه البساطة. أنت لا تفهمين شيئاً".

سألته: "ما الذي لا أفهمه؟".

التفت الطاجيكي إلى سيده الذي ألقمه الجواب: "هذه هي الحرب. الناس يموتون. هذا ما يحدث فيها".

بذلت جهداً كبيراً لأحافظ على هدوئي وأرد قائلة: "لقد قتلتم والدي الأعمى الذي لم يستطع أن يرد عدوانكم. لقد قتلتموه بقنابل أمطرتمونا بها من السماء. لولاكم لكان أخي الأصغر يونس، وأمي، وجدتي، وأختي فوزية، وزوجة أخي جميعهم أحياء الآن".

أرادا أن يجيباني إلا أنني تابعت كلامي قائلة: "هذه ليست حرباً، إنها مذبحة للأبرياء. أنا أعلم ما تعنيه الحرب الحقة. نحن ننتمي إلى قبائل محاربة، يمكن للتناحر بينهما أن يستمر أجيالاً، لكن لا يمكن لأحد هنا أن ينزلق فيها إلى مستنقع قتل النساء والأطفال عمداً. وإلا سيلفظه المجتمع ويصمه بالعار ما عاش".

كانت هناك لحظة صمت، قطعها الملازم غاضباً: "أخوك يوسف لم يكن بريئاً، لقد كان قائداً طالبانياً أقدم على قتل أصدقائي ورفاقي في السلاح. لقد كان محارباً خطراً".

رشقته بجوابي قائلة: "أخي كان زعيماً للباشتون، وأميراً بين الرجال. لم يكن قاتلاً ولم يكن منتمياً إلى طالبان كما سبق وأخبرتك. لقد مات ميتة الأبطال انتقاماً لمقتل عائلته. لقد هاجمكم لأنكم هاجمتمونا أولاً".

"لعلك تفهمينني حين أقول لك إنني موجود هنا رداً على مقتل الأبرياء - الآلاف منهم. هل تعلمين ما الذي حصل في موطني؟ لقد انهارت ناطحتا سحاب بمن فيهما!"؟

احتججت صارخة: "أؤكد لك أن عائلتي لم يكن لها أي يد في الموضوع! نحن فلاحون ورعاة غنم بسطاء. أنا لا أعلم حتى أين تقع بلادك تماماً".

رد بصوت هادئ وجاد: "لعلك أنت لا تعرفين، لكني على يقين من أن أخاك كان يعرف. من أحضركِ إلى هنا؟".

"لا أحد أتيت وحدي".

"من أين أتيت؟".

ذكرت له اسم الوادي الذي أقطن فيه، فنشر خريطة كانت معه على الأرض وراح والطاجيكي يدرسانها معاً. ثم أطلق ضحكة بينما هتف الطاجيكي: "هذا مستحيل! إنه بعيد جداً عن

هنا. أتظنيننا حمقى لنصدق أنك دفعت نفسك في تلك العربة المتهالكة طوال الطريق من قلب الجبال؟".

أجبته: "إنها الحقيقة، إن لم تصدقها فهذا شأنك".

طوى الضابط الخريطة، ثم نهض على قدميه وقال: "لكن هذا أمر في غاية الأهمية، ومن المهم بالنسبة إليك أن تقولي الحقيقة. إن لم ترغبـي بالإجابة فهذا قرارك، لكن الكلمات هي جسور التواصل وأنا أحاول فهم دوافعك لما تفعلينه".

شعرت بالإنهاك، فوجهت حديثي للطاجيكي مباشرة: "أخبر سيدك أن الكلمات لا قيمة لها أمام الأفعال، وأنه ليس لدي استعداد للانخراط في حديث يطعن في شرف عائلتي. أخبره أنني واعية لمرور الساعات والتي تنتمي إلى الله وحده. وكل ما أريده هو أن أواري أخي الثرى بما يليق به".

كان ردهما: "إننا بانتظار قدوم رجال سيأتون بالطائرة المروحية لأخذ جثة أخيك إلى كابول، حيث سيعرضونها هناك على شاشات التلفاز، ويجرون مقابلات مع الوزراء والجنرالات عن المعركة. لقد كان أحد المتمردين ذوي الشأن. لهذا نحن ننتظر".

صحت بجزع: "لكن هذا تدنيس للمقدسات! لا يمكنكم سرقة جثة رجل ميت، هذا محرّم، ولن أسمح به! إن عليّ واجباً دينياً تجاه أخي".

فرد الأميركي: "وأنا عليّ واجب تجاه دولتي، والتي باتت دولتك الآن بالمناسبة. واجبـي أن ألتزم بما تنصه القوانين، والتي غدت الآن قوانينك. من دون هذه القوانين ستعود قبائلكم للتحكم بكم".

التفتُّ إلى الطاجيكي مخاطبة إياه: "أنت مؤمن، أليس كذلك؟ أنت تعلم بأن هذا خطأ".

رشقني بنظرة سريعة قلقة.

هتفت: "ظننتك قلت إن الجنود سيدفنونه هنا، وأنّ القائد قطع عهداً بذلك".

راح يتفادى نظراتي، في حين رفع الملازم ذراعيه قائلاً: "يستحيل أن نتحدث هكذا، ونحن نصرخ طيلة الوقت".

أجبته: "أوافقك الرأي، فلم لا تقترب قليلاً أو تسمحون لي بالتقدم؟".

أصابني جوابهما بالحيرة إذ قالا: "لأننا قلقون بشأن سلامتنا".

شعرت بالرغبة في الضحك وأنا أجيب: "أنا امرأة واحدة لا أحمل سلاحاً، وأنتم حامية عسكرية مدججة بالسلاح، كيف يعقل أن أهدد سلامتكم؟".

استحال وجه الأميركي أحمر قرمزياً حين سمع ترجمة جوابـي. وانفجر في وجه الطاجيكي الذي انفجر بدوره في وجهي قائلاً: "كيف نعرف أنك لست أرملة حاقدة؟ كيف نعرف أنك لا تحملين قنبلة؟".

"وكيف لي أن أكون أرملة وأنا لم يسبق لي الزواج؟ أما عن القنبلة فأنا هنا كي أدفن...".

صرخ مقاطعاً إياي: "أجل، أجل نحن نعلم. إنما علينا أن نفتشك لنتأكد من خلوك من المتفجرات. وصلتنا تقارير أنك ربما تخفين نوايا أخرى".

سألتهما: "وما المطلوب مني؟". لكن الجواب لم يصلني إلا في وقت لاحق من ذلك اليوم، قبل الظهيرة بقليل.

ظهر الملازم ومعه الطاجيكي، لكن هذه المرة كان برفقتهما رجل أسود ضخم الجثة، وصفّ من الجنود الرماة منبطحين على الأرض ومصوبين رشاشاتهم نحوي، وآخرون تجمعوا خلفهم. كان الجميع يحدقون إليّ كما لو أنني حيوان غريب مثير للاهتمام، إنما خطر إلى حد يقتضي أخذ الحيطة والحفاظ على مسافة أمان معه.

تحرك العملاق الأسود نحوي بتثاقل وتأنٍ. فحركت عجلات عربتي إلى الوراء برعب.

"ميك خودزا!". صاح بـي الطاجيكي: "لا تتحركي، إنه يريد تفتيشك للتأكد من خلوك من المتفجرات"، ثم أردف بعجالة وسرية: "القنبلة في العربة أليس كذلك؟ بمقدورك إخباري، لن أخونك".

لم أكلف نفسي عناء الرد عليه حتى، وإنما اكتفيت بأنْ حدجته بنظرة احتقار.

خاطب العملاقُ الفتى الطاجيكي بلهجة آمرة، بدت بعدها علائم الإحراج على وجه الطاجيكي وأرخى نظره أرضاً وهو يخاطبني بلهجة أقل ثقة بالنفس من قبل، فقال: "لطفاً برقع أوباسا.. اخلعي برقعك لو سمحت".

ارتفع صوتي باحتجاج صارخ: "لا يمكنني فعل ذلك!".

كرر بانفعال: "عليك خلعه إن أردت البقاء هنا".

صرخت: "أهذا هو مفهوم الأجانب عن الشرف؟".

"فقط افعلي ما يطلبونه منك".

حسناً، يفترض بـي أن أتعرض للإذلال أمام جمهرة من الرجال. هذا ما لم يكن في الحسبان. لكنني أدركت أنه لم يكن لدي خيار سوى الخضوع. أنا لن أغادر هذا المكان قبل أن أدفن

أخي يوسف. لكن الخزي غمرني لأنهم سيروونني دون غطاء رأسي.

خلعت البرقع ببطء، فانسدل شعري حتى ركبتي. تركت البرقع ينزلق أرضاً مثيراً عباباً من الغبار لدى وقوعه. إني واثقة من أن قميصي وبنطالي كان يعلوهما الغبار وبقع العرق أيضاً. أرخيت عيني وأنا أشعر بوجهي العاري يشتعل خزياً.

لكن ذلك لم يكن نهاية محنتي، إذ طُلب مني التحرك بعيداً عن عربتي، فرحت ألهج بالدعاء في سري وأنا أنزل منها بجسد مهتز. تشابكت جدائل الحلقات المعدنية والأصداف مع شعري فحررته منها وأنا أرتجف من العار، ومشيت على الجرح حيث بترت ساقاي، بخطى متعثرة بعيداً عن العربة وأنا أحاذر ألا أقع. حتى وصلت بعد خطوات إلى طريق مسدودة فوقفت.

وصلني صوت الطاجيكي ينادي: "والآن ضعي يديك على رأسك واستديري". فعلت ما طلبه مني وأنا أشعر بالألم يتصاعد في جذعيْ ساقيَّ.

حين أصبحت بمواجهته أشار العملاق الأسود بأصبعيه إشارة ترجمها لي الطاجيكي: "استلقِ على بطنك على الأرض من فضلك، يداك على رأسك وساقاك مفتوحتان جانباً".

روعني ما طلبه فصرخت بمرارة: "أنا أرفض هذا! ما تطلبه مني أمرٌ مخزٍ!".

تجاهل الطاجيكي رفضي واستطرد قالاً: "ما إن تستلقي أرضاً، سيقترب منك الرقيب ويفحصك بحثاً عن المتفجرات".

صحت: "ألم تسمعني؟ لن أفعل ما تطلبه مني".

تحول صوته إلى صراخ حاد وهو يجيبني: "كلما عجلت بالإذعان لما يطلب إليك، سارعوا بحل مسألة مطالبتك بجثة أخيك".

حدجته بنظرة طويلة، كان يتعرّق بغزارة ولم أستطع أن أستشف ما إذا كان يكذب، لكنْ نبرة التوسل في صوته لم أكن لأخطئها.

اقتربت من الأرض ببطء، واستلقيت على بطني. هبط صمت كثيف عليّ، لم أسمع معه سوى صوت ضربات قلبي. أدرت رأسي باتجاههم، فألفيت الطاجيكي قد حول نظره بعيداً. أما بالقرب مني فقد اقترب العملاق من العربة ونكزها برشاشه، ثم قلبها بحذر شديد وراح يتفحصها.

بعد أن انتهى منها وضعها على جانبها الأيمن، ثم خطا نحوي وهو يكلمني طوال الوقت بصوت هادئ رقيق على نحو يثير الدهشة. مر بجوار البرقع المكوم على الأرض متجاهلاً إياه إلى أن وصل إليّ، فأمسك بيدي وأبعد كلاً منهما جانباً مادا ذراعيّ أعلى رأسي. حين أحسست بيده تلمسني تصلّب جسمي، وأحسب أنه استحال عموداً من الحجر. أغمضت عيني، وغرقت عميقاً داخل ذاتي.

حين انتهى ساعدني على الوقوف ووضع يديّ ثانية على رأسي قبل أن يعيد التفتيش كرة أخرى. لقد كان حذراً متحفظاً، أدى المطلوب منه بكفاءة وهو يتحدث إليّ طيلة الوقت بصوتٍ سرّني أنه كان مشوباً بالقلق، وفكرت: "إنه خائف مثلي تماماً". وقررت أن أركز على حذائه الذي بدا لي صغير الحجم بشكل مفاجئ نسبة إلى رجلٍ في مثل حجمه. وقد أعاد لي ذلك - بطريقةٍ ما - شيئاً من الاطمئنان.

أخيراً، حين خطا مبتعداً عني، أمكنني الشعور به وهو يسترخي، لقد كان يحبس أنفاسه، والآن سمعته وهو يزفر بارتياح. وبينما استدار ليفحص البرقع، نهضت سريعاً، ووقفت أمامه، وأخذ جسمي يرتعد بشدة بشكل لاإرادي. فأمسك بـي بلطف للحظات، وراح يربت على كتفي وهو يقول بصوت أجش: "أوكي؟ أوكي؟".

بعدها أزال خوذته، وصاح مطمئناً رفاقه، ثم دعاني لأعود إلى عربتي مادا إليّ يد المساعدة، غير أنني ازورْتُ عنه واتخذت طريقي إليها دون مساعدته، ملتقطة البرقع من الأرض أثناء عودتي. نهض الرماة جميعهم على أقدامهم، وتبدد الجو المشحون الذي كان مخيماً. ظل الطاجيكي ينظر بعيداً، لعله كان ينتظر أن أضع البرقع قبل أن يعاود النظر إليّ، غير أنني رميت برقعي في العربة، وتهاويت فيها دونما وقار. تناهى إلى سمعي هتافات التهليل من طرف الجنود، لكني لم أستطع التمييز ما إذا كانت موجهة إليّ أم إلى رفيقهم. لقد كنت على شفا الانهيار بالبكاء، وشعرت بأني منهكة القوى.

سار العملاق مبتعداً باتجاه الملازم، وتبادلا الحديث هنيهة قبل أن يطلبا إلى الجنود الانسحاب إلى داخل القاعدة. حين عاد الملازم كان يمشي بخفة قاطعاً الحقل وبرفقته جنديان، اتجهوا جميعاً نحوي مباشرة، أما الطاجيكي فقد هرول في أثرهم كالجرو المخلص. كان شعر الملازم قصيراً لدرجة استطعت معها رؤية فروة رأسه الوردية تلمع تحت الشمس. وقف أمامي، وانحنى ليحييني في تواضع مصطنع مبالغ فيه، قلده فيه الطاجيكي المطيع. يا للمحاولات المفضوحة، يريدون أن يتوددوا إليّ ويثرثروا معي بعد أن جردوني من كبريائي.

قال الضابط: "سلام"، ثم طفق يقول أشياء ترجمها لي الطاجيكي: "يأمل الملازم إليسون بأن لا تكوني قد شعرتِ بالفزع".

تذكرت والدي وكيف علمني ألا أنحني أمام الشدائد، وبقيت صامتة.

"يرغب الملازم أن أنقل لك اعتذاره الخالص، لكنه يأمل بأن تتفهمي بأنه لم يكن لديه خيار". حينها ابتسم الملازم وخاطبني مباشرة بتؤدة وبنبرة عالية وجلية كما لو كنت بلهاء، وترجم الطاجيكي قائلاً: "يقول الملازم بأنه لم يكن مدركاً كم أنت يافعة، ويقول إنك تذكرينه بأخته الصغرى التي في الجامعة. فهي تريد أن تصبح طبيبة، وربما ستأتي للعمل في إقليم قندهار".

بوجه قدّ من صخر تذكرت أختي فوزية التي ماتت قبل أوانها.

تابع: "يقول الملازم إن جده ساهم في بناء الطرق السريعة في قندهار بعد الحرب العالمية الثانية".

فكرت في نفسي: "وبماذا يهمني ذلك؟ وأشحت ببصري بعيداً".

تداعى صوت الملازم لثوان أمام صدودي، ومن ثم خاطب الطاجيكي بلهجة واثقة، فترجم لي الأخير: "يريد الملازم أن يسألك بضعة أسئلة". أخرج الأميركي دفتراً وقلماً واستعد لتدوين إجاباتي وراح يبتسم لي مشجعاً. غير أني تجاهلته قائلة للطاجيكي:

"أنا لن أجيب على أي شي قبل أن تعيدوا إليّ جثة أخي".

قال الأميركي: "كما سبق وشرحت لك، ليس بمقدورنا فعل ذلك. هناك قواعد ولوائح تنظم مثل هذه الأمور".

أجبته بنبرة مفعمة بالاحتقار: "ليس لدي أدنى شك في هذا. فأنتم هنا لتفرضوا علينا قوانينكم بالقوة، لكنها لا تعني لي شيئاً".

هنا أقحم الطاجيكي نفسه في الحديث فرد عليّ بسرعة: "أيتها الباشتونية، من الأفضل لك أن تستمعي إليه". والتفت إلى الملازم يجيبه على ما بدا أنه استجواب حول رد فعلي على كلامه. تمشيا جيئة وذهاباً واستشعرتُ كيف استطاع الطاجيكي أن ينزع فتيل العدائية من استفسارات سيده ببعض العبارات المنمقة التي أحسن صياغتها. في نهاية الأمر التفت إلي قائلاً: "يود الملازم أن يؤكد لك أنك إذا ما أجبت عن أسئلته فسيجري الترتيبات اللازمة لتحصلي على الفحص الطبي الشامل الذي تحتاجينه، تحديداً فيما يخص جروح ساقيك".

تمالكت نفسي رغماً عني، لكنني اضطررت لابتلاع ريقي أكثر من مرة قبل أن أستطيع الكلام، ومع هذا بالكاد استطعت التعرف على الحشرجة التي خرجت من شفتي وأنا أقول: "غاية مرادي هي إنجاز المهمة التي حملتها على عاتقي كي أتمكن من مغادرة هذا المكان التعس. لا أريد شيئاً آخر".

بدت علائم الخيبة على وجه الضابط، لكنه أخفاها بابتسامة مصطنعة ظن أنها ستجعلني أقع فريسة حيله المكشوفة حد السخافة. أشحت بوجهي بعيداً عنه وأرسلت بصري إلى الجبال خلفي. هناك على رقعة ما من تلك الزمردات الخضر تقع قريتي. وعلى الرغم من محاولتي الحفاظ على رزانتي، خانتني دمعة فاضت من مقلتي وتدحرجت منهمرة على القميص الذي طرّزتْه لي أختي فوزية بالورود. لكم أشتاق إليها، أشتاق إليهم جميعاً حد الألم. وما من شيء تتوق إليه نفسي الآن سوى العودة إلى منزلي، لكنني أدرك أن هناك مواقف لا رجوع فيها.

تنحنح الضابط، وكذلك فعل صبيه، وقال: "سنتركك الآن".

قلت له: "أرجوك أبصر بعين قلبك وأعد إليّ أخي".

أجاب: "لا أستطيع، الأمر ليس في يدي، عندي أوامر يجب أن أمتثل لها".

راقبتهم وهم يغادرون بغضب عارم، وأنا أفكر في يوسف وهو يتعفن في مقرهم. لم يمضِ وقت طويل حتى فوجئت برؤية الطاجيكي وهو يعود بصحبة أميركي آخر، وطبعاً مع جنديين مدججين بالأسلحة. أما الملازم فلم يكن برفقتهم هذه المرة، مما أشعرني بارتياح جلي.

وقف الوافد الجديد أمامي، ودونما كلام، مدّ إليّ قطعة من القماش البني المتيبس المهترئ. ثبتّ نظري عليه بحذر فألفيته بلحية قصيرة خشنة، ووجه أحمر قاس وعينين كثيرتي الدمع. رشقني بعبارات سريعة التمعت خلالها أسنانه، وختم كلامه بفتح عينيه على اتّساعهما منتظراً ردّي. أدرت وجهي نحو الطاجيكي بانتظار أن يترجم ما قيل، بدأ الكلام بنبرة مهتزة متلكئة: "الرقيب سكوت قَدَّ قطعة القماش هذه من قميص أخيك".

تأمّلت الخرقة التي بين يديّ مصدومةً، وأوشكت أن أوقعها من يدي. بعد هنيهة سمعت صوتاً يخرج من حلقي لم أستطع تمييزه، أخبرتهم من خلاله أن أخي كان يرتدي قميصاً أخضر، أما هذا فلونه بني.

"هذا دم جاف"، قالها الرقيب بلامبالاة دفعتني إلى تصديقه. أمسكت الخرقة وشعرت بها تتوهج حمراء حامية بين كفيّ، وسألت الطاجيكي: "ماذا يفترض بـي أن أفعل بها؟".

أجابني بصوت خفيض: "يريد الأميركيون أن تدفني قطعة القماش هذه عوضاً عن أخيك، وأن تعطيهم بالمقابل المعلومات التي يسعون خلفها. بعدها سيكون بمقدورك المغادرة بسلام".

أغمضت عيني ودفنت وجهي في خرقة القماش تلك. خلف جفنيّ الموصدين تراقصت صورة أخي الشجاع الوسيم بابتسامته الحاضرة على الدوام. ورأيت أيضاً لحظة موته، تصورته فيها مستلقياً بظهر مكسور على التراب، عيناه كاسفتان خزياً وألماً على ما أعانيه. أتمنى أن أهب ما لدي من قوة لأسمع كلمة أخيرة منه. كنت لأضحي بحياتي وأنا ضحكة جذلى فداءً لك يا أخي.

وقبل أن أفتح عيني، ضغطت قطعة القماش إلى وجهي واستنشقت منها ملء رئتي لأشتم في ثناياها عبق بيتنا والجبال التي تحيطه من كل جانب. ثم تركتها تهوي إلى الأرض.

خاطبت الطاجيكي قائلة: "قل لأسيادك أنني أرفض عرضهم. وأنني لن أقايض على أساس هذه المساومة الحقيرة".

وقبل أن ينهي ترجمة ما قلته للرقيب أخرج الأخير جهازاً لوحياً لامعاً، وراح ينقر عليه بأصابعه بشدة خُيّل إليّ معها أنها طعنات خناجر. ثم أومأ نحو الطاجيكي وبدأ بإطلاق وابل من الأسئلة نحوي. كانت كلماته تخرج من فمه كطلقات الرشاش: "ما اسمك الكامل؟ ما اسم والدك؟ ما اسم قبيلتك؟ كم عدد الرجال فيها؟ كم كان عدد الذين صحبوا أخاك في الهجوم؟ من سيخلف أخاك

بعد أن مات؟ كم عدد قطع الأسلحة التي تحويها قريتك؟ كم عدد القرى التابعة لقبيلتك؟ متى...؟ ما عدد...؟ كم يبعد...؟".

قابلت كل هذه الأسئلة بصمت، لم أتزحزح حتى عندما رفع الرقيب صوته وأمال وجهه نحوي إلى حد جعل الرذاذ المتطاير من فمه ينهمر على وجهي كالمطر. وأخيراً تراجع الرقيب محبطاً وقد احتقن وجهه وصاح بعصبية: "كيف يمكن لأي شخص أن يكون جاهلاً إلى هذه الدرجة؟ أيعود السبب إلى أن النساء في قبيلتك يقبعون خلف الأبواب الموصدة عليهم بعيداً عن الرجال، كما هو الحال في بلدك الملعون كله؟".

أجبته بهدوء: "كلا، لسنا محبوسات ولا مفصولات عن رجالنا".

قال: "إذاً كيف تفسرين جهلك هذا؟ هل أنت حمقاء؟".

أجبته: "لدي أعمال أخرى أقوم بها بخلاف التنصت على ما يتداوله الرجال بينهم".

قال: "لكنْ لديك أذنان أليس كذلك؟ ولديك عينان وجميع حواسك تعمل!".

فكان ردي: "حين ينشغل المرء بالعمل فإنه لا يسمع ولا يرى ما حوله".

لا بد من أن إصراري قد ارتسم على وجهي، وتجلى ذلك في نبرات صوت الرقيب الذي بدأ يهتز فاقداً ثقته بنفسه. فأعطى إشارة للجنود خلفه فشهروا أسلحتهم مهددين في وجهي. راح الطاجيكي يناشدني هلعاً بأن أتعاون معهم، لكنني لم أستجب. تحولتْ مناشدته إلى توسلات تقوضتْ أمام جدار من الصد واللامبالاة الذي قابلته به ما جعله يصمت فجأةً وبقينا نحدق أحدنا إلى الآخر بصمت لثوانٍ.

هزّ الرقيب رأسه وقام بالنقر بشكل متقطع على جهازه، ثم دار على عقبيه وبخطوات عسكرية توجه هو ورهطه عائدين من حيث أتوا.

تركوني وحدي أحدق في خرقة القماش على الأرض، الأثر الوحيد البائس المتبقي من أخي الأبـي يوسف.

قريباً ربما سأُرسَل أنا أيضاً إلى عالم الصمت الأبدي، من يدري. وحتى ذلك الحين من الواضح أنهم ينوون إرهاقي بإجراءات مستجوبيهم اللامنتهية. إنهم عازمون على كسر معنوياتي، لكنّهم سيصابون بخيبة الأمل كما حصل عند محاولتهم دفعي للمغادرة. أنا لن أذهب قبل أن أقوم بواجبـي.

حدقت إلى السياج الشائك والجدران العالية التي تفصلني عن يوسف. لو كان الأمر عائداً إلى قلبـي لكنت أرسلت بهذه الحواجز لتسير جنوباً عبر الصحارى حتى تزول عن أرضنا. لو كان الأمر يجري وفق مشيئتي لكنت تجاهلت تحذيرات أولئك الغازين ولدككت حصنهم ذاك بيدي. كنت

لأحفر حفرة ضخمة في الأرض أواري فيها جثمان ابن أمي وأغسل عنه الخزي الذي يلحق به من بقاء جثته غير المدفونة عرضة للتحلل. لكن أغلال عقلي هي ما يأسرني، عقلي الذي يخبرني أن أي تصرف هائج من طرفي سينجم عنه موتي الأكيد قبل أن أتمكن من دفن أخي، وحينها سنصبح كلانا جثتين لا تجدان من يبكي أو يحزن عليهما أو يدفنهما وفق الشعائر الإسلامية، وسنغدو كنزاً غير متوقع للطيور الجارحة. لكن مهما كانت جروح قلبي دامية فلا خيار أمامي سوى أن ألجم غضبي وأساي بلجام من الصبر حتى أصل إلى مرادي.

وعلى هذا بقيت أنتظر بين سحابات الغبار، وصوت الصمت يرن في أذني. تدافعت الذكريات حولي تحاصرني وتملأ الفراغ المحيط بي منسابة بين ثنايا الصمت إلى أن تتسرب إليّ الأصوات التي تحملها. أي أصوات تلك؟ من يهمس بها؟

تردد صدى ضحكة يوسف في جنبات رأسي قائلاً: "نظام، أيتها الفتاة السخيفة، أنت تكلمين نفسك".

أعلم هذا يا أخي، أنا أعلم. أعلم بأن هذا كله فراغ وعدم، لكن الصمت القاسي اللانهائي هو ما يهمس في أذني. لقد أضحى الصاحب الوحيد الذي يؤنسني ويواسيني بعد أن فقدتك أنت أيضاً. يا أيها الأثر الأخير الذي بقي ممن هم من لحمي ودمي. يا من كنت صاحبي الأول والأقرب منذ طفولتي، ويا من غدوت الرفيق الأخير لي اليوم.

أواه ما أكبر هذا الألم...

ارتفعت الشمس في كبد السماء عندما ظهر الطاجيكي برفقة جندي مرة أخرى. حمل الأخير قصعة من الطعام الذي تصاعد بخاره ووضعها على الأرض أمام عربتي. تأملت رأسه الحليق بشعره القصير جداً ومشيته الشديدة الاستقامة. ألقى إليّ نظرة عابرة، وقد خلا وجهه - عدا تلك النظرة - من أي تعبير.

"هذا لك"، قال لي الطاجيكي، "الرجال في القاعدة قلقون على صحتك. لعلك تحسّنين نظرتك فيهم بعد هذه المبادرة. هناك لحم وعدس في القصعة".

مضيا بعيداً بعد أن أنهى الطاجيكي كلامه، أما أنا فتركت القصعة في مكانها دون أن أمسّها. وسرعان ما تجمّعْت حولها الغربان، فحركت عجلات عربتي مبتعدة فيما اختفت القصعة تحت إعصار من الأجنحة السود. راقبت غرابين وهما يتجاذبان قطعة من اللحم بينما كنت أمضغ خبزي الجاف الذي سرعان ما يتفتّت بمجرد لمسه، فتركته وبحثت في حقيبتي عن التين والجوز.

لم يمض وقت طويل قبل أن يعود الجندي الشاب نفسه برفقة الطاجيكي ليرفع القصعة فانتفضت الغربان عنها وهي تطلق نعيقاً حاداً. ارتسمت أمارات الألم على وجه الطاجيكي وراح يهز رأسه الصغير الحجم يمنة ويسرة.

بدأ الكلام قائلاً: "لم يكن يجدر بك أن ترفضي الطعام. لقد كانوا يحاولون أن يكونوا لطفاء معك، هذا كل ما في الأمر. لقد كانت هدية، ومن المخالف لتعاليم ديننا أن ترفضي الهدية. لقد رفضت مبادرتهم والآن هم غاضبون".

وقف على بعد خطوات مني وقال بأنه يتوجب علي ارتداء البرقع ثانية. لم يبدُ عليه الانزعاج لعدم استجابتي لطلبه، كانت تعابير وجهه تشي بالحذر إنما في الوقت نفسه بالفضول والإعجاب.

أشعل سيجارة وراح يدخنها بنفثات سريعة وهو يحدق بـي، حتى قال أخيراً: "كلانا أفغانيان، نحن تقريباً في السن ذاتها، ومع هذا فنحن في طرفين متعاكسين. أنا أعمل مع الأميركيين لأن حركة طالبان ذبحت أفراد أسرتي قبل تسع سنوات. لقد كنا تجاراً منعّمين في شاريكار، وأمي كانت سيدة متعلمة". صمتَ هنيهة سحب فيها نفساً طويلاً من سيجارته.

ثم تابع قائلاً: "بمعنى آخر، أنا أفهم ما تشعرين به، صدقيني. لكني أعتقد وبكل جوارحي بأن الأميركيين هنا لمساعدتنا، ليجعلوا حياتنا أفضل حالاً قبل أن يغادروا. أما أنت على ما أعتقد فتؤمنين بالقوة نفسها على العكس من ذلك تماماً لأنهم ذبحوا أسرتك".

أجبته: "إن ولائي هو لأخي ولذكرى عائلتي. إن يوسف ليس جيفة ليمزقها أولئك كما يفعل ابن آوى".

تأملني بنظرات طويلة خلت من العداء، وقال بإعجاب: "أنت شديدة العنف، شديدة الإصرار، لم يسبق لي أن قابلت امرأة مثلك. أعتذر عن مناداتك بالغبية سابقاً. أتساءل لو قدر لأختي أن تعيش هل كانت ستغدو مثلك؟".

سألته بحزم: "ما هو اسمك؟".

تورّدت وجنتاه وهو يجيب: "مسعود".

"إذاً استمع إليّ يا مسعود. أنت كلب، خادم لأسيادك. لقد رأيتك كيف تتصرف في حضورهم، مجرداً من أي كرامة أو احترام للذات. ليس لدي أي رغبة بالحديث معك وإني أجد حتى حضورك بغيضاً".

رفع رأسه ناظراً إلى الشمس التي باتت عمودية فوق رؤوسنا مضيقاً عينيه من أشعتها وزم شفتيه قبل أن يصطنع السعال ثم يقول: "لم يكن من الضروري أن تسير الأمور على هذه الشاكلة"، وأشار إلى رفيقه المسلح أنّ عليهما أن يغادرا.

كانت هناك رنة ندم صادق في صوته دفعتني بالرغم من كل شي إلى أن أسأله: "هل عانى.. أخي.. عندما مات، أعني..".

"كلا، لم يعانِ. كانت رصاصة مباشرة في القلب مات على أثرها مباشرة".

قلت بصوت منكسر: "هذا يسرّني".

"يجدر بك أن تُسرّي، لقد كان محظوظاً، أما البعض من البقية.. فقد عانوا كثيراً".

"أخبر أسيادك أنني لن أغادر قبل أن يعيدوا إليّ يوسف".

تلكأ قبل أن يقول بهدوء، والندم يكسو ملامحه: "إذاً ستبقين هنا لفترة طويلة جداً".

سألته: "ما الذي تعنيه؟".

أجاب: "ألم تسمعي ما قاله الملازم؟ سيحمل أخوك إلى كابول. قدره أن يحمل بالجو إلى هناك ميتاً، إنه قدر مكتوب".

راقبته وهو يمضي بعيداً مع الجندي وخفه يثير العجاج من خلفه، ثم أسندت ظهري إلى مقعدي وأنا أشعر بمطارق تنهال ضرباً على رأسي. لم يكونا قد وصلا حدود السياج الشائك الذي يحيط بالقاعدة عندما أطلقت صرخة حزن مدوية ترددت أصداؤها في جنبات السهول وأعالي الجبال. تجمد الطاجيكي مكانه والتفت إلي بعينين جاحظتين من الذعر. ألحقتها بأخرى يبدو أنها أتلفت أعصابه تماماً فالتقط خفيه ووثب سريعاً باتجاه القاعدة، فيما كان الجندي يحملق فيَّ بنظرات ساخطة لم يخفِ عداءه فيها. أخذت أضرب رأسي بقبضتيّ وبدأت الضحك بشكل هيستيري، بينما في الحقيقة كنت أبكي.

امتد النهار، الوقت يمر بطيئاً، الشمس ترسل أشعتها اللاهبة بلا رحمة بنور يعمي الأبصار. تأملت الحقل من حولي بقلب مثقل بالهم. هذا مقر إقامتي الآن، لقد باتت هذه البقعة مسكني الأخير. كم هي غريبة الحياة، كم كانت جعبتي ملأى بالأحلام، ملأى بالأمنيات.

رفعت وجهي إلى الشمس فشعرت بلظاها ينغرس في جلدي. طيلة فترة ما بعد الظهر استبدّ بي شعور عارم بالحزن. كانت الأصوات من القاعدة تتناهى إلى سمعي عبر أثير الهواء، أحدهم يضحك، آخر يصيح، وتتوقف الضحكات فجأة كما لو أنها قطعت بسيف حاد. فضلاً عن أصوات متفرقة تنوعت بين الغناء والصفير وقرقعة المذياع... تخفت وتعلو.

وبينما كانت الشمس على أهبة أن تغيب هبت رياح مستمرة من السحب التي راحت تتجمع فوق السهول الجنوبية. أما الجبال التي جعلتها حرارة النهار القائظ ضبابية، فقد انبثقت ثانية في ظل الغسق متراصّة مهيبة فوق القاعدة فيما استحال الهواء بارداً. هذه التحولات في سماء الغروب لم تسلم من أثرها مشاعري التي تعتلج في صدري، فأخذتني الألوان في نوبات متداخلة من الضحك والدموع. لقد امتدت أكثر مما اعتدت عليه في وادينا أعلى الجبال، إذ إن المرحلة الانتقالية هناك بين النهار والليل تكاد تكون لحظية، تنتقل معها خلال ثوان من نور ساطع إلى ظلام فاحم السواد.

زحفت جحافل الليل يحدوها موكب من الغيوم. كنت ممتنة للهدوء المبارك الذي خيم ولغياب الأضواء الكاشفة، لكني عندما سحبت آلتي الوترية وداعبت أوتارها شق الصمت صوت رصاصة فتوقفت عن العزف. سرعان ما تحول الهواء إلى جليدي البرودة فلبست برقعي وثنيت الغطاء فوقه، انزلقت يدي دون قصد عبر الثقب الذي صنعه أخي الرضيع يوسف في الغطاء فجعلت منه أمي مخبأً له. ترقرقت الدموع في عيني لذكرى عائلتي، ما زلت أجد صعوبة في تصديق أنهم رحلوا جميعهم وأني بقيت وحيدة.

دونما سابق إنذار أشعلت الكشافات وراح نورها يحوم في الحقول ثم يستقر علي، فانكمشت على نفسي مولية إياه ظهري فقد كنت في أمس الحاجة إلى النوم.

عند بزوغ الفجر استيقظت على صوت الأجراس الحزينة المعلقة على رقاب الأغنام، جلست في عربتي ناظرة حولي مستطلعة مكانها فإذا بـي أرى قطيعاً من الأغنام قد دخل الحقل سالكاً الممر ذاته الذي سلكته بين الجبال عند قدومي. بعضها كان عليه بطانيات، لفت نظري من بينها خروف أبيض منفوش على نحو مميز لا يعدو كونه حملاً عليه بطانية قرمزية زاهية اللون مطرزة بخيوط سوداء. انتثرت الخراف في الحقل بحثاً عن المرعى، تظهر حيناً وتختفي حيناً في لجّة الضباب.

الهدوء والبرودة يسيطران على المكان، وظلال القاعدة السوداء جعلتها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة. صفقت بيدي طلباً للدفء مما جذب انتباه الخراف التي باءت محاولاتها لإيجاد ما ترعاه بالإخفاق. ناديتها برفق فأقبلت نحوي مجتمعة تؤنس وحشتي في هذا المكان بعيونها المستطلعة، وتستحضر إلى ذهني ذكريات الطفولة عندما كنت أرعى القطعان في السفوح الخصيبة على الجبال. سرعان ما أخذ الحمل الأبيض يتقافز أمامي مرحاً فرحت أداعب الزغب تحت ذقنه وأمسد خطمه كما يطيب للخراف عادة. ثم ما لبثت نعجة أضخم حجماً أن دفعته برفق بأنفها فأدركت أنها أمه ورحت أداعبهما معاً.

شقت الشمس الأفق الرمادي صهباء اللون، فرحت أرقبها بعينين متعبتين، وقد غمرني شعور بأن الوقت الذي أمضيته هنا قد استطال وامتد أمداً طويلاً. لا بد من أن الإنهاك الذي أشعر به قد كسا كل شي بمسحة من الوهم. شعرت كما لو أنني أحيا على حدّ السكين، أيما تراخٍ في حدة يقظتي سيعني انهيار السد أمام طوفان من الدموع التي تقف على أهبة الاستعداد. أحسست في بعض الأحيان بالحمّى تسري في جسدي، واشتد هذا الإحساس بشكل خاص الآن وأنا أتلمس الحمل الدافئ الطري في قبضتي، فأرغم نفسي على التركيز على المهمة التي بين يديّ، صامتة منهكة.

دون أن أطلق الحمل من يديّ، سحبت سكيناً كنت قد أخفيتها في الثنيات الداخلية لبرقعي، وشددت رقبة الحمل بشدة إلى الخلف لأحز عنقه بخفة وقسوة، مما لم يترك له مجالاً ليثغو حتى بل اكتفى بالضرب بحوافره على الأرض. تدفق الدم راشاً القطيع المذعور حول الحمل دونما تمييز ومغرقاً الأم التي راحت تطلق صرخات لهفى عالية حتى بان بياض عينيها، وأخذت تتمايل باتجاهي فدفعتها بعيداً بيد واحدة بينما استمر الدم بالتدفق من الشرايين المقطوعة راشاً برقعي وأكمامي. ثبت

الحمل بيدي بكل ما أوتيت من قوة إلى أن سكنت نفضات جسده ورفساته. ثم أنزلت سكيني وأبعدت الأم الثكلى بقبضتيّ مخلفة علامات دامية على فروها، غير أنها ما انفكت تدور حولي تنادي صغيرها بجزع، بينما انفض عنهما بقية القطيع منتشراً في الأرجاء. في نهاية الأمر حتى هي تحركت بعيداً، فأرحت يدي اللتين كانتا ترتعشان بعنف على جسد الحمل الميت وصدري يعلو ويهبط بأنفاس متقطعة. أن يقتل المرء في هذه الظروف أمر يحتاج أعصاباً فولاذية لا أملكها الآن. الدماء.. كان هناك دم في كل مكان.

عندها فقط سمعت أصوات هياج آتية من القاعدة، كانت ثلة من الجنود قد تجمعت خلف السواتر الرملية غير أنهم كانوا بعيدين إلى حد تعذر معه استبانة ما جرى. عوضاً عنهم كان مسعود الطاجيكي هو من جرى نحوي مسرعاً لدرجة أنه انزلق أرضاً حين توقف خلف سور الأسلاك الشائكة وقد علت الحيرة ملامحه.

أشرت إلى الحمل وصحت قائلة: "هذا مقابل هدية سيدك من الطعام. نحن الباشتون أيضاً لدينا تقاليدنا الخاصة بحسن الضيافة. الآن تعادلنا".

أضاء وجهه وقد أدرك ما أرمي إليه ثم أطلق ضحكة عالية، وقال متعجباً: "لقد أحسنت صنعاً، سأوصل رسالتك حتماً".

حدج الحمل بنظرة فاحصة وقال: "سوف نولم الليلة. أترغبين بأن أحمل الحمل إليهم؟".

أجبته: "لا، أخبر سيدك بأنني أرغب بإعطائه إياه شخصياً".

قال: "سأفعل. إنه في اجتماع مع ضباطه، لكني سأجد طريقة لإخباره".

استدار يهمّ بالمغادرة ثم وقف متردداً. كان أربعة جنود يحثون الخطا نحوه يقودهم الرقيب الحاد القسمات الذي استجوبني البارحة والذي بدأ بالصراخ على مسعود من قبل أن يصلوا إليه. أشار الطاجيكي باتجاه الحمل وأخذ يشرح لهم شيئاً ما بلغتِهم، لكن الرقيب قاطعه غاضباً وسار برفقته عائدين إلى القاعدة. المثير للعجب كان أنني في خضم كل هذا قد تم تجاهلي تماماً كما لو كنت غير مرئية. راقبتهم وهم يبتعدون وأنا أتساءل في نفسي متعجبة من كونهم قد صبوا جام غضبهم على مترجمهم لا علي.

لم أدرِ ما عليّ توقعه، فقبعت أنتظر في ضوء الشمس التي تشرق. انقشع الضباب رويداً رويداً، وأخذت الشمس ترسل أشعتها الحارقة كالعادة جاعلة الأبخرة تتصاعد من الحلقة المشبعة بالدم على الأرض حول العربة. لامس نور الشمس الجدران الحجرية للمقر، وجعل الحمل الميت يبدو أكثر وضوحاً، والدم المحيط برقبته كالعقد أكثر توهجاً.

حين عاد الطاجيكي كان برفقته جنود مسلحون، ساروا معاً وصولاً إلى سياج الأسلاك الشائكة. كانت الكآبة بادية على وجه الطاجيكي الذي هوى مقعياً قبالتي ورفع صوته قائلاً: "لقد

رفض القائد هديتك"، كان يحدج الحمل بنظرات غير مصدقة، ثم استطرد: "إن الجنود الذين شاهدوا عملية ذبحك للحمل أدانوا تصرفك واعتبروه وحشياً. لقد حاولت أن أشرح لهم أنه كان هدية منك من باب حفاظك على تقاليدنا لكنهم رفضوا الإصغاء إلي. لقد سخروا من سلامة عقلك وشككوا بها. أنا لا أفهم ما يجري، ببساطة أنا لا أفهمهم".

استرق نظرة جانبية إلى مرافقيه الذين كانوا يحدّقون إليّ باحتقار جلي، ولاحظت أنهم كانوا يراقبون مترجمهم بالدرجة ذاتها التي كانوا يراقبونني فيها.

نظر الطاجيكي بعينيه الضيقتين وهو يكرر: "أنا لا أفهمهم، لا بد أن للأمر علاقة بعاداتهم. لقد تبنوا أحد الكلاب الشاردة على سبيل المثال ويعاملونه على أنه حيوانهم الأليف المدلل. يعطونه أشهى الطعام كما لو أنه ليس مجرد كلب، ذاك الحيوان الأقل نظافة بين الحيوانات جميعها في نظري. ترين الهرج والمرج يسود بينهم وهم يلاطفونه ويربتون عليه بطريقة تدفعني للغثيان. إنهم أناس غريبو الأطوار".

لاحظت وهو يتكلم أنه كان يتقدم نحوي ببطء تاركاً مسافة بينه وبين مرافقيه.

"هناك المزيد.." صمت لثوان فنظرت إليه مستطلعة فتنحنح مكملاً بتوتر: "لقد قرروا أخذك بعيداً من هنا".

تيبست أطرافي وأنا أسأله: "يأخذونني؟ إلى أين؟".

أشار بحركة مبهمة نحو الجنوب وقال: "قندهار".

"المدينة! لكن لماذا؟ مكاني هو هنا!".

"لقد قرر القائد أنه يجب إدخالك إلى المشفى، مشفىً خاص للأناس الذين تأذت عقولهم من أحداث الحرب. إنه يقول إنك بحاجة للعلاج".

"ما هذا الهراء، أنا لست مختلة عقلياً. أرفض أن أذهب".

"سيرغمونك على الذهاب بالقوة، لقد عقدوا العزم على ذلك. إنهم في طريقهم إلى هنا. ماذا عساي أقول؟ ليس هناك ما يقال".

فجأة نهض على قدميه ونظر إليّ مباشرة وقال بلهفة: "استمعي إلي! ما زال لديك الوقت للفرار. أديري عربتك وولي الأدبار وسأقنعهم أنك قد غيرت رأيك فيما يخص أخاك. إنهم ليسوا أناساً سيئين، سيتفهمون الأمر".

مال بجذعه إلى الأمام واضعاً كلتا يديه على الأسلاك الشائكة: "افعلي ما أقوله لك، أرجوك، اذهبـي بعيداً. أخوك قد مات، لكن أنت ما زال لديك حياة لتعيشيها. قريباً ستتحرر بلادنا،

سيتوصل قادتنا إلى تسوية وبعدها سنعيش كما كنا على الدوام، دون أي تدخلات خارجية".

سكت ونظر إليّ متوسلاً ثم قال: "اذهبـي من هنا إنك تضيعين وقتك، هل تفهمين؟".

انتصبت شامخة في مكاني، فتقهقر إلى الخلف ناظراً إلى الأرض والأسى يقطر من وجهه، وقال: "أنت لن تذهبـي أليس كذلك؟".

أجبته: "كلا".

قال: "إنك ترتكبين خطأً فادحاً".

"إنه قراري".

"أيمكنك إخباري لماذا؟".

أزحت البرقع عن وجهي ونظرت إليه، فتلاقت أعيننا وأنا أجيبه: "لم أستطع الحياة مع العار".

رفع يده إلى وجهه وغطى عينيه، ودون أن ينبس بكلمة أخرى استدار على عقبيه ومضى بخطوات متعثرة يتبعه الجنود، وتركوني وحدي تحت أشعة الشمس. شعرت بعطش شديد فجأة فرفعت القربة الجلدية إلى شفتي لأشرب فألفيتها فارغة من الماء.

أزلت عني البرقع الغارق بالدم محررة شعري منه، ورحت أتفحص يديّ ومعصميّ الملوثين ببقع الدم. كفاي الخشنتان باتتا بلون القرميد يحيط بهما بياض أكمام قميصي كندف الثلج.

أدرت رأسي إلى الوراء وشخصت ببصري إلى الجبال كما لو أني كنت أناظر حبيباً، فطالعتني المنحدرات بلونها الأزرق الصافي، فبدت وكأنها قُدّت من السماء. وقد أخذت أعالي التلال الآن تلتمع بلون فضي تحت أشعة الشمس ثم تستحيل إلى الذهبـي بجمال آخاذ لا يمكن أن يوجد سوى في الجنة.

بدأ الوقت ينبض بصورة خاطفة شعرت به كالتشنجات التي ترافق الحمّى. هب نسيم الصباح لا بارداً ولا حاراً إنما بثبات مثالي، تماماً كالثبات الذي جُبلت عليه.

أحنيت رأسي إلى الأسفل ورددت اسم أبـي، واسم أمي.

قلت اسم أختي، واسم أخي الصغير يونس، واسم أخي يوسف.

وحين رفعت رأسي رأيت الجنود وهم يتقدمون نحوي، يترأسهم القائد. كان العملاق الأسود معهم أيضاً، وكذلك المترجم مسعود. يا لسوء الحظ.

تلوت الشهادة في رأسي: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله...".

بدأت بعدّ الدقائق، واحد.

دوا.

دريه.

تسالور.

الأمر عائد لي الآن. أشعر بالرعب، يداي ترتجفان وفمي جاف من الحرارة.

انتظرت إلى أن دخلت ظلالهم دائرة الدم، ثم مددت يدي تحت الغطاء الذي يغطي الحمل ممسكة بسكيني وقطعت السلك.

الملازم

يا له من يوم جميل، الحرارة بين 15 - 20 درجة مئوية، والشمس تتهادى بين الغيوم القطنية المنتشرة في السماء متلألئة الزرقة، فتشرق تارة وتختفي أخرى. رحت أجذف في قارب التجذيف في نهر هادسن متتبعاً مساره العريض وهو يتدفق وئيداً بين المنحدرات المعتدلة الانحدار. بين الفينة والأخرى ترى أيكات أسدلت أغصانها في الماء مكسوة بألوان التمويه العسكرية: خضراء بنية وصفراء. لم تلتقط عيناي أي منزل، كل ما رأيته كان قطار شحن يسير بموازاة النهر لا يهدأ ضجيجه إلا عندما يبتلعه أحد الأنفاق عند المنحنيات. غير أن الصمت الذي يخيّم حينها كان أشد وقعاً من ضجيج القطار، فلا يقطعه سوى صوت النسر الأبيض الرأس الذي يحوم حولي وهو ينقض على المياه، ثم يضرب بجناحيه مبتعداً حاملاً معه سمكة فضية تتدلى من بين مخالبه.

إنني أدخن، وهذا يدهشني لأني لست شخصاً مدخناً، لكني لم أولِ الأمر الكثير من الاهتمام. وعوضاً عن ذلك نظرت من فوق كتفي إلى إسبينوسا الجالس في قاربه الأصفر الزاهي اللون المشابه لقاربي والماء يتدفق حول مجذافه. كان يدخن هو أيضاً، ورحت أتساءل في سري ما إذا كان الدافع لذلك هو محاولة التغلب على الرائحة الواخزة للتفاح المتحلل المتمايل صعوداً وهبوطاً على سطح الماء. كان هناك مئات من حبات التفاح وما يعادلها من الطيور - كالبط، والإوز، والغاق - تولم عليها، غير مدركة على ما يبدو لوجود النسر الذي يحوم فوقها في السماء. رفع إسبينوسا مجذافه فوق الماء وهزه باتجاهي، ثم وضع سيجارته خلف أذنه ليلتقط تفاحة من على سطح الماء ويلقيها إلى إحدى البطات.

أسندت ظهري وأنا أرقب المشهد ضاحكاً، ثم سرحت ببصري عبر القمم المكللة بأشجار الصنوبر. لكم أشعر بالامتنان لكوني استطعت الابتعاد عن بشاعة الحرب، وذكّرت نفسي بأن أخط رسالة شكر لأيٍ كان ذاك المسؤول عن منحي هذا اليوم بطوله للتنزه.

لاحت في الأفق جزيرة كثيفة الأشجار، وحصان أسود بنجمة بيضاء على ناصيته يقف ثابتاً في الماء حتى ركبتيه ويقضم التفاح. مررت بقاربي برقة بجواره، وشعرت بقطرات الماء تنهمر منعشة على وجهي وأنا أستنشق الهواء معبئاً صدري بروائح النهر، ومتماهياً مع اليوم الصيفي البطيء الإيقاع، وهدوء الطيور الغريب، والتفاحات الطافية على سطح الماء. بدأ أحدهم خلفي بالغناء واختار أغنية كونتري جو آند ذا فيشز، وهو خيار قد وجدته غير ملائم بعض الشيء نظراً للظروف. مرّ فولسوم من جانبي وتجاوزني بخفةٍ، وعلائم الابتهاج الشديد تعلو قسمات وجهه. لاحظت أن شاربه قد نما مجدداً، وسمعته يقول: "إن هذا مذهل يا رجل!".

ذكَّرتني معزوفة النور والظلال المتراقصة على الماء بنقوش الموزاييك التي رأيتها مرة في مسجد في إحدى القرى قرب قندهار. أدهشني أن تكون صورتها حية في ذاكرتي وبهذا الوضوح. كان المسجد البديع يقف بين المنازل المقببة المرشومة بالطين الشبيهة بأطباق البيض الكرتونية في تنافر صارخ مع الفقر المحيط به، لكن ذلك العالم في مكان آخر بعيد الآن. نظرت حولي وتوقعت أن نكون في مكان ما بين منطقتي كولد سبرينغ وغاريسون، وعلى الرغم من أنني أعجز عن إحصاء عدد المرات التي عبرت فيها هذا المكان بقارب التجذيف، إلا أنني لا أميز شيئاً من تفاصيله، لكني لم أشعر بالقلق. وقبل أن أصل المضيق الذي يستحيل النهر بعده ممراً ظليلاً أدرت قاربي لثوان لأشاهد شركة ألفا وقد استحالت مجمعاً حطت عنده قوارب التجديف الملونة بالأصفر والأحمر والأخضر كسرب من طيورٍ زاهية الألوان متمايلة على سطح الماء.

خفف فولسوم المتقدم عليّ سرعته، فأوقفت قاربي إلى جواره. كان يتعرق بشدة ثم بصق شيئاً في الماء قبل أن يسألني:

"أين نحن الآن أيها الملازم؟ في بير ماونتن؟".

فأجبته: "لا.. لا تلك المنطقة أبعد من هنا باتجاه الجنوب".

فتساءل: "إذاً أين؟ أنا لا أذكر هذا الجزء".

قلت: "لا بأس، أنت لست من هذه الأنحاء".

"هذا صحيح، كان ينبغي علينا الذهاب إلى ويسكونسن، من حيث جئت أنا. إلى البحيرات البيضاء".

"الصيد هناك طيب على ما أظن".

"إنه الأفضل".

تأخر عني قليلاً وترك لي المقدمة.

تضاءل مجرى النهر حتى أضحى مجرى يتدفق بين حواف منحدرة وعالية على الجانبين إلى حد أوشكت معه رؤية السماء أن تكون متعذّرة فوقي، ولكني مع ذلك كنت لامبالياً على نحو يثير العجب. ثم بدأت جوانب القارب تحتكُّ بالصخور، ووخزت أنفي نفحات تحمل رائحة الأرض المحترقة. قطعت طريقي لفائف الأسلاك الشائكة الصدئة المدفونة تماماً تحت سطح الماء تخفيها عن الأنظار طبقة من الأعشاب العفنة. لقد أوشك الظلام أن يخيم فيما تجمع الرجال ورائي بقواربهم في فسحة ضيقة لا تسمح بالالتفاف. فقال لي فولسوم: "أيها الملازم، مع احترامي لك، لكن هذا مسار يستحيل المضي به".

وافقته على ما لم يكن بالإمكان إنكاره وطلبت إليه البدء بالتراجع، فحاول المناورة للتحرك بقاربه إلى الوراء لكنه اصطدم بقارب الرجل الذي خلفه. رفعت يدي معطياً الإشارة للرجل الأخير ليتحرك عكسياً إلى الوراء لكنه كان أبعد من أن يراني فضلاً عن حلول الظلام. لم تكن تسمع سوى صوت لهاث الرجال واحتكاك الهيكل البلاستيكي للقوارب بالصخور. "هيا، هيا..." همس فولسوم بعنف للرجل وراءه، "هيّا تحرك... اللعنة!".

في البداية، لم أرَ سوى وميضٍ خاطفٍ منفردٍ تلاه خطٌّ سريعٌ من المتفجرات يلتمع نورها متغضناً عبر مياه قاتمة اللون. مضت ثانية أضاءت بعدها المنحدرات المحيطة بنا بنور ساطع. لقد مزقت القنابل التي ضربتنا لحوم الرجال وهياكل القوارب والمعدات. شعرت بالامتنان للدرع الواقي الذي أرتديه ثم أدركت بأنني أرتدي قميصاً قطنياً رقيقاً. جاهدت لأعتصر نفسي خارجاً من القارب لكن الجزء السفلي من جسدي بدا مثبتاً للأسفل بطريقة ما. ومع ذلك قلّصت عضلاتي محاولاً الخروج لكن دونما فائدة، لقد فات الأوان.

قذفتني الضربة التي تلقيتها على ظهري كما لو كنت حجراً في منجنيق، ووضعتني في مواجهة فولسوم لأرى في وجهه فتحة في المكان الذي كان فيه أنفه. راعني رؤية الدم المتدفق من وجهه وشعرت كالمنوّم مغنطيسياً إذ كان يصرخ لكني لا أسمع له صوتاً، فقد أضحيت تحت المياه التي اصطبغت باللون القرمزي أناضل للصعود إلى السطح، لكن شيئاً ما كان يندفع داخل فمي ويثبتني في الأسفل. بدأت بالغرغرة ورحت أضرب بيدي بينما تتلاشى قدرتي على الرؤية...

... لا أستطيع التنفس...

... أيها الملازم...

... لا أستطيع التنفس...

... ملازم فروبينيوس... سيدي...

بعينين نصف مغمضتين ميزت وجه والن وقد دفع برأسه داخل سريري ذي الطابقين. حاولت جاهداً أن أستفيق وشعرت بأنني أتحرك ببطء. ما كان يجدر بـي تناول حبة المنوم ليلة البارحة. نهضت مهزوزاً مستنداً إلى مرفقي وقلت:

"يا إلهي كم الساعة الآن؟".

"تجاوزت الواحدة، يا سيدي. لقد أضحت العاصفة الرملية خارج السيطرة، وقوات الحماية الأفغانية يريدون الدخول. من الأفضل أن تنهض".

"ما مدى سوء الأمر؟".

"إنه سيّئ... الرؤية شبه معدومة. وقد جعلت العاصفة جهاز المراقبة لدينا عديم الفائدة".

أحاول استيعاب الأخبار القائلة بأن العاصفة قد أضرّت بنظم الاكتشاف لدينا. فأنا لم أواجه حالةً حدثَ فيها ذلك من قبل.

"امنحني دقيقة، وسأكون هناك".

فنهض والن وهو يحذّرني: "يستحسن أن تلفَّ وجهك بقطعة قماش".

استلقيت على سريري هنيهةً، مصغياً إلى حبيبات الرمل وهي تلطم الجدران الهزيلة المصنوعة من ألواح الخشب والتي تفصلني عن العاصفة في الخارج. لم أكن قد حظيت سوى بثلاث ساعات من النوم، وحبة المنوم التي تناولتها آنفاً تركتني مخدر الحواس والتفكير. المكان مظلم وخانق هنا في الداخل. حككت إحدى قرصات البعوض الكثيرة على ذراعي، ما زادها سوءاً. ثم انزلقت من سريري متثاقلاً يغسلني عرقي ورحت أكيل اللعنات لكل شيء. في عجالتي أوقعت جهاز الآيبود خاصتي على الأرض ودسته بقدمي، فرفعته ورميته على السرير آملاً ألاّ يكون قد كسر، وتوجهت إلى ثيابي أصارع لارتدائها. إنني قذر غير حليق الذقن ولم أستحم منذ يومين. كل ما حولي كان مغطى بالرمل والأتربة. ربطت أشرطة حذائي مستعجلاً ثم ألقيت سترتي الواقية على جسدي وأنا أتوجه خارجاً.

ألفيتُ والن بانتظاري عند مدخل الأكواخ وقد لفَّ وجهه بقماش كان أبيض فيما مضى. كانت السماء فوقنا مرقطة بالأسود، لكن بقية العالم من حولنا بدا كجدار من الرمل البني المصفر. وعلى الفور مزقت حبيبات الرمل المتقاذفة حولنا وجهي وكفي بملايين الثقوب، فحذوت حذو والن وربطت وشاحي حول وجهي بإحكام. رائحة الكبريت المنبعثة في الجو كانت تزكم النفوس، فيما راحت الريح تصفر في الظلام بعنف، وقد بدت السماء كفوهة كهف يلفظ دوامات من الرمال، منحها الصدى صوتاً عظيماً.

تمتمت وأنا أنظر حولي: "هذا سيّئ فعلاً".

رد والن: "علينا الخروج من هذا الوضع سالمين". لكن صوته كان يفتقر إلى الاقتناع بما تفوّه به.

كان كل من ميتشل وفولسوم في نوبة حراسة عند نقطة مراقبة الدخول، لفتني جرح كان ينزف فوق عين ميتشيل رغم أنه على الأرجح لم يكن بالسوء الذي بدا عليه. رآني أنظر إلى جرحه فبادرني بقوله: "إن الرياح تحمل معها أحجاراً من الأرض. الوضع مميت يا سيدي، كما لو كنا في مرمى المقاليع!".

كان ميتشل مجنداً حديث العهد بالمفرزة، هز فولسوم كتفيه بامتعاض وهو يستمع إليه فيما لذت أنا بالصمت.

قال فولسوم: "إن فرقة القوات الوطنية الأفغانية هناك، تريد الدخول للاحتماء بالقاعدة. ما فتئوا يأتون إلى هنا لإخبارنا بأنهم لا يريدون العمل خلال فترة العاصفة".

قلت: "هذا مستحيل. سأذهب لأتكلم معهم".

التفتُّ إلى والن ونحن نشق طريقنا على طول جدار الهيسكو([3]) المحيط بالقاعدة إلى حيث يربض جنود الجيش الوطني الأفغاني في حالة بائسة، وسألته: "ما رأيك، أيها الرقيب أول؟ هل أدعهم يغادرون؟".

ضيّق من فتحة عينيه وهو يقول: "أعتقد بأن الطالبان سيكونون مجانين كي يهاجموا في هذه الظروف. ولكن من ناحية أخرى إن الطالبان مجانين فعلاً! لذا: كلا. الأفضل أن يحافظوا على مواقعهم".

قلت: "هذا ما يدور في خلدي تماماً".

بينما نحن نقترب من موقع جنود الجيش الأفغاني، تقدمنا بظهورنا كي نتمكن من التنفس، فقد باتت شفتاي مشققتين، وغلف الرمل وجهي كالقناع إلى حد أن بشرتي آلمتني عندما تجهمت. لقد أمضينا اليومين الماضيين دونما استكانة في هذه العاصفة، والآن بتنا نشعر بأنها تضرب بكل ثقلها، وتوجب علينا إيجاد طرائق للتعامل مع الوضع دون أن نتيح للعدو فرصة الانقضاض علينا ونحن بلا حماية. رجالي يعرفون هذا، أما جنود الجيش الأفغاني فحكاية مختلفة تماماً.

كان هناك ثلاثة منهم عند جدران الهيسكو، وقد أخذوا يجرون إلى الأمام حتى قبل أن نصل إليهم. لوحت لهم بيدي أن يعودوا، لكن أصغرهم حجماً - فازال أحمد - أشار لأصحابه آمراً فحاولوا المرور بجوارنا. لكني قطعت طريقهم بذراعين مفتوحتين، بينما رفع والن فازال وأنزله أرضاً عند جدار الهيسكو مزمجراً: "ابقَ هنا!".

جررت الأفغانيين الآخريْن إلى الوراء وصرخت بهما: "لا يسمح لكم جميعاً بالمغادرة". وصاح بهما والن مجدداً: "هل فهمتم؟".

لم يحروا جواباً، وعادوا ثلاثتهم للتقوقع قرب الجدار مكفهري الوجوه.

غادرناهم وأسرعنا نحو شِبَاك التمويه المحيطة ببرج الحراسة. ظل والن في الأسفل بينما أخذت الرياح تصفعني بشدة وأنا أصعد السلالم المتزعزعة، فتمسكت بكل قوتي بالقضبان الجانبية فيما راحت الرمال والصخور وكتل الغبار تعصف حولي وتضربني، حتى أصابت يدي صخرة وارتدت عنها مخلفة بقعة من الدماء. ثم لاحت المنصة فوقي بألواحها الخشبية التي راحت تصطك بعنف في الرياح والرمال تنبثق من ثناياها باستمرار. مد الرقيب براندون إسبينوسا المكلف بالمراقبة يده لينتشلني إلى فوق. كان قد مد قماشاً كتانياً سميكاً بمساعدة اثنين من جنود الجيش الأفغاني اللذين

كانا معه ليحتموا به، فيما تأرجح برج الحراسة كسفينة وسط العاصفة. بدا الإرهاق جلياً على إسبينوسا، ولا ألومه على ذلك.

صاح: "سأرسل الجنديين إلى الأسفل وأبقى هنا بمفردي. ذاك أخف مؤونة بالنسبة لي".

ملت باتجاهه وصحت: "كما تشاء".

وسرعان ما انزلق الجنديان بارتياح عبر السلم إلى الأسفل، راقبتهما وهما يذهبان وهززت رأسي قائلاً: "تراهما فتحسب وكأنهما ليسا ابني هذي الأرض".

فرد إسبينوسا: "لكنهما ليسا كذلك فعلاً. إنهما أوزبكيان، وهذه أرض الباشتون".

قلت له: "من نافل القول أن أطلب إليك أن تلزم الحذر، لكن مع ذلك..".

شقت شفتيه ابتسامة صغيرة ثم حشا لفافة من التبغ في فمه وراح يلوكها. إسبينوسا محارب مخضرم خاض حربنا على العراق، رجل قليل الكلام عظيم الفعال والكفاءة، إلى حد لا أشعر معه بالقلق لتركه وحده في البرج. حين نزلت أرضاً جرينا أنا ووالن عابرين مركز قيادة قذائف الهاون، ثم بمحاذاة جدار الهيسكو عودةً إلى نقطة مراقبة الدخول. تمهلنا بالقرب من ملجأ حفرة الهاون حيث أمّن المجندان ماني راميريز وبرات الرشاش بقماش الكانافا. دس برات سلاحه الرشاش في بطانة معطفه، بينما وقف راميريز بعيداً يقضي حاجته في أحد أنابيب الـ PVC التي حشرت في الأرض لهذا الغرض. كان منحنياً إلى الأمام وقد أعطى ظهره للعاصفة التي أبت رياحها إلا أن تحني بوله بعيداً عن حيث كان يوجهه. زرر سرواله مبتسماً حين رآنا نقترب قائلاً: "ووهوو! ووهوو..".

سعل والن وبصق حفنة من الرمل شاتماً مراراً وتكراراً.

صاح راميريز: "هذا ممتع أيها الرقيب أول!". قالها بنغمة مصطنعة مبالغ بها وهو يتبختر في المكان.

برات بدوره لم ينبس بشيء، كان جلده القاتم قد استحال رمادي اللون، وعيناه الحمراوان كالدم تفيضان بالدمع. سألته: "برات، أأنت بخير؟".

قال: "أنا بخير يا سيدي، هذا لا شيء. لقد عملت في خضم عواصف أسوأ من هذه في أسطول صيد السمك".

"أتعني عواصف ثلجية؟".

"أجل".

حاولت البحث عن وجه الشبه، ثم استسلمت.

صاح راميريز: "أتتوقع هجوماً اليوم يا سيدي؟ أكاد أفقد صوابي وأنا لا أفعل شيئاً. أنا لم أطلق رصاصة واحدة منذ أيام، أقسم بالله".

قال والن: "أنت تعاني من متلازمة توريت* يا راميريز".

رد قائلاً: "لا ريب أيها الرقيب أول، أياً كان ما يعنيه ذاك"، ثم التفت إلي متسائلاً ثانية: "إذاً؟..".

فقلت: "ربما، ربما سيسعون وراءنا الليلة. لدي شعور بذلك، وعلى المرء احترام شعور كهذا، أتدرك ما أعنيه؟".

علّق برات: "سيكون الجو مثالياً لهذا الهجوم، إن وقع".

ضحك راميريز بسعادة وراح يضرب على فخذيه ثم صاح جذلاً: "أخيراً! آن الأوان لقتل بعض السفلة الأشداء أولئك! أشعر بالإثارة!".

هبت نفحات من الريح أطارت اللثام عن وجهه فأمضى الدقائق التالية وهو يصارع ببؤس كي يعيد ربطه حول وجهه وهو يصيح: "الرمال اللعينة تدخل عيني!".

خاطبه والن بهدوء: "أنت هدف مكشوف يا راميريز"، وقد كان محقاً. فرد الأخير قائلاً: "بالطبع أنا كذلك، آه سحقاً لهذا".

بدوري اقترحت عليه ما كان بديهياً: "قد يساعدك أن تضع نظارتك الواقية". فرد: "لا أستطيع الرؤية عندما أضعها يا سيدي، فهي تعيق الرؤية المحيطية لديّ".

"فقط ضعها يا رام"، قال له برات.

برات رجل من أثاباسكا في شمال فيربانكس يعمل في الصيد، وهو أمّيّ تماماً، لكنه أيضاً المقاتل الأكثر توحشاً في المفرزة كلها. تدور حوله شائعات عن أنه قبل انضمامه إلى الجيش دخل في مشاجرة في حوض بناء السفن فانتزع أحشاء ثلاثة رجال ببساطة كما لو أنه في عراك عارض في إحدى الحانات. يحمل على الدوام معول ثلج مدبب يدسه في حزامه، ونادراً ما يتكلم، فإن فعل توجب عليك أن تميل إلى الأمام مصغياً إليه بانتباه كي تفهم ما يقول. أما راميريز فكان على النقيض منه، نادراً ما يغلق فمه. اعترف لنا بنفسه مرة أنه كان يهرب المخدرات عبر الحدود المكسيكية - الأميركية في ولاية أريزونا، لكنه سرعان ما لطّف من اعترافاته قائلاً: "كنت أقوم بهذا العمل لبعض الوقت. فقط لفترة قصيرة، أما الوقت الأساسي فقد كنت أمضيه في العمل بدوام ليلي في المتجر الاستهلاكي المحلي 7 - إيلفن". السمة المميزة لشخصية راميريز هي أنه ملول ودائم القلق، وقد اشتُهِر أنه شخص لا يخطئ في إصابة أهدافه إصابة قاتلة، لاعب بوكر متمرس، وقليلاً ما ينام. معاً شكل كل من برات وراميريز فريقاً لا يمكن التنبؤ بأفعاله، ما جعل بقية الرجال يتحاشونهما.

كانت القاعدة مستطيلة الشكل، وقمنا أنا ووالن بالدوران على محيطها كاملاً مرة أخرى مارّين على حفر مدافع الهاون التي تسترها الأكياس الرملية، أماكن حرق القاذورات، الأكواخ المصنوعة من ألواح الخشب الرقائقي، ومتفقدين لكل موقع للحراسة عودةً إلى حيث بدأنا. وطوال الوقت ما فتئت رياح البانشي [4] تجلد القاعدة بسياطها. ألقيت نظرة إلى الوراء إلى جدران الحمامات البلاستيكية وهي تمور تحت وطأة جنون العاصفة. وسألت والن مرة أخرى ونحن مختبئين خلف الخيمة الطبية:

"ما رأيك؟".

أجاب: "لا يعجبني الوضع".

"وأنا كذلك".

"نحن في وضع منعدم الرؤية تماماً. بمقدورهم اصطيادنا كيفما يحلو لهم".

"وكيف ذلك؟ إن كنا نحن لا نستطيع رؤية شي فهم كذلك أيضاً".

فأجابني باقتضاب: "يمكنهم محاصرتنا حتى دون أن نشعر. هذا هو الكابوس الذي يلازمني، كارثة أن يحاوطونا من الجهات الأربع ويشنّعوا بنا".

يبلغ والن السابعة والثلاثين من العمر وقد شهد هو أيضاً كإسبينوسا حرب العراق، وقد كنت أستمع لآرائه كلها لأنها كانت عميقة، لكنني الآن رحت أغيظه قائلاً: "يبدو أنك أفرطت في مشاهدة الأفلام أيها الرقيب أول".

فضحك قائلاً: "أنت من سأل".

استطردت قائلاً: "لكني في الوقت ذاته لا أجد أن في وسعنا ما نفعله في هذا الوضع سوى الانتظار. رأسي خال تماماً من الأفكار".

رد عليّ سخريتي بقوله ضاحكاً: "إنه التعليم النظري الذي حشوا به رأسك في الجامعة لم يترك مكاناً لغيره سيدي الملازم".

أجبته متفكراً: "لعلك على حق"، ثم قررت: "أيقظ غرول وسبيتز وأرسلهما ليأخذا مكان جنود القوات الوطنية الأفغانية. سأسحب الجنود الأفغانيين من مواقعهم، إنهم عديمو الفائدة في ظرف كهذا".

"حسناً، وسأوقظ القائد أيضاً".

"كلا، دعه وشأنه".

تردد وهو يقلب الأمر على وجوهه في ذهنه، بالنسبة إليه فإن رئيسه المباشر هو إيفان كونولي، القائد في شركة ألفا، لكننا كلانا نعلم أن كونولي لم يكن الرجل الأمثل لقيادة الأزمات، لذا كان لدى والن سبب وجيه لأن يتجه إليّ لإطلاعي على المستجدات أولاً، وكان لدي السبب ذاته لأن أتجنب إيقاظ كونولي.

ومع ذلك فإن علائم القلق لم تبارح وجه والن، إذ قال: "إذاً سأوقظ الملازم إيلسون".

"كلا، دعه نائماً هو أيضاً، فقد كانت نوبة الحراسة الأخيرة من نصيبه".

فقال: "ملازم فوربينوس، لست واثقاً من صواب ما نفعل".

أجبته مطمئناً: "هيا أيها الرقيب أول، بمقدورنا تولي زمام الأمور".

انطلق والن بعد كلامي فيما توجهت أنا عائداً إلى موقع الجنود الأفغان. وعند اجتيازي لموقع فولسوم وميتشل أنعمت النظر في العباب المظلم أمامي فلم أستطع رؤية الأسلاك الشائكة على الإطلاق. مررت ببصري على امتداد جدار الهيسكو وبالكاد استطعت تمييز برج الحراسة. هناك خطب ما، أشعر بذلك.

سمعت صوتاً خفيضاً خلفي، التفت فألفيت شورتي الجرو البالغ سنة من العمر والذي تبناه الرجال في القاعدة يتمسح بقدمي وذيله بين قائمتيه. شورتي كان على النقيض من الاسم الذي أطلقناه عليه، فهو ليس بالضئيل بل خليط من كلاب الدراوس الضخمة وأحد أنواع الكلاب الأفغانية، لا يسعني أن أتخيل كم سيكون حجمه عندما يصبح بالغاً. انحنيت مربتاً على ظهره برفق فشعرت تحت يدي بالرمال والغبار يملأ فراءه الكث. عاد الكلب إلى "الهرير" التي سرعان ما تحولت إلى زمجرة كشر فيها عن أنيابه. كان يشير إلى الأسلاك وقد انتصب ذيله مستقيماً وراءه ككلاب الصيد. شعرت بقشعريرة تسري في جسدي وخاصة حينما عاد إلى الزمجرة ثم انطلق ينبح بلا توقف. لا بد أن خطباً ما سيقع بلا شك.

انضم إليّ والن لاهثاً، كدت لا أصدق أنه أدى مهمته وعاد بهذه السرعة، عندما قال بأنفاس متلاحقة: "غرول وسبيتز في طريقهما إلى هنا، والنقيب تانر عند نقطة مراقبة الدخول". بدا لي واضحاً أنه قلق. شرعنا بالركض سوية باتجاه موقع الجنود الأفغان، والكلب في أثرنا ثم انطلق فجأة ليسبقنا مختفياً في طيات العاصفة حيث سمعناه ينبح بشدة.

استدار الجنود الأفغان وراحوا يراقبوننا ونحن نقترب منهم دون أن يحرك أحد منهم ساكناً إلى أن أصبحنا أمامهم.

"هل ترون شيئاً؟". سألهم والن بأنفاس متقطعة وهو يشير ملوحاً بيديه باتجاه محيط القاعدة. أماط فازال أحمد اللثام عن وجهه وقد بدا عليه الاشمئزاز، وحذا حذوه كل من رفيقيه ووقفا يطالعاننا بوجوه كالحة، دون أن يحر أي منهم جواباً.

تملكني شعور شديد بالانزعاج دفعني للإمساك بذراع فازال أحمد بقوة وجذْبه إليّ بعنف ما جعل مرافقيه يتعالى صوتاهما بالاحتجاج. قاومني الرجل وقد امتلأت عيناه حنقاً وألماً لكنه ظل محافظاً على صمته العنيد. وفجأة ترنح وسقط بثقله على كتفي، ندت صرخة عن أحد مرافقيه وأنا أحاول أن أعيده إلى توازنه، ثم تركته بصورة مباغتة ليسقط على الأرض وقد انزاحت خوذته عن رأسه حاملة ثقباً دائرياً متقناً في مؤخرتها، فيما تساقطت قطع وشظايا من دماغه على ياقة قميصه.

استدار الجنديان الأفغانيان جنباً إلى جنب بعيون مستطلعة نحو الأسلاك الشائكة. كان كل ما استطعت رؤيته في بادئ الأمر في الظلمة البنّية اللون شرارة عيار ناري واحد، سرعان ما استحالت إلى قوس من الذخيرة الخطاطة شقت عباب الضباب. شاهدت كلاً من سبيتز وغرول يجريان نحونا في الوقت عينه الذي بدا فيه خيال رجل معمم يثب عبر فتحة مخفية في السياج الشائك. صرخ والن بصوت مدو: "اختبئوا! لقد تم اختراقنا!" وغاص تحت الجدران المصنوعة من أكياس الرمل والمحيطة بموقع الجنود الأفغان. أطلق شيء ما صوتاً أشبه بالصراخ الحاد وهو يمر فوق رؤوسنا ثم تفجر عند مهاجع الجنود، لقد كانت قذيفة مدفعية عيار 88 مم. ظل الجنديان الأفغانيان جامدين في مكانهما المكشوف للعدو. غير أن الأخير ما لبث أن فتح النار علينا من مسافة 50 متراً تقريباً، وسمعت صوت طلقات الكلاشينكوف والقذائف الصاروخية. عندها انتبه الجنديان الأفغانيان من غفلتهما وارتميا أرضاً أخيراً زاحفين باتجاه رشاشيهما غير أن غرول وسبيتز سبقاهما إليه. رحنا نبادلهم إطلاق النيران فيما كان رصاصهم يمطر جدران الهيسكو حولنا. بدأ الجنود يتهافتون علينا ونظرت حولي فألفيت معظمهم بالسراويل القصيرة والخف المنزلي، لا بد أنهم أتونا رشقاً من أسرّتهم. قام أحدهم بتفجير الألغام فابتلعت الرجل المعمم وأخفته تحت الغبار والدخان الناجم عن الانفجار. في تلك الأثناء باشر المجند جاكسون إطلاق النار من رشاشه m-203؛ كان ذاك تصرفاً حسناً منه، فهو كالعلاج الشافي في ظروف كهذه. من برج الحراسة أطل إسبينوسا وهو يدور على نفسه وقاذف القنابل أتوماتيكي التلقيم في يده يطلق نيرانه بلا توقف. وعلى الفور تقريباً سمعت صوت هدير الثأر العائد للقذائف الصاروخية وهي تدك برج المراقبة فتحيله ركاماً أسود اللون. صوت الآر بـي جيه ذاك أتى من جهة مغايرة عن القذائف التي في مواجهتنا والتي سمرتنا في أماكننا. لقد كنا نتلقى الضربات من الشمال ومن الغرب، والآن بات هناك من يطلق علينا قذائف الآر بـي جيه من الشرق. أعدت سيناريو كابوس والن في رأسي: إننا محاصرون، وليس بمقدورنا رد النيران بشكل فعال، بل نطلقها عشوائياً.

اندفع شورتي ماراً بجوارنا بخفة متجهاً إلى المهاجع، فصاح به أحدهم: "ابتعد أيها الكلب!" كان الكلب ينبح كالمسعور، لكن صوته ابتلعته العاصفة. بدد الرصاص الخطاط شيئاً من الظلمة ما مكنني من رؤية سوية التصويب عالي الدقة التي لدى العدو. لقد أحاطوا بنا من جميع الجهات وحصرونا في مكاننا. لا بد وأنهم قد بدأوا التحرك والتموضع بمجرد بدء العاصفة. أمامي كان كل من غرول وسبيتز يطلقان النار بصورة ممنهجة من رشاشيهما وقد استطعت سماع

سبابهما. وعلى مقربة منهما كان الجنديان الأفغانيان يطلقان نيران رشاشيهما الـ M4، إلى أن تعطل أحد الرشاشين فحاول الجندي فك استعصائه بأن بصق في فتحة المغلاق. لكن ذلك لم يجدِ نفعاً فألقاه بعيداً عنه بعصبية ووثب بسرعة متجهاً إلى مدافع الهاون، لكني سبقته إليها ورحت أطلق رشقات نارية قصيرة منها. وإذا بوالن يجذبني إلى الأسفل مزمجراً: "ما بك؟ أتريد أن تموت شاباً؟". كان وجهه محتقناً بفعل الإجهاد وقد انحسر المنديل عن رأسه. شرع الجندي الأفغاني الآخر بإطلاق النار ثم انهار على ركبتيه فسحبته من صدارته إلى الأسفل. باتت الأرض مغطاة بفوارغ الطلقات. كان كل شيء يحدث بسرعة مهولة.

انقشع الغبار من حولي لثوان لمحت فيها كونولي على ميسرتي، واقفاً خلف ميتشل وفولسوم، ويصرخ في جهاز الراديو الذي في يده معطياً شبكة الإحداثيات. صحت منادياً إياه وأسرعت نحوه بين دفقات الطلقات المنهمرة فوق رؤوسنا.

هب واقفاً وأطلق حزاماً من الطلقات ثم توارى مختبئاً في الأسفل.

صرخ قائلاً لي: "إننا في أتون من الطلقات الملتهبة! وليس بمقدوري حتى استدعاء التعزيزات!".

أجبته صارخاً أيضاً: "لا ريب في ذلك سيدي، إذ ستكسحهم العاصفة".

سألني: "من أين أتوا؟".

قلت: "لا بد من أنهم استخدموا الممرات المتشابكة النازلة من الجبال".

رد قائلاً: "هذا منطقي. حسناً سأدور إلى الخلف لأرى كيف تسير الأمور مع إليسون". ثم ألقىّ إلي نظرة شزرة قبل أن يقول: "كان يجدر بك إيقاظي في اللحظة التي شككت فيها بوجود حالة من الفوضى أيها الملازم. سنتحدث في هذا لاحقاً".

ضربت قذيقة هاون جدران الهيسكو في اللحظة التي انطلق بها، فتعثر، ثم استعاد توازنه وجرى مسرعاً. نظرت حولي فألفيت الأرض قد تغطت بخوالف من الفوسفور بيضاء اللون من القذيفة، راقبته وهو يتوارى عن الأنظار، ثم انضممت إلى ميتشل وفولسوم وأنا أغلي حنقاً من تأنيبه لي. لكنه كان على حق إلى حد ما، كان يجب علي أن أطلب إلى والن أن يوقظه.

لمحت شبحاً أسود يمر عبر الأسلاك، في اللحظة ذاتها صرخ ميتشل: "لقد اجتازوا الأسلاك الشائكة!".

بدأ فولسوم بكيل الشتائم واللعنات، لقد علق رشاشه الـ M-240 وبدأ الدخان يتصاعد من سبطانته، "هيا.. هيا.. هيا تباً لك". واستطاع أن يشغله ثانية.

صوبت بندقيتي الـ M-4 نحو الشبح مفرغاً ذخيرتها باتجاهه، فما كان منه إلا أن ترنح متراجعاً إلى الخلف ثم سقط على الأسلاك، أدركت حينها أن ذخيرتي قد نفدت فيما عدا خزان واحد فقط.

شق سمعي صوت الرصاصة الذي لا تخطئه أذن وهي تمر على بعد إنشات مني. اهتز على إثرها فولسوم بعنف واستدار متثاقلاً ليسقط بعدها متهاوياً بين ذراعي. كان هناك فجوة كبيرة في وجهه حيث كان يوجد أنفه، تدفق منها الدم كالينبوع. حاولت أن أرفعه لكن رأسه تأرجح ثم سقط على أحد الجانبين، وانطفأ النور في عينيه اللتين تراجعتا في محجريهما. لقد مات.

هبت عاصفة رياح غطتنا بالأتربة التي تحملها. مددته أرضاً وأسرعت لآخذ مكاني إلى جانب ميتشل، وأنا ألقمه حزام الطلقات. كانت يداه شديدتي البرودة وعيناه تحملقان بفولسوم، فحثثته بقولي: "امضِ بعملك، فقط امضِ به". فثبت رشاشه ببراعة متجاهلاً ما يعتمل في نفسه. بالنسبة لمجنّدٍ غرٍّ كان متماسكاً على نحو جيد. ثم ما لبث أن حدق بـي وقال صائحاً: "هذا جنوني!" شعرت بالأدرينالين يضخ في عروقي وأنا أرد صائحاً أيضاً: "لا تفكر كثيراً بما يحدث"، ثم بدأت بالسعال. لقد دخلت الرمال ما بين وشاحي وفمي وغطت وجهي بطبقة سميكة جعلتني أواجه صعوبة في التنفس، فتنحنحت وبصقت. فولسوم.. إن دمه يغطيني.

عبر شبحان آخران الأسلاك الشائكة. علقت بندقية ال M-240 ثانية، وفيما راح ميتشل يكافح مع ماسورتها المغطاة بالرمال والحصى سحبت بندقيتي M-4 بسرعة ووجهتها صوب العدو. وقبل أن أتمكن من إطلاق النار، سقط أحدهم، لقد أصيب بلغم. ولكن الآخر كان يتحرك بخفة وكأنما يطفو في قلب العاصفة مطلقاً النار ببرود من الكلاشينكوف وبيد واحدة. مزّق وابل متعرّج من النيران جدران الهيسكو. شعرت بالأوساخ تصفع وجهي، ثم شاهدت ميتشيل يمسك مرفقه بقوة ويتراجع إلى الوراء عن سلاحه، لقد أُصيب. وسرعان ما ضربت رصاصة أخرى صدره ولكن درعه الواقية أنقذته. ومع ذلك، فقد جعلته يستدير حول نفسه وشلال من الدم يتدفق من ذراعه. رأيته يقرفص أرضاً وهو في حالة من الخدر والذهول. وكنت على وشك أن أصيح عليه بأن يتراجع عندما ظهر كبير المسعفين لدينا، دوك تايلور، وهو يقفز محاولاً الوصول إلى ميتشل. فأفرغت المخزن الأخير الذي كان بحوزتي لأغطيه، ثم التقطت مسدساً من عيار 9 ملم ألقى به دوك إليّ، لكني للأسف أضعت المحارب الثاني فلم أعد قادراً على رؤيته، إلا أن فريقاً من المقاتلين استقر بجانبنا وبدأ بإطلاق نيران الرشاشات الأتوماتيكية التي ظلت مستعرة. كل من كان حولنا من جنود راح يفرغ مخزن ذخيرته في الظلام. مولدين ضجيجاً يصم الآذان، زاده ضخامة صوت عويل العاصفة. فوق رؤوسنا رسمت نيران الذخائر الخطاطة المتدفقة ذهاباً وإياباً شبكة مضيئة حمراء اللون. وراحت الرصاصات الواردة تطلق شرراً إثر اصطدامها بالأسطح المحيطة. لقد كنا نتعرض لإطلاق نيران كثيف، مركز دقيق، ومن الاتجاهات جميعها.

راح دوك يلف عصابة حول ذراع ميتشل، فيما بدا لنا أنه شديد التألم، غير أن الرمال جعلت مهمة دوك صعبة. وفي أثناء تلك العملية لمحت عظمة بيضاء تخترق لحمه ناتئةً بين حروف وشمٍ حمله على ذراعه لكلمة "وثني". حزم دوك تجويف الجرح النازف بالشاش، ثم ربط ضمادة حوله وأدخل حقنة وريدية في الذراع الأخرى وهو يقول لي: "إنها معجزة أنه لم يصب بعد"، ثم قال محدقاً في فولسوم: "هل هو...؟".

أجبته: "لقد مات. الآن خذ ميتشل واخرج من هنا!".

تجاهلني وجثم على فولسوم.

صرخت به: اذهب، اذهب، ***اذهب***...

نهض ميتشل متحاملاً على نفسه ومشى بعيداً باضطراب. كذلك فريق الأسلحة الخفيفة بدأ بالتراجع أيضاً. أما دوك فقد سحب فولسوم من كتفيه جاراً إياه أمامي.

في اللحظة الأخيرة، التفت إلي وصرخ: من الأفضل أن تتراجع، أيها الملازم! لقد تمّ اجتياحنا.

نظر ميتشيل إلى الوراء نحوي، شاحب الوجه، مندهشاً، كما لو أنه لا يستطيع أن يصدق ما يحدث.

التقطت منه سلاحه الـ M-4 الملقى جانباً، وإذ بشيء ما يصدمني في مؤخرة رقبتي. شعرت بأن أنفاسي تنفجر خارجة مني وقد قذفني الارتطام إلى الأمام كما لو كنت في منجنيق. ثم بت أحدق في السماء، كل شيء من حولي أصفر اللون على نحو غريب...

... لا أستطيع التنفس...

... أصفر، أصفر، مرحباً...

... لا أستطيع التنفس...

... مرحباً؟ لا أستطيع سماعك...

... مرحباً؟ هل من أحد هناك؟

... مرحباً... إيميلي؟

... نيك؟ لا أستطيع أن أسمعك... صوتك متقطع...

... ننفصل...

... نحن ننفصل... أنا آسفة، نيك، أنا أنفصل...

... عنك...

... أنت...

"إيميلي؟".

"مرحبا نيك".

"إميلي، أنا أحبك، يا طفلتي. استلمت رسالتك. من فضلك لا تفعلي هذا بـي! رجاء".

"لماذا تتصل بـي يا نيك؟ طلبت إليك ألا تفعل. هذا سيجعل الأمر أكثر صعوبة وحسب".

"إذاً ترسلين لي رسالة تخبرينني فيها أنك تنفصلين عني، وأنا لا أملك حتى الحق في أن أسألك عما يحدث، بحق الجحيم؟".

"أنا آسفة يا نيك، ولكن لا أستطيع أن أتحدث إليك. آسفة جداً".

"ما هذا؟ هل هناك شخص آخر؟".

"بالطبع لا. كنت أخبرتك لو حصل هذا".

"إم، لقد كنت أعد الأيام. تباً هذا جنون محض! إنني في التيه، أعتمد اعتماداً كلياً على هاتف غبـي ليحفظ سلامة عقلي و... أنا لا أصدّق ما يحدث. أنت شريان حياتي. قولي إنّ هذا لا يحدث، قولي بأن كل شيء سيكون على ما يرام".

"نيك".

"ماذا؟".

"لقد فات الأوان".

"لماذا ا؟ حباً بالله، لماذا؟".

"لأنك تغيرت! لقد تغيرت كثيراً. اقرأ رسائلك فأشعر بأني لم أعد أعرفك مطلقاً. هناك الكثير من العنف في داخلك. من أين أتى هذا كله؟".

"عنف! بحق المسيح. أنا في منطقة حرب، في وسط أفغانستان! ماذا تتوقعين؟".

"لقد أردتَ الذهاب إلى جامعة ييل لدراسة اللاهوت حين التقينا. هل تذكر؟".

"كان هذا قبل زمن بعيد".

"ليس بعيداً جداً. منذ ثلاثة أعوام".

"حسناً، ثلاثة أعوام. إلامَ ترمين؟".

"كان ذاك هو الرجل الذي وقعت في حبه".

"الناس يتغيرون يا إميلي".

"ليس إلى هذا الحد. أنا لم أفعل".

"ما الذي يفترض أن يعنيه هذا الكلام؟".

"سأحبك دائماً يا نيك، ولكن لا أستطيع أن أتخيل حياتي معك".

"ألا يمكن أن نتحدث عن هذا عندما أعود؟ رجاء؟ أنا أرجوك جاثياً على ركبتي. سأكون في المنزل في أقل من سبعة أسابيع".

"لن أكون هنا عندما تعود يا نيك".

... إميلي، لا تتركيني...

... مرحبا...

... إميلي، لا تتركيني يا حبيبتي، أرجوكِ.

... ليس لدي أي مكان آخر أذهب إليه.

... أنت بخير، أيها الملازم...

...

دوك...؟

لا تحاول التحدث.

ماذا حدث؟

لقد أصبت بطلقة...

... لا أستطيع التنفس...

... حاول أن تضفي بعض المشاعر، فروبنيوس...

...

ماذا...؟

مشت جوان حولي، كانت تنظر إلي كما لو كنت أستيقظ لتوي، وقالت: "عليك أن تتمثّل الموقف يا نيك. تقمّصْه في أعماقك. هذه هي مأساة لسوفوكليس، وليست مسرحية على برودواي. أنت في حضرة إله الموت. والآن: أظهر ذلك".

"أنا آسف يا جوان. أواجه مشكلة في التنفس. لعلها رهبة المسرح".

"حسناً، إهدأ ولنجرب مجدداً. لا انتظر. إيميلي، لم لا ترينه المطلوب؟ اقرئي من الجوقة، السطور من 115 وحتى 120".

"بالتأكيد".

أقبلت نحونا فتاة شقراء، صغيرة الحجم، ومدت لي يدها وهي تقول: "مرحبا، أنا إميلي. إميلي ترونّيس".

"وأنا نيك. نيك فروبينوس".

"فروبينوس. فنلندي؟".

"قريب من ذلك. والدي من السويد، في الواقع".

"السويد. هذا رائع".

"بالمناسبة، إنها المرة الأولى لي على خشبة المسرح، لعل هذا السبب في أنني أخطئ باستمرار. تخصصي هو في الأدب الكلاسيكي".

"الأدب الكلاسيكي، كم هذا رائع. إنني طالبة في السنة الثانية. ورغم أني لم أعلن عن رغبتي بعد، إلا أنني عازمة على التخصص في المسرح".

صاحت علينا جوان ممازحة بفظاظة: "حسناً، أنتما الاثنان. يكفيكما دردشة الآن".

فأجابتها إميلي ضاحكة: "إننا فقط نحاول أن نتعارف كي نقدم عرضاً أفضل للمشاعر".

أجابتها: "عرض أفضل للمشاعر إذاً. عندما تقرران أخذ وقت مستقطع من غزلكما، أود أن نتابع المسرحية، لو تكرمتما".

تضرجت وجنتاي بحمرة الخجل من كلامها وهتفت: "غزل، يا إلهي!".

فقالت إميلي: "لا تلق لها بالاً. إنها تنبح كثيراً لكنها لا تعض".

تراجعتْ إلى الوراء، ثم توقفتْ، ومررتْ يدها على وجهها. عندما نزلت يدها إلى الأسفل كانت قد أضحت شخصاً مختلفاً. استحالت امرأة منهكة الملامح، مما حدا بـي إلى التحديق في التجاعيد الصغيرة التي ظهرت كما السحر على جانبـي فمها وعينيها، متسائلاً في نفسي أن كيف قامت بهذا التحول الذي يخلب الألباب!؟؟

ثم وبصوت مملوء بالجاذبية، قالت:

بولينيكيس!

لقد وقف فوق منازل مدينتنا، حائماً هناك،

طاعناً برمحه المتعطش للدم،

صانعاً دائرة سوداء من الموت.

ثم، وقبل أن تتمكن نيران الحرب من حرق تاج برجنا،

وقبل أن يرتوي بدمائنا،

نكص على عقبيه.

فقد صرخ إله الحرب في إثره.

طيبة نهضت كالتنين في وجهه.

وتوقفتْ، فهمستُ منبهراً: "أبدعتِ".

بعد لحظة، تحركتْ بعيداً عني وهي تسألني: "هل تريد أن تحاول الآن؟".

قلت: "بالتأكيد. كنت رائعةً بالمناسبة".

"شكراً لك".

"أعني، حقاً، كان أداؤك هائلاً!".

"شكراً، شكراً جزيلاً".

بدأتُ القراءة مندفعاً، ثم أدركت أنني أقرأ عشوائيا، فتوقفتُ. استدرت لأنظر إلى نفسي في المرآة، فألفيت وجهي شاحباً.

قالت لي إميلي: "عليك أن تهدأ".

مالت إلى الأمام ولمست ذراعي، وبمجرد أن أفلتتني رحت أرتعش. حدقتْ إلى وجهي وحدقتُ إلى وجهها إلى أن مالت نحوي ولمستني مجدداً، فتوقفت عن الارتعاش.

تساءلت جوان: "ما الذي يجري هنا؟" ثم استطردت: "ربما يجب علينا أن نحاول شيئاً آخر. فلنرَ.. لماذا لا تقرأ من كريون، السطور 174 إلى 180. نيك؟".

انتفضت هاتفاً: "أنا آسف. ماذا قلت؟".

دارت عينا جوان في محجريهما تذمراً، وقالت: "أين أنت، فروبنيوس؟ الأرض تنادي نيك".

حركت يدي حركة تنم عن الضيق والحرج فتناولتها إميلي وهي في الهواء بين كفيها، وضغطت عليها بلطف قبل أن تدعها. كانت راحة يدها رطبة قليلاً، فخفق قلبي بشدة، وشعرت بالدوار. أرخيت نظري إلى أسفل بارتباك، ورحت أبحث في الصفحات عن السطور المطلوبة.

فإذا بإميلي تهمس: "يمكنك القيام بهذا. كن ملكِي".

نظرت إليها متعجباً واجتاحني تيار من القلق سرعان ما تحول إلى البهجة.

قلت وأنا لا أزال أحدق إلى وجهها: "حسناً".

صاحت جوان بصبر نافد: "نيك!".

"يا رجال طيبة"، قلت فجأة، وقد نمّ صوتي عن الثقة بالنفس التي شعرت بها، *"لا يمكن لملك أن يتوقع الولاء الكامل من رعاياه إلى أن يظهر سيطرته على الحكومة والقانون. لا يمكنكم أن تعرفوا خفايا عقله، ولا مكنونات روحه.*

إني أؤمن حقا بأن الرجل الذي يسيطر على الدولة يجب أن يمتلك رؤية أخلاقية عليا لمستقبلها. ولكن إذا كان عرضة لخوف يمكن أن يقعده أو يقفل فمه، فإنه أسوأ من قاد هذا البلد أو يمكن له أن يقودها حتى الآن".

توقفت قليلاً، وشرعت إميلي بالضحك.

سألتها: "لماذا تضحكين؟".

فأجابت: "أنا أضحك لأن هذا رائع. أنت كنت رائعاً".

قلت: "هل أنت جادة؟".

ردت: "بالطبع أنا جادة، أيها الأحمق".

وأخذت يدي في يدها.

...

... إميلي...

... لا بأس عليك يا نيك.

...

أيها النقيب...؟

"كيف تشعر؟" سألني كونولي.

"لست أدري. ذهني مشوّش".

"لا ريب في هذا، على رِسلك الآن".

"أين أنا؟".

"لقد رددناهم على أعقابهم، يا صاح. لقد سحقناهم! شياطين الرمال اللعينة. جميعهم ميتون".

شياطين الرمال. ماذا تقول؟".

"استرح. انتهى الأمر. لقد استدعيت الطائرات، إنهم في طريقهم إلى هنا. سنقوم بإخلائك طبياً من هنا، أيها السافل المحظوظ. ستكون على ما يرام".

"كم الساعة؟".

رفع ساعته الرقمية أمام عيني. فظهرت الأرقام خضراء اللون ضبابية أمام عيني.

قال: "04.00. لقد خمدت العاصفة وهدأ كل شيء".

انحنى مقترباً من وجهي. لا يزال مرتدياً درعه الواقية، ووجهه متسخ تغطيه الرمال. ما جعلني أتساءل في نفسي عن حال هيئتي.

سألني: "بالمناسبة، هل بإمكانك أن تسمعني؟".

أجبته: "بالطبع أستطيع سماعك".

قال: "حسنا، حسنا، لا داعي للاضطراب. أنا فقط اطمئن عليك، هذا كل شيء".

سعلت بضع مرات. شيء ما يقطر من فمي فيميل كونولي ويمسحه.

"لقد أعطت حالة الجنون التي مررنا بها معنى جديداً لمصطلح "ضباب الحرب"، همستُ بهذه الكلمات فخرج صوتي متحشرجاً وغريباً على أذني.

"أجل، لقد فعل، لقد فعل حقاً يا نيكو".

تناهى إلى سمعي صوت رجال يقومون بجر أشياء في الساحة، فسألت: "من فقدنا يا سيدي؟".

قال بصوت متقطع: "كونويكي، تيرانوفا، فولسوم، إسبينوسا".

قلت: "رباه، وكم عدد الجرحى؟".

أجابني: "أربعة، بمن فيهم أنت".

فسألته: "ماذا عن القوات الوطنية الأفغانية؟".

"خمسة قتلى، واختفى الباقون. لا بد وأنهم قد لاذوا بالفرار في وقت ما خلال المعركة".

"أولئك الأوغاد".

"أجل بالفعل".

مال توم إليسون فوقي سائلاً: "أيها الملازم؟ أأنت بخير؟".

أجبته: "أنا أستجمع نفسي".

قال: "لقد كادوا يخترقوننا".

علق كونولي: "لكنهم في النهاية لم يستطيعوا. كان ذلك وشيكاً، لكننا فزنا، ودمّرناهم".

انطوى صوته على رنة انتصار صبياني، كما لو كان يتحدث عن لعبة كرة قدم في المدرسة الثانوية.

قلت: "أنا آسف لأني لم أوقظكم يا رفاق في وقت أبكر. هذه جريرة عملي".

وضع كونولي يده على كتفي وقال: "أيها الملازم، أنت على قيد الحياة. انسَ بقية ما حدث".

"حسناً".

تابع قائلاً: "لقد كان الكمين المثالي. لقد باغتونا في أسوأ الظروف، ولم يصلنا أي تحذير من الراديو اللاسلكي وهذره المعتاد".

قلت له: "لم يسبق لي قط وأن كنت في معركة محتدمة كتلك".

وافقني بقوله: "لقد كانت حامية الوطيس"، ثم أضاف: "لقد فقدنا البرج".

أجبته: "أجل أعرف. رأيته يهوي".

"لكننا حُزنا غنيمةً ضخمة. لقد تحدثت إلى قيادة الكتيبة على الهاتف، وهم مسرورون بصنيعنا".

"حقاً؟ ما الذي حصلنا عليه؟".

كان على وشك أن يخبرني عندما دخل والن. فأفسح كل من كونولي وإليسون له مكاناً. بادرني قائلاً: "مرحباً أيها الملازم، كيف حالك؟".

"لطالما أردت أن أكون من الجنود المشاة"، قلت عابساً: "لا بد من أنني كنت ثملاً حينما تمنيت ذلك".

ضحك لكلامي، ثم سألته: "ما الذي أصاب وجهك؟".

فأجاب: "لقد لكمت شخصاً ما. ولم يعجبه الأمر، فرد لي الضربة. إنه ميت الآن".

"كم كان عددهم أيها الرقيب أول، هل تعرف؟".

"حسنا، هناك سبعة رجال داخل السلك، وبضعة آخرون ممددين في الحقل، لا يزال الظلام مخيماً ويحجب الرؤية. كما أنني لا أعرف كم عدد الذين هربوا بعيداً".

علقت متجهماً وأنا أسمع حصيلة أعدائنا: "إنهم إذاً كالسبعة ضد طيبة".

سأل كونولي: "ماذا يعني ذاك؟".

أجبته: "لا يهم".

قال توم إليسون: "نحن بانتظار أن يظهر الناجون ويبدأوا بسحب جثث الموجودين خارجاً".

قال أحدهم: "إنه لأمر غريب أنهم لم يأتوا حتى الآن".

ضحك إليسون قائلاً: "إنهم على الأرجح خائفون حد الرعب، أو أننا قضينا عليهم جميعاً".

تنحنح كونولي وهو يقول: "بالمناسبة، كنت تتحدث إلى نفسك يا نيك".

"وماذا قلت؟".

"لست أدري، بدا وكأنك كنت تتلو شيئاً ما. شيئاً غريباً عن القوانين والآلهة. لم أصغ بانتباه فقد كنت تهذي".

ابتسم لي والن وهو يقول: "لا بد أنه كان هذرك اليوناني ذاك".

فأجبته قائلاً: "ربما، ومن أين لك معرفة ذلك، أيها الرقيب أول".

رفع حاجبه مستاء وقال: "في الحقيقة لقد تفوقت في دراسة تاريخ الثقافة الغربية. وقد ارتدْتُ كلية مورهاوس، ألا تتذكر؟".

لم أستطع مقاومة الرغبة في ممازحته فقلت: "وكيف لي أن أنسى؟ دعني أرَ، كنت في دفعة عام 1900، صحيح يا أبـي؟".

رد: "مضحك جداً أيها الملازم".

قلت له: "أشعر بأنني منهك".

فرد: "ليس هذا بالغريب بعد القتال. فوفقاً لما قاله دوك، سيستغرق الأمر بعض الوقت ريثما تنزل سوية الأدرينالين لديك. ثم ستنهار وتنام".

سألت دوك: "ما نوع الضربة التي تلقيتها؟ وما مدى سوئها؟".

فأجاب: "عليك بالاسترخاء أيها الملازم. ستكون على ما يرام، على خير ما يرام".

"أشعر برأسي وكأنه سينفجر...".

"لديك ارتجاج في الدماغ، وحول عنقك دعامة".

شيء رطب راح يقطر على وجهي من السرير الذي يعلوني. فانثنى والن يمسحه معتذراً برقة: "آسف لهذا أيها الملازم". ثم استدعى دوك.

سألته: "من في الأعلى؟".

أجاب: "ماكول، سيطير معك لجروح في صدره".

"كم عمره؟ عشرون؟".

أجاب دوك: "بل تسعة عشر". واتجه نحو ماكول. انعكس الضوء على نظارته فتلألأت.

قال والن: "أنت مسنّ بالمقارنة معه أيها الملازم، إنه لأمر عجيب أن سمحوا لك بالانخراط في الجيش. والآن انظر إلى حالتك".

حاولت جاهداً الابتسام لكن فكي يؤلمني، فهمست بدلاً من ذلك قائلاً: "انظروا من يتكلم. العجوز ميثوسيلا نفسه".

"أتريد لكمة تسوَدّ لها عينك؟".

"من الناحية الفنية، هذا من شأنه أن يشكل عصياناً، أليس كذلك؟".

قال دوك وهو يتجاذب مع ضماداتي: "حسناً كان هناك طبيب، وجندي، وسياسي دخلوا معاً ساحة قتال. ثقا بـي لم تتناه هذه القصة إلى مسامعكما بعد..".

قاطعه كونولي وقد هب واقفاً وهو يقول منتعشاً: "أنا أسمع الطائرات تقترب. حسناً إنهم هنا. حان وقت الذهاب يا نك". وغادر المكان وهو يتحدث في جهاز الراديو خاصته.

ساعد والن دوك في ضبط نقالتي، ثم قال بصوت أجش: "حظاً طيباً أيها الملازم، هوّنْ عليك الآن".

قلت: "أراك قريبا، أيها الرقيب أول".

"صحيح".

"سأعود، كما تعلمون. الموت فداء للوطن وإلى ما هنالك".

"أجل، بلا ريب".

رافق الرقيب في فصيلتي، جيم تانر، كلاً من راميريز وبرات وهما يحملان نقالتي إلى منطقة الهبوط. هناك ربضت طائرة بلاك هوك على الأرض، فيما راحت طوّافتان من الأباتشي مرافقتان لها تحوّمان في السماء. أثارت شفرات البلاك هوك سحابة مألوفة إلى حد مفزع من الغبار البني السميك، وغطتنا بها.

قال غارسيا: "وداعاً، سيدي الملازم. أرجو لك رحلة آمنة".

وقال راميريز: "الخطوط الجوية الأميركية الجميلة، وعلى متن الدرجة الأولى. أحسنت صنعاً يا سيدي. هووو، هوو...".

أما تانر فاكتفى بالشدّ على يدي.

ومن ثم رفعوني إلى الطائرة وأحدهم أحكم ربط النقالة.

وثب كونولي كالسهم فوقي وأخذ يتحدث إلي، ولكني لم أستطيع سماعه بسبب ضجيج شفرات المروحية. لوّح لي ثم تراجع لتدخل نقالة أخرى انزلقت إلى جواري.

وبعد برهة، امتلأت المروحية، وأقلعت بنا مترنحة عن سطح الأرض. انسابت أشعة الشمس من خلال نوافذ طائرة البلاك هوك لتنزلق إلى الوادي فتفرشه باللون الأحمر. نظرت إلى الرجل الذي على النقالة بجواري لأتبين من يكون وقد أضاءت وجهه الشمس فإذا به ميتشيل.

شخص ما أدخل إبرة في ذراعي. ابتلعت ريقي بصعوبة.

أنا عائد إلى الوطن.

المسعف

واحد.

اثنان.

ثلاثة.

أربعة. راقبت جاكسون وغرول وهما يعدان إلى أربعة ثم يلقيان بالطالباني الميت إلى الأرض. أفلته غرول في وقت مبكر مما جعل الرجل الميت يسقط على الأرض بزاوية غير ملائمة، وقد تطايرت ذراعاه بشدة يمنة ويسرة. ألقيت نظرة على سكوت بوصفه قائداً للمجموعة لأستشف ما إذا كان سيقول أي شيء، لكن يبدو أنه لم يلاحظ ما يجري. التقط جاكسون وغرول الجثة التالية، وكان جاكسون هذه المرة هو الذي أرجحها ثم رماها بحيث سقطت بثقل كبير على الرأس.

لم أتمالك أن أبقى صامتاً أكثر من ذلك وطلبت من الرجال أن يتمهلوا.

"لماذا؟". سأل جاكسون بنبرة شابها شيء من التحدي.

فأجبته: "لأنهم قاتلوا بشرف ويستحقون احترامنا".

"أوه هيا يا دوك"، مطّ غرول كلامه معترضاً، باصقاً التبغ أرضاً بحيث استقر مباشرة بجوار رأس الرجل الميت.

قلت بحزم: "لا".

فزمجر جاكسون غاضباً: "بحق السماء! هل استحلْتَ الآن إلى المتعاطف ذي القلب الحاني على هؤلاء المعمّمين الذي يجرّون أصحابهم إلى المذبحة كعنزة يهوذا([5])؟".

ضحكت وقلت: "أنا محب للمعمّمين بقدر ما أنتم يا رفاق تشبهون فتيات فيلم الهيذرز، وهذا مستحيل وأنتم تعرفون ذلك".

ثم أضفت: "باعتقادك كيف كانوا سيعاملوننا في ظل ظروف مماثلة؟".

تنحنح الرقيب سكوت وقال: "لا أريد حتى البدء بالتخيل"، ومرر يده المضمدة على رأسه الحليق.

قلت: "بالضبط، ونحن من المفترض أن نكون أفضل منهم، أليس كذلك؟".

"لقد قتلوا الرقيب إسبينوسا"، قال جاكسون بصوت منخفض وهو يرمقني بنظرة اشمئزاز، "وقتلوا كونويكي وفولسوم وتيري، و..".

قاطعته قائلاً: "براندون إسبينوسا كان صديقي. كنا رفاقاً منذ زمن بعيد منذ أيامنا في العراق. كان جندياً عاش وفق قانون الجنود ومات ميتة الجنود. وكان آخر شخص يمكن أن يضيّع وقتي بالشرح حول كيفية تعامل الجيش الأميركي مع الأعداء الميتين في ساحة المعركة".

توقف الرجال عن العمل. نظرت إلى ملامحهم التي غطاها الغبار وقد أسبغ عليها الفجر البازغ من ضيائه لوناً أبيض مفزعاً. بعضهم قبض راحتيْ يديه، والبعض الآخر بدا عليه التوتر بوضوح. إلى أن رفع سكوت يديه في محاولة للصلح قائلاً: "حسناً، حسناً يا دوك، لا داعي للغضب".

قلت: "كنت أحاول أن أعرض لوجهة نظري أيها الرقيب".

رد قائلاً: "حسناً لقد استوعب الشباب ما قلته".

انبرى جاكسون قائلاً: "لماذا يتوجب علينا نحن أن نقوم بهذا العمل على أي حال. إنها القوات الأفغانية اللعينة التي ينبغي أن تكون مسؤولة عن هذه المهمة".

أجابه غرول: "لقد لاذوا بالفرار يا رجل، ليس هناك قوات أفغانية في القاعدة".

"ملعوني الأم!". قال جاكسون.

فنهره سكوت بعصبية: "هذا كافٍ يا جاكسون".

تمتم الأخير: "شخصياً أنا أجد ما قيل هراءً محضاً. لكن عندما يعودون إلى العمل بإمكانهم حينها التعامل مع ما تبقى من جثث بمزيد من المراعاة".

سحبت نفساً عميقاً وأخذت خطوةً إلى الوراء وراقبت طائرة البلاك هوك وهي تقلع من منطقة الهبوط على الجانب الآخر من القاعدة. كانت تتمايل بصورة حادة، لتكتسب ارتفاعاً ثم تنطلق متجهة نحو الجنوب مع طائرتي الأباتشي المرافقتين لها.

ودعت في نفسي نيك فروبنيوس وجنود المشاة الثلاثة المصابين الذين حملتهم الطائرة. ساعات النهار كانت تتقدم، وهواء الليل البارد تجمد متحوّلاً إلى ضباب حليبـي. وبمرور الدقائق

بدت القاعدة والسهول المحيطة بها أكثر إنارة وهي تبرز من خلال الظلال المحيطة بها. تابعت بنظري المروحيات الثلاث حتى تضاءلت إلى بقع صغيرة في المدى البعيد. وبقيت محدقاً إلى السماء بلا حراك، إلى أن أحسست بذراع على كتفي.

أتاني صوت سكوت وهو يقول: "دوك، لا أريدك أن تسيئ فهمي. لو لم أكن أحترمك لما قلت هذا، ولكن عليك أن تدرك أن الشباب يعتصرهم الألم بسبب خسائرنا. أنت تعلم أنهم ما زالوا أولاداً في سن المراهقة وفي العشرينات. لقد مروا بالكثير معاً... ثم حدث هذا. إنهم مصدومون ويتآكلهم الإنهاك، ولا أريد لأحد أن يستهين بأمور مهمة بالنسبة إليهم. فإن كان هناك من شيء يتوجب علينا احترامه، فهو بالتأكيد مشاعرهم وليس رجال الطالبان الملاعين الذين قتلوا رفاقهم".

التفتُّ لأنظر إلى وجه سكوت، فألفيتُ ملامحه اليافعة تتلوى من الألم، فقلت له بلطف: "أيها الرقيب، أنا مسعف، وهؤلاء بالتالي ليسوا مجرد جثث بالنسبة إليّ. لا يمكنك أن تنفث غضبك على رجال موتى. أتفهم ما أعنيه؟".

"أعرف".

أمسكت بيده، وقد باتت عيناي الآن قريبة من عينيه اللتين ظهرتا جليديتين جامدتي التعابير. لقد كان سكوت على شفير الانفجار.

قلت له محولاً نظري عنه: "انظر هناك، ذاك يرتدي عمامة سوداء. هل تعرف ماذا يعني ذلك؟".

حيّره السؤال، فحدّق إلى الجثة وقال: "ليست لدي أي فكرة"، ثم أضاف: "أعتقد أنني لا أهتم كثيراً لهؤلاء المثليين".

تجاهلت تعليقه اللاذع، وقلت: "هذا هو من سيوضع في الكيس الخاص بالجثث ويبقى داخل القاعدة. سيرسلون طائرة تطير به إلى قندهار. أما الباقون فسيلقى بهم بعد حقل الألغام الأرضية على بعد مائتي متر حيث يمكن لأصدقائهم التقاط جثثهم، لا تذهبوا أبعد من ذلك، فهذه هي أوامر القائد".

سألني" "ماذا عن أولئك الموجودين بالفعل في الحقل؟".

قلت: "دعهم كما هم. إنهم بعيدون جداً عن خطوطنا، فضلاً عن أننا لا نعرف كم من أصدقائهم قد ينتظرون في المنحدرات للانقضاض علينا. نحن لا نريد أن نغريهم".

ابتسم سكوت دون فكاهة وقال: "أوه، لكم أحب أن نغريهم".

مشى إلى الجثة ذات العمامة السوداء ودفعها بمقدمة حذائه، سائلاً: "فإذاً ما أهمية هذا الرجل؟".

أجبته: "أنا سألتك".

فكان رده: "وقلتُ لك إنني لا أعرف".

فجأة هبط عليه الإلهام فالتفت إلى أحد الرجال وقال: "هيه، دوغال. ما شأن العمامة السوداء؟ ماذا يقول كتابك المقدس؟".

توقف ميت دوغال عما كان يفعله، وحملق بعينيه السوداوين وقد كستهما غشاوة من الحذر. ثم قال ببطء: "لست أدري أيها الرقيب، أنا من سيخ كاليفورنيا، إنها ديانة مختلفة".

فكر ميت للحظة، ثم لمعت بذهنه فكرة أخرى فقال: "أراهن أن نيت يعرف...".

صاح لنيت علي زاده، والذي كان يعمل مع فرقة الجنود في إصلاح الخروقات في شبكة الأسلاك: "هيه، نيت! تعال هاهنا لثانية. الرقيب سكوت يريد أن يعرف شيئاً ما...".

أقبل جندي المدفعية 203 علي زاده، طويلاً هزيلاً رقيق الأطراف، ومشى باتجاهنا وذراعاه تتأرجحان بحرية على جانبيه وهو يقول: "ما الأمر أيها الرقيب؟" ثم أومأ إليّ محيياً: "مرحباً دوك".

سأله سكوت: "تُرى ماذا تعني العمامة السوداء على رأس هذا الرجل؟".

نقل علي زاده نظره بيننا، سكوت، ودوغال، ومن ثم أنا، وزمّ شفتيه ليقول أخيراً: "ما هذا؟ أهو سؤال من الفوازير؟".

فرد سكوت: "أنت من إيران، أليس كذلك؟".

ندّ عن جاكسون وراءنا صوت ضحكة مكتومة خرقاء، حذا حذوه فيها الآخرون. أما علي زاده فقد هزّ رأسه مرتين أو ثلاث مع ابتسامة حيرى.

حثّه سكوت سائلاً: "فإذاً؟".

احمرّ وجه علي زاده وهو يقول برقة: "يا إلهي أيها الرقيب، وماذا أعرف عن العمائم؟ أنا من وسط مدينة ديترويت".

بدأ الرجال بالتجمع حولنا، وهم ينقلون نظراتهم الحذرة بين الرجل الميت وعلي زاده.

فقلت بدوري: "باعتقادي أن الافتراض الذي انطلقنا منه هو أنك مسلم".

ضحك بحرج قائلاً: "أنا ميتوديٌّ يا دوك. أمي هولندية من بنسلفانيا وما كانت لتقبل بأن نكون غير ذلك. أنا أذهب إلى الكنيسة مثل أي شخص آخر".

كلت في نفسي اللعنات للصلة التي أوجدتها عن غير قصد بين علي زاده والطالباني الميت، ولكن قبل أن أتمكن من الكلام تابع بقوله: "أعني لقد قدِم جدي من إيران وما إلى ذلك، ولكن هذا كان منذ زمن بعيد في الأربعينيات. كلّ من والدي وجدي قد عملا لدى فورد. بل ولقد كان جدي في فريق التصميم الذي بنى سيارة فورد فيرلين موديل عام 57، أبدع ما أخرجه خط الإنتاج من سيارات في ذلك العام".

ندت عن جاكسون، الذي عُرف عنه عشقه لسنوات ديترويت الكلاسيكية، صفرة هادئة ثم قال: "فيرلين 57، إذاً هاه؟" قرفص أرضاً إلى جوار الرجل الميت وراح يتفحص العمامة السوداء باهتمام شديد كما لو كانت الشبكة التي تقع على الواجهة الأمامية لسيارة فيرلين، ثم قال: "لست أدري يا نيت. أعني، لقد كانت الفيرلين جميلة وما إلى ذلك، لكن فيما يتعلق بتلك السنة تحديداً فإنني شخصياً أفضل سيارة شيفروليه بيل آير".

حان دور علي زاده ليجثو على الجانب الآخر من الرجل القتيل، ويقول: "لا بد أنك تمزح، أليس كذلك؟ تشيفي بيل إير كانت لا شيء! في المرة القادمة حين تكون في ديترويت، سأصحبك في قيادة تجريبية في الفيرلين، وسترى".

سأله جاكسون: "أتملك واحدة؟".

أجابه: "بالطبع نملك واحدة. إنها تنير الطريق السريع كله أمامها".

ظلا بين صد ورد في هذه المسألة وتلاشى التوتر في الهواء، إلى أن قال سكوت: "حسناً، حسناً، توقفا". ثم استدار نحوي وقال: "إذاً ماذا تعني العمامة الملعونة؟".

انتظرني الرجال كي أجيب، إنما بفتور وشى بأن نقاش السيارات كان لا يزال يستأثر باهتمامهم.

تنحنحت وقد انتابني شعور الواعظ المعلم حتى قبل أن أتكلم، ثم قلت: "حسنا، لاحظت بأن العمامة السوداء تعني بأن الرجل سيدٌ، من سلالة النبـي محمد".

بدا سكوت غير معجب وهو يقول: "اعتقدت أن العمامة السوداء تعني أنه من طالبان".

أجبته: "ليست لكل العمائم السوداء الدلالة نفسها. أفراد حركة طالبان يلفون عماماتهم بشكل مختلف".

رد: "فإذاً...؟".

قال غرول: "هل هو مُلاّ أم ماذا؟".

اصطنع علي زاده ابتسامة جانبية بفمه وهو يقول: "كان جدي يقول إن الملاّ الجيد الوحيد هو الملا الميت، لقد كان يكرههم".

ثم أردف وهو ينظر إلي بطرف عينه: "هل كنت تتبع دورات مكثفة تخص عمائم طالبان يا دوك؟".

ضحك، مسروراً بنفسه، وضحك جاكسون معه. وسرعان ما هدر الجميع بالضحك وكانت ضحكة علي زاده هي الأعلى بينهم بعد أن أشعرته دعابته بالأمان لاستعادته موقعه بين صفوف المعادين للمهاجرين.

استمر سكوت بالتحديق إليّ بعينين تفيضان حيرةً: "ما زلت لا أفهم يا دوك. ما شأن هذا الرجل؟ هو من الطالبان، أليس كذلك؟".

استسلمت، وقلت له بإنهاك: "لا يهم، فقط أغلق سحاب الكيس واحمله إلى خيمتي. وسوف أتولى الأمر من هناك".

راقبت كلاً من جاكسون وغرول وهما يرفعان واحدة من الجثث المتفحمة، تعلق رأس الرجل الميت فيها بعنقه بقطعة غضروفية. أطلق غرول تياراً من بصاق التبغ على الأرض وهو يطالع حمولته باشمئزاز. وقال باحتقار: "مجرد كومة من اللحم النتن يا رجل".

فعلّقت: "يوماً ما سننتهي جميعنا النهاية ذاتها. جلودنا ما هي إلا زي آخر وحسب".

نظر إلي متفاجئاً ولم ينبس ببنت شفة.

مررت يدي في شعري وأدركت كم كنت متعباً.

بعد جنون المعركة، كنت قد انهمكت في رعاية الجرحى دون توقف، بالإضافة إلى مساعدتي لكونولي وبقية الضباط على استعادة بعضٍ من مظاهر النظام في القاعدة. مع رحيل فروبنيوس، الرقيب الأول في الفصيل، تولى جيم تانر المسؤولية ريثما يصل بديل للملازم. أما الفصيل الآخر فكان يقوده الملازم ثاني توم إليسون والرقيب من الدرجة الأولى آدم برادفورد، إلا أنهما كانا جديدين بيننا حيث استلما مركزيهما منذ أقل من شهر عندما قتل الملازم ديف هندريكس والرقيب بريان كاسترو في كمين في الجبال. والأهم من ذلك أن كلا الفصيلين يعاني الآن من نقص في عدد العاملين، وما من دلالة تؤكد على أننا قد رأينا آخر ما في جعبة مقاتلي طالبان.

تلاشت النجوم واحداً تلو الآخر في ضوء الفجر. وانتهى الرجال من حمل آخر قتلى طالبان إلى الحقل، حيث تم وضعهم في خط مستقيم. درس سكوت المنحدرات على الطرف الآخر من الحقل وأعلن: "هيا نعدْ".

رفع ياقة سترته وشرع بالمسير عائداً إلى القاعدة، وتبعه الرجال مطرقي الرؤوس. وفي مؤخرة الركب كان جاكسون وغرول يتراجعان القهقرى موجهين بندقيتيهما باتجاه الحقل. وقد نضحت وجوه الجميع الكالحة تعباً وعرقاً، وانطفأت الحيوية في أعينهم.

مروا بـي في صمت، وقد تخلل الضباب المتعرج صفوفهم مخفياً في طياته المنحدرات البعيدة. أما السماء فقد استحالت إلى لون قرمزي، وظهرت قطرات الندى على الأرض تتلألأ تحت أشعة الشمس الأولى التي راحت تطوف الجبال وتنعكس على القذائف النحاسية المتناثرة في الحقل فجعلته يبدو مرقطاً بالذهب والدم. وفي السماء حامت أسراب كثيرة من الغربان آتية من الجبال. وعلى الرغم من أنني أرتدي سترتي الصوفية، إلاّ أني لم أستطع كبح الرعشة التي شعرت بها.

ظهر كل من الرقيب غارسيا وليي ليجمعا رفات زعيم المتمردين في حقيبة الجثث الجلدية، وسرنا معاً إلى خيمة الإسعاف مارين على الأنقاض المحترقة لبرج الحرس.

"ليس هذا عدلاً يا دوك"، قال غارسيا فجأة، "حقاً هذا ليس عدلاً. فولسوم تزوج للتو، وزوجة تيري تنتظر طفلهما الأول".

قلت: "لا، إنه ليس عادلاً".

سألني: "ما هو اليوم؟ أهو الثلاثاء؟".

"أجل".

"كان سيتصل بزوجته اليوم".

"من؟".

"تيري".

علق ليي قائلاً: "كان من الممكن أن أكون أنا مكانهم يا دوك. بل كان ينبغي أن أُقتل أنا. فأنا عازب، وليس لديّ من أعيله".

رد غارسيا: "إن الأجل كدولاب الحظ اللعين يا رجل، لا يميز أحداً".

صمت الجميع. وصلنا إلى الخيمة الطبية، وما إن أوشكنا على الدخول حتى دوى انفجار مفاجئ ظهرت ألوانه في الأفق الجنوبـي. تضخّم إلى أن تحوّل إلى حبة فطر عملاقة. تلونت باللون البرتقالي، ثم الأحمر، ثم الأبيض المشرق. ووقف الرجال محدّقين.

أقبل جاكسون راكضاً، والكلمات تتخلل لهاثه: "اللعنة!! ما هذا يا رجال؟".

ابتسم غارسيا وأجاب بغير يقين: "لعل الباكستانيين يطلقون واحداً من أسلحتهم الذرية".

قلت لافتاً نظره: "إنها قادمة من الجنوب".

"من إيران؟" قال جاكسون، وضحك ضحكة جافة، "ربما..، عليّ أن أذهب وأسأل نيت".

قلت له: "دعه وشأنه".

فرد: "أنا أمزح يا دوك. فقط أنا أحاول إغاظتك".

"حسنا، توقف عن ذاك واذهب الآن لترتاح قليلاً، جميعكم مشحونون بالتعب".

وبالفعل انطلق جاكسون، فيما دخل غارسيا وليي الخيمة الطبية ليضعا الحقيبة التي احتوت الجثة على طاولة في الزاوية. ولدى مغادرتهما الخيمة، خرجت معهما. كانت الغيمة في الأفق قد تعاظمت إلى كيان أسود ضخم، يربطه بالأرض عمود من الدخان. صرفت كلاً من ليي وغارسيا وواصلت متابعة السحابة بنظري وقد أزكمت أنفي رائحة الدم المتعفن التي بدأت تهب من الخيمة.

أتى هيوود، مشغل الهاتف اللاسلكي، ليخبرني أن القائد قد لدغه دبور. فقررت الذهاب إلى موقع القيادة للاطمئنان عليه تحرّزاً.

كان القائد داخل الكوخ يقف إلى جوار النافذة محدقاً خارجاً إلى السماء. استدار لينظر إليّ وأنا أدخل. فتمهلت بشكل غريزي، آخذاً بعين الاعتبار الفرق في الرتبة. لاحظت انتفاخ يده اليمنى، وقد رفعها بشكل مائل وبزاوية مع جسمه.

بادرته بالقول: "سمعت أنه قد لدغك دبور يا سيدي؟".

فرد: "أجل، أيمكنك أن تصدق ذلك؟ أخرج من تبادل شرس لإطلاق النار دونما خدش، ليلدغني بعدها دبور سخيف".

سألته: "أتريدني أن ألقي نظرة عليها؟".

فلوّح لي بعيداً: "إنه مجرد دبور يا دوك"، وتحول للنظر من النافذة مرة أخرى.

عندها دخل والن ليخاطب القائد كونولي: "لقد اتصلت لتوي بالقاعدة الجوية في قندهار مستفهماً حول هذا الدخان المنبعث في السماء. يبدو أنه في مكان ما فوق وادي نهر أرغنداب".

فحثه كونولي بقوله: "وماذا أيضاً؟...".

أجاب: "إنهم يحققون في الأمر. أنا بانتظار المزيد من الأخبار منهم".

قلت لافتاً نظرهم: "لقد ذهبت المروحيات في ذاك الاتجاه".

فنظر إلي بانزعاج قائلاً: "شكراً يا دوك".

فأجبت: "أنا آسف يا سيدي، من الغباء قول هذا".

"سأتصل بقاعدة قندهار الجوية بنفسي"، قال كونولي فجأة ومشى إلى مكتبه وألقى بثقله على الكرسي، ثم حدق إلى وجهي قبل أن يقول: "الأفضل أن تنام بعضاً من الوقت. تبدو وكأنك على وشك الانهيار".

أجبته: "وأنت كذلك يا سيدي. جميعنا كذلك. ولكن ربما كنت على حق. أشعر أنني أموج بحركة بطيئة كما في الأفلام".

استمع إليّ ولكن علائم تشتت التركيز كانت بادية في محياه. وخرجت من عنده وقد انحنى منكباً على مكتبه.

عدت إلى كوخي واستلقيت على سريري والتقطت كتاباً عنوانه: ***عادات وتقاليد القبائل الأصلية في مقاطعة قنداهار***، تأليف المقدم روبرت جولي، جوردان هايلاندرز، 1897. قرأت صفحة بجهد ثم وضعته من يدي وأخذت جهاز الآيبود وسماعات الرأس وبحثت عن شيء سلس لأستمع إليه. ضغطت على أغنية "ملاك الصحراء"، لستيفي نيكس. وغفوت على أنغام صوتها.

لا بد أنني لم أكن قد غفوت أكثر من بضع دقائق عندما أدركت أن شخصاً ما يلتصق بـي. استدرت إلى جانبـي متوثباً. إنها سارة، وقد استلقت إلى جواري بابتسامتها التي تشع سكينة وجسمها الغض اللين. لامستها، ومررت هي يدها في شعري. قربتها إلي أكثر عندما لمحت في لحظتها رجلاً مستلقياً على الجانب الآخر.

استيقظت لاهثاً، ثم هببت جالساً، وقلبـي يضرب بعنف في جنبات صدري كالمطارق. شعرت بالعرق البارد يتصبب مني، وأنفاسي تتقطع في صدري. فلففت ركبتي بذراعي وأرغمت نفسي على التنفس ببطء. شعرت بأنني عجوز مستهلَك.

تراجعت إلى الوراء في جلستي ورحت أتأمل صورة سارة على الحائط. كانت قد ربطت شعرها البرونزي الكثيف إلى الوراء وهي تحدق بثبات في آلة التصوير. كنا قد تشاجرنا لتوّنا على شيء سخيف، لم أعد أذكر حتى ماذا كان. رحت أتأملها باهتمام، ثم تمددت على السرير مرة أخرى. حدقت إلى السقف، مفكّراً كم هو خانق الجو هنا، وكم أرغب بأن أغط في نوم عميق.

"الجو خانق"، وافقني فروبنيوس وهو يميل عليّ ويفتح إحدى النوافذ. في الخارج، أضحت السماء صافية بعد المطر. وفي الطرف المقابل من الشارع، وقف رجل قصير القامة ممتلئ القوام بقميصه الأبيض مفتوح الأزرار حتى سرته وراح يحلق ذقنه أمام النافذة المفتوحة. استطعنا رؤية الماء الصابوني يسيل على رقبته، وقد لوى وجهه بصورة منفرة وهو يحلق.

"هل تعتقد أن بمقدورك إصابته من هنا يا ديف؟" سأل فروبنيوس.

ألقى ديف هندريكس نظرة لامبالية باتجاه الرجل، ووجّه نحوه بندقية قنص وهمية، ثم قال: "من هذه المسافة، الأمر سهل".

قال فروبنيوس: "هذه المدينة ميتة، يا رجل".

أجابه هندريكس: "إنها فيتشنزا يا نيك، وليست فرانكفورت".

فرد عليه: "حسناً، أياً يكن. إنها ما تزال مقرفة".

أزاح هندريكس كرسيه فجأة عن الطاولة ونهض واقفاً، مما دعى والن لأن يسأله: أذاهب أنت إلى مكان ما أيها الملازم؟".

فأجابه: "أجل، أنا متجه إلى المدينة. إنه وقت الاحتفال". ارتدى سترته وألقى على فروبنيوس نظرة متسائلة: "نيك؟".

"أوه، أنا لا أعرف".

"لم تتجاوز حكايتك مع إيميلي بعد إذاً، أليس كذلك؟" قالها هندريكس مبتسماً. إلا أن نبرة فروبنيوس استحالت صارمة ومحذرة حينما أجاب: "دعنا لا نتطرق إلى تلك المسألة، أهذا ممكن؟".

"آسف يا أخي، كنت أقول فقط...".

"لا تفعل".

فرفع هندريكس يديه: "لا أقصد الإهانة. ولكن أفترض أنك لست في مزاج مناسب لترافقني إذاً؟".

نظر فروبنيوس إلى والن، ومن ثم إليّ. فتجنب والن نظراته، أما أنا فرحت أرتشف مشروبـي بصمت.

مع شيء يشبه التنهيدة، نهض فروبنيوس واقفاً على قدميه، وارتدى سترته وقبعته ثم نظر إلينا مجدداً. واصل والن النظر بعيداً. أما أنا فبادلت فروبنيوس النظرات دونما كلام.

فجأة، قال: "اللعنة على هذا". ثم حيّانا عابساً بنبرة خالية من أي معنى: "إذاً يا سادة، أمسية سعيدة".

تابعناهما بأنظارنا وهما يخرجان، وأبواب قاعة الحانة تتأرجح مغلقة وراءهما. ثم ما لبث أن علق والن: "إن الملازم فروبنيوس يفقد السيطرة على نفسه. إنه يشرب كثيراً، ويعاشر النساء

كثيراً. لا يعجبني هذا".

أجبته: "إنه سيد نفسه أيها الرقيب أول".

فقال: "مع ذلك هذا لا يعني أن ما يفعله يجب أن يعجبني".

"في سنهم، ماذا سيشغلهم عدا ذاك؟ إنها الحانات وبائعات الهوى".

حفّ والن كفيه إحداهما بالأخرى بشدة حتى استحالا شاحبي اللون وهو يقول: "رغم هذا أنا أعلم أنه يتألم. لقد حضرت حفل زفافهما، كما تعلم. لقد أقاماه قرب نهر هدسون. لفرط تعلقهما ببعض لم يرفعا أيديهما عن بعضهما يومها. إنها فتاة طيبة".

"أووه، هذا بديع"، قلت بسخرية.

"أنا أعني ما أقول. كان حباً حقيقياً".

"حسناً، فهي تحبه؟".

"وأكثر مما يعتقد".

"إذاً لماذا تركته؟".

"لأنها تحبه".

"حسنا، ما هذه؟ أهي أحجية؟ بعد كل ما سمعته أقول إنها كانت قاسية معه، بل وراحت تطلق الأحكام عليه".

ضاقت عينا والن وهو يجيبني: "ألسْنَ كذلك كلهن؟".

وضع مشروبه من يده، ثم نظر إليّ قائلاً: "هناك فيلم سيعرض الآن وأريد أن أشاهده. إنه باللغة اليونانية، مع ترجمة بالإنجليزية. أترافقني؟".

رفعت حاجبيّ متفكراً: "مع الترجمة... يا إلهي، أنا لا أعرف أيها الرقيب أول".

حثّني قائلاً: "أوه، هيّا. أنا لا أريد أن أجلس في قاعة السينما وحيداً".

فكّرت للحظة، ثم قلت متشجعاً: "لمَ لا؟ وكأن لدي موعداً غرامياً يمنعني".

مشينا إلى قاعة السينما. كانت الحجارة لا تزال رطبة من المطر، وزلقة أيضاً. أصر والن على ابتياع تذكرتي أيضاً، فوقفت أنتظره في البهو متأملاً الملصق الذي حمل صورة الممثلة إيرين باباس وهي تحدق إلى العالم بشراسة. أعتقد أنها رائعة.

أنشئتْ دار السينما هذه عامَ 1961، وكانت قاعة العرض نصف فارغة. أما الفيلم فقد كان نسخة قديمة راحت تومض فيه البلورات والشرارات البيضاء عبر الشاشة الظليلة. شعرت بعينيّ تغيمان نتيجة احتسائي الكثير من المشروب ومن الجهد الذي أبذله في قراءة الترجمة معاً. بدأت أندم على قدومي، عندما بدت لي باباس وكأنها تخاطبني مباشرة بصوتها العميق فتقول: سوف أدفن بولينيسز. سأفعل ما يتوجب القيام به

وسوف أموت ميتة الشرفاء.

أنا عائلته، وأقاربه، والأقارب سيتمددون بعض إلى جوار.

ستكون جريمتي جريمة مقدسة.

مدت يدها إليّ خارجة من الشاشة وراحت تهزني من كتفي.

"استيقظ يا ستيف"، قالت بإلحاح: *"استيقظ!"*.

هببت من نومي وجلست مستقيماً على السرير، فألفيت يد الرقيب سيرانو على ذراعي. بادرني بقوله: "أنا آسف يا دوك، ولكن القائد يريد أن يراك في مركز القيادة. فوراً".

نظرت في ساعتي: لقد كنت نائما لأقل من عشرين دقيقة.

سألته: "ما الذي يجري؟" لكن سيرانو كان في طريقه للخروج سلفاً. أجابني وهو يمضي: "لست متأكداً، ولكني في طريقي لإحضار الرقيب الأول والن والملازم إليسون".

قفزت من سريري وقد شعرت بنذير الشؤم. رميت قميصاً وسروالاً قصيراً على جسمي وربطت حذائي، تعاركت لثوان مع أربطته. ثم انطلقت.

كانت النجوم لا تزال ظاهرة في السماء، لكنها تتلاشى بسرعة. وبدت الجبال كأنها أبراج تطل على المشهد أمامها. أما الضباب فقد انتشر بالتساوي على الأرض رطباً وسميكاً.

لحقت بوالن وهو على وشك الدخول إلى كوخ الاتصالات، والذي كان أيضاً مركز قيادة القاعدة، مساحة أربع عشرة قدماً بثماني أقدام مملوءة بأجهزة الراديو اللاسلكي والخرائط وأجهزة الكمبيوتر. في الداخل، كان المكان قد أضحى مزدحماً سلفاً. فإلى جانب القائد كان هناك الملازم إليسون، والرقيب تانر من الفصيلة الأولى، والرقيب برادفورد، والرقيب إريك بيتراك من الفصيلة الثانية، والرقباء آشورث، فلينت، وتريب، وسكوت، والمسؤول عن الهاتف اللاسلكي، هيوود، وعدد من ضباط الصف الآخرين يملأون الكوخ. كونولي كان ينظر إلينا ونحن ندخل عليهم، وقد امتقع وجهه على نحو غير اعتيادي، وكأن شرارة الحياة قد سُحبت منه. نظر في ساعته، ثم أعلن في صوت مجرد من الانفعالات، ودون أي مقدمات، أنه قبل حوالى 13 دقيقة، تلقينا أنباء أن طائرة

بلاك هوك التي تحمل نيك فروبنيوس والآخرين قد تحطمت، حوالى ثمانية وعشرين كيلومتراً إلى الجنوب الغربـي من موقعنا. ويُخشى من فقدان جميع من كانوا على متنها.

صدر عن الجميع ما يشبه التأوه الجماعي، ولا صوت آخر. كونولي بدوره لم يرفع ناظريه ولا مرة واحدة أثناء كلامه، فلم نرَ سوى رأسه ورأس المسؤول عن الهاتف اللاسلكي منحنيين. قال إنه حتى الآن ليس لدينا أي مؤشر على ما يمكن أن يكون السبب في الحادث. وعلاوة على ذلك، فقد تحطمت في المنطقة ذاتها إحدى الطائرتين اللتين تم إرسالهما من مطار قندهار لإنقاذ أي ناجين من البلاك هوك، ما أدى إلى اتخاذ الكتيبة قراراً بإيقاف جميع رحلات المروحية إلى موقع ألفا حتى تتوفر معلومات عن أسباب الحادثتين.

وتابع أن هجوماً وقع على القوات البرية التي أرسلت إلى موقع تحطم الطائرة، مضيفاً أنه بالرغم من عدم وجود أي دلائل على أن هذا الهجوم كان مرتبطاً بالهجوم الذي وقع على قاعدتنا، فإننا بحاجة إلى أن نبقى متيقظين.

توقف للحظة عن الكلام ونظر إلى والن وتانر. واقترح أن يحصلا على قسط من النوم حيث تطوع الملازم إليسون لاستلام المناوبة الأولى. دق والن كعبيه فوراً ومشى دون أي كلمة: لقد كان وقع خبر حادث التحطم عليه شديداً. أخبر كونولي تانر أنه سوف يستلم عن إليسون عند انتهاء مناوبته، وجعل كلاً من برادفورد وبيتراك التاليين في استلام المهمة. أثناء استماعي إليه، شعرت بالارتياح لكفاءته ورباطة جأشه. ثم أدركت أنه يتحدث معي، فقد توقف عن الكلام محدقاً إليّ كمن ينتظر جواباً. كانت قسمات وجهه هادئة لا يمكن التكهن بما تخفيه، ولكنّ خطوطاً عميقة ارتسمت حول فمه وسحبته إلى الأسفل.

"هل هذا يناسبك يا رقيب؟".

سألته خجلاً: "أنا آسف، ولكن ماذا كان لو حدث ذاك مرة أخرى يا سيدي؟".

فكرر قوله بصبر: "سيتوجب عليك الاحتفاظ بالجثة إلى أن تصل طائراتنا وتحمله بعيداً من هنا".

فأجبته: "هذا مناسب يا سيدي".

هز رأسه متعباً، وبعد لحظة صرفنا جميعاً.

لدى مغادرتي الكوخ لاحظت أن الضباب قد أصبح أرق كثافةً. وقد راحت أشعة من الشمس تتخلل الحواجز الخشنة فتمر عبرها كالرماح، لكنها من فورها تتراجع حين تغطس الشمس وراء كومة من الغيوم. لفّت الظلالُ السهل حول القاعدة، واندمجت الجبال مع الغيوم، وغدا الهواء أكثر برودة بشكل ملحوظ. خطر ببالي عند رؤيتي لهذا الجمال، أنه إذا كانت هناك حياة بعد الموت فلا بد من أن تبدو هكذا.

توجهت إلى الخيمة الطبية حيث ذكرتني رائحة قوية تزكم الأنوف بالطالباني الميت الموجود في حقيبة الجثث. كان العريف كريس سفيتك، المسعف الآخر في الوحدة الطبية، موجوداً في الداخل، ومرتدياً قناع الوجه والذي سحبه إلى الأسفل حين رآني أدخل كاشفاً عن وجه ممتقع ومشمئز التعابير. ثم هرول خارج الخيمة وتنحنح وسعل مراراً قبل أن يعود.

"ألا يمكننا وضع هذا اللعين في مكان آخر؟" قال بانفعال، "إنه لمن الجنون أن يتوجب علينا تنفس رائحته الكريهة!".

"أين مثلاً، أيها العريف؟".

"عند مكان اصطفاف المركبات، حيث كانت أكواخ القوات الأفغانية. لا أحد يذهب إلى هناك على الإطلاق. يا إلهي، على هذه الحال سأحتاج إلى بزة مضادة للسلاح الكيميائي من أجل النجاة من هذه الرائحة المقززة".

قلت له: "بل إن الوضع سيزداد سوءاً، فنحن سنحتفظ به إلى أن تجيء الطائرة وتحمله بعيداً، ومن غير المعروف متى سيكون ذلك".

"أوه، يا رجل، هذا جنون لا يصدق!".

قلت له مهدئاً: "سأطلب من الرقيب الأول الإذن بنقله، بالرغم من أنني أرجح أن الرد سيأتيني بالرفض".

"والسبب؟".

"لأن هذا الرجل ذو أهمية عالية، هذا هو السبب. ونحن يفترض بنا أن نحرسه مثل الصقور ريثما تأتي الطائرة لأجله".

يشير إليه سفيتك محاولاً لفت نظري: "إنه ميت، هو لن يذهب إلى أي مكان".

فكررت كلامي عليه: "سأطلب من الرقيب الأول الإذن بنقله. هذا أمر لا بد من أن يصدر عنه. أو ربما سأتحدث إلى الملازم إليسون".

ارتسمت تعابير عدم الرضا على وجه سفيتك، ولكنه أمسك عن الكلام.

هب نسيم خافت جعل قماش الخيمة يتأرجح قليلاً، ومع كل حركة كان يُسمع صرير الهيكل بأكمله. شعرت بالإرهاق والدوار يفتك بـي وأدركت أنني لم أعد ذا فائدة لأي أحد وأنا على هذه الحالة. وبات على رأس قائمة أولوياتي في هذا اليوم هو أن أستسلم للنوم. فالتفت إلى سفيتك قائلاً: "انا ذاهب لآخذ قيلولة في كوخي".

فقال: "يا لهنائك".

قلت مربتاً على كتفه: "سأعود قبل أن تشعر بغيابـي"، لقد شعرت بالتعاطف معه وهو يعيد الكمامة إلى وجهه مرة أخرى، ثم خرجت وسحبت نفساً عميقاً من الهواء النقي.

مررت على خيمة الطعام في طريقي إلى كوخي. كان الرجال فيها قد انتهوا لتوهم من وجبة الصباح، وأضحت رائحة الهواء مفعمة بدخان السجائر والقهوة. ولكن خلافاً لمعظم صباحاتهم، كان الجميع غارقين بالصمت كأن على رؤوسهم الطير.

جلست على سريري ولبثت هناك فترة من الوقت دون حراك. فكرت فيما إذا كان ينبغي أن آخذ حبوباً منومة، ثم قررت ألا أفعل. كان الجو في الكوخ شديد الحرارة كما هو الحال دائماً، ولكنني هذه المرة بالكاد لاحظت ذلك وأنا أغرق في نوم منهك، بلا أحلام.

استيقظت عندما أقحم غرول رأسه ليخبرني بأن سفيتك يريد معرفة ما إذا كنتُ قد توصلت إلى شيء بخصوص نقل الطالباني الميت. كان وجه غرول أحمر منتفخاً، وكان ينظر إلى الأمام مباشرة وهو يتحدث، متفادياً النظر في عيني. عندها تذكرت بأن كلاً من سبيتز، الذي كان على الطائرة مع فروبنيوس، مكال، وميتشيل كانوا يشاطرون غرول المهجع.

سألته: "كيف حالك يا غرول؟".

رد بصوت خافت: "بخير".

فأعدت الكرة فما كان منه إلا أن استدار وغادر.

خارج الكوخ، لبس النهار ثوباً رمادي اللون. السماء ملبدة بالغيوم وقد تلاشى منها أي أثر للشمس، حتى مركز القتال العسكري في تارساندان ابتلعته ظلال الجبال.

توجهت إلى جدران الهيسكو كي أسأل إليسون عن المتمردين القتلى، لكنني لم أجده هناك. وبدلاً منه وجدت والن يروح جيئة وذهاباً بين برات ورامیریز. هز رأسه بتحية خفيفة حين رآني، فسألته: "لماذا أنت هنا؟ اعتقدت أنها مناوبة إليسون".

"لم أستطع النوم".

طالعته بقلق بدا في عيني فبادرني: "دعنا لا نتطرق إلى الموضوع، اتفقنا؟".

فسألته: "كم من الوقت تخطط للبقاء هنا؟".

أجابني: "تانر سيحل مكاني في الساعة 16:00".

تركته وشأنه، مدركاً بأن الكثير من الحزن يستعصي على التعبير بالكلمات. وسرحت بنظري إلى الحقل المهجور. بعد خط الألغام، كانت الجثث لا تزال ممددة في خط مستقيم عند علامة المائتي متر. وعلى مسافة أبعد أحصيت ثلاث جثث أخرى وقد أحاطت بها سحابة من الغربان الصاخبة.

أذهلني أن أحداً لم يظهر لجمع الجثث. قريباً ستنتشر رائحة النتن في القاعدة بأكملها. وتساءلت في نفسي عما إذا كان الآخرون يفكرون في الشيء نفسه. تأملت برات الذي اتكأ على جدار الهيسكو محدقاً إلى الجبال دونما حراك، في حين أن راميريز كان متململاً كحاله على الدوام. من تجربة سابقة شهدته فيها، وعلمت - كما الجميع - بالسمعة السيئة لمزاجه السريع التقلب، وبخاصة عندما لا يكون ممكناً له أن يقوم بعمل ما، فإنه يجد نفسه معطلاً وفي وضع لا يكون عليه سوى الانتظار إلى ما لانهاية. وتساءلت: هل يمكن له أن يستمر في المحافظة على هدوئه.

فجأة مشى مباشرة إلى والن وراح يحدجه بنظراته عن كثب. حدق إليه والن بدوره بنظرة فارغة كما لو كان ينظر إلى شيء جامد. من التعابير التي ارتسمت على وجه راميريز استطعت التكهن بأن الأخير على وشك أن يتلفظ بشي ما بتعالٍ مزعج، لكن والن عاجله فرفعه عن الأرض من ياقة قميصه حتى لم تعد قدماه تلامسان الأرض، ثم دفع به تجاه جدار الهيسكو، وقال للمكسيكي المضطرب بلهجة متزنة هادئة: "في المرة القادمة حين تشعر بالرغبة في أن تشبع شهوة الثرثرة لديك، فإن وجهك الناعم الشبيه بالموناليزا ذاك سيصبح عجيناً، هل فهمت ما أقول؟".

"حسنا، أيها الرقيب أول...، حسناً".

"أقول، *هل.. تفهمني*؟".

"سمعاً وطاعة أيها الرقيب أول والن!".

حينها أفلته والن وتكوم راميريز أرضاً.

تحول والن إليّ قائلاً: "ما تزال هنا يا دوك؟ هل من خطب ما؟".

أجبته: "في الحقيقة، أجل. هل يمكننا أن ننقل جثة الميت خارج الخيمة الطبية بحيث لا نضطر لأن نشتمّ رائحته؟ إنه يفسد هواء الخيمة ويجعل من المستحيل علينا البقاء داخلها".

حدق والن إلى وجهي للحظة، ثم هزّ كتفيه لامبالياً وهو يقول: "هممم، لست أدري. دعني أفكر في الأمر. ربما سأراجع الملازم إليسون لآخذ رأيه".

سألته: "أتريدني أن أتوجه إلى القائد مباشرة؟".

"كلا، لا حاجة لإزعاجه. سأهتم أنا بالأمر. اتفقنا؟".

قلت: "حسناً"، وعاد إلى ارتداء قناع اللامبالاة. وحين انصرفت عنهما كان راميريز لا يزال على الأرض يفرك عنقه، أما والن فألقى إليّ نظرة لامبالية قبل أن يستأنف مجيئه ورواحه.

لدى عودتي إلى الخيمة الطبية، أومأت إلى سفيتك وأوعزت إليه أن يأخذ استراحة، ثم اقترحت: "لِمَ لا تضع كرسيك في الخارج؟ بهذه الطريقة لا تُضطر لأن تشم رائحته من مسافة قريبة".

وافق بامتنان وسحب كرسياً إلى الخارج.

أما أنا فقد ارتديت كمامة وفتحت سحاب حقيبة الجثث السوداء. حدقت بالرجل الميت دونما تأثر. إنه شاب، فاتح البشرة، لحيته مبعثرة، وعيناه الكحيلتان الجاحظتان لمعَتا بلون رمادي مذهل ذكرني بالضوء خارج هذه الخيمة. كانتا تبدوان وكأنهما تنظران إلى كل شيء وإلى لا شيء في الوقت نفسه. أنفه صغير وحاد، جبهته واسعة، فكه واضح، لكن جلد وجهه بدأ يفقد صلابته ويصبح إسفنجياً كالح اللون. الجرح المميت الذي تلقاه كان نتيجة طلقة مباشرة إلى القلب. فككت قميصه وفحصته لمدة دقيقة أو اثنتين. وقبل أن أغلق حقيبة الجثث مرة أخرى، حاولت تصوّره كيف كان وهو على قيد الحياة، ولكن مخيلتي خذلتني.

غادرت الخيمة وقد أحسست وكأنني قد خرجت من عمق مائة قدم تحت الأرض لألتمس الهواء. شعرت بأن ذهني مثقل دون أن أعرف لذلك سبباً. رحت أمشي حول القاعدة بلا هدف محاولاً إبعاد فروبنيوس والآخرين عن تفكيري، بالرغم من معرفتي بأن محاولاتي ستبوء بالفشل. ولم أكن الوحيد على هذه الحال، فقد بدا على الجميع أنهم يزدردون الغصة قسراً. لذلك عندما طلب إليّ بعض الرجال أن ألقي نظرة على إصابات طفيفة لديهم، استجبت لهم على الفور رغبةً مني في أن أبعد ما حلّ بنا من مصاب عن تفكيري.

في وقت لاحق، ألفيت نفسي أمرّ أمام كوخ القائد وبدا مضاءً. وفي اللحظة التي تمهلت في خطوي وأنا أمر أمامه خرج القائد من هذا الكوخ. كان وجهه شديد الشحوب، مما جعلني أُسِرُّ في نفسي استفساراً عما إذا كان قد ذاق طعم النوم منذ الاشتباك الأخير أم أنه - شأنه شأن والن - قد بقي حقيقةً دون نوم.

حدجني بنظرات متسائلة ورفع حاجبيه قائلاً لي بحدة: "نعم؟ ما الأمر؟".

وجدت أن هذه اللحظة مناسبة لأسأله: "هل وصلتنا أي معلومات حول الموعد الذي ينوون فيه استئناف خدمة المروحية يا سيدي؟ لقد بدأت تفوح رائحة جثة متمردنا القتيل في الخيمة الطبية، وكنا نأمل أن نتمكن من نقله إلى مكان آخر، كساحة تجمع المركبات مثلاً".

"هل تحدثت مع الرقيب أول والن عن ذلك؟".

قلت بعد تردد: "نعم يا سيدي، لقد فعلت".

"وماذا قال لك؟".

"إنه سيفكر في الأمر ويخبرني بقراره".

فرد بجفاء: "حسناً، ستعلم ما تفعل حين يجيبك".

توقف قليلاً، ثم كما لو أنه أراد التعويض عن حدته معي، أدخلني إلى كوخه وهو يقول: "لقد سمعت أنك كنت تقرأ عن طالبان".

أجبت: "أوه، عن بعض الأمور فقط يا سيدي. كالعادات المحلية وأمور من هذا القبيل".

تبعته بينما سار إلى مكتبه، وبرم جهاز كمبيوتره نحوي، مميلاً الشاشة حتى أتمكن من رؤيتها. وأومأ لي برأسه إليّ آذناً لي بأن أستريح. وقال: "ألقِ نظرة على هذا، ثم أخبرني برأيك".

ظهرت على شاشة الكمبيوتر، صورة تم التقاطها مباشرةً. كشفت عن فسحة مقطوعة الأشجار وسط غابة مرقطة بأشعة الشمس، يجلس فيها شخصان. كبّر كونولي الصورة، فظهرت فيها امرأة تجلس على جذع شجرة مقطوعة تعزف على نوع من أنواع آلات العود الموسيقية الطويلة العنق. وعند قدميها جلس رجل يستمع إليها. المثير للاهتمام أن المرأة لم تكن ترتدي البرقع، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها امرأة أفغانية شابة في هذه المناطق من دون غطاء كامل للجسم. تأملتها عن كثب، بعينيها المغمضتين، وتعبيرات وجهها الشديدة التركيز: لقد كانت متماهية مع عزفها.

أشار كونولي إلى الرجل الظاهر على الشاشة معلقاً: "هذه هي الجثة التي في خيمتك. بعد أن حمّلت صور الجثث وأرسلتها إلى وكالة الاستخبارات، عادت في غضون أقل من ثلاثين دقيقة. ولقد تم التقاط صورة هذا الرجل والمرأة تحديداً منذ أربعة أشهر من قبل طائرة بدون طيار، حلقت على ارتفاع ما يقرب من كيلومترين أو نحو ذلك فوق الفسحة تلك دون أن يشعر بها أحد. عمل متقن، هاه؟ إنه الإنسان مقابل الآلة: والآلة تفوز في كل مرة".

تساءلت: "من يكون يا سيدي؟".

أخبرني كونولي باسمه، ثم أردف: "يبدو أنه معروف محلياً باسم أمير الجبال. أو للتصحيح: *كان* يعرف باسم أمير الجبال. رجل له مكانته في طالبان. لا أعرف التفاصيل".

صدمني مرة أخرى تعارض مكونات الصورة، فأشرت إلى ذلك لكونولي بقولي: "ولكن إذا كان من الطالبان يا سيدي، فما الذي يفعله بصحبة امرأة حاسرة الرأس، وأحدهما يعزف على آلة موسيقية؟".

نظر كونولي إلى الشاشة بعينين يملأهما التساؤل، ثم هز كتفيه لامبالياً: "لا أعلم يا دوك. ربما هي زوجته، وتلك القوانين لا تنطبق عليها. لكنني أخمن وحسب، ليس لديّ أدنى فكرة. أنت

الخبير بهذه الأمور هنا، فما رأيك؟".

"لقد نلت مني هذه المرة يا سيدي. ليست لديّ أدنى فكرة، يؤسفني أن أقول هذا".

نظرت إلى الصورة، وأنا أشعر بعدم الارتياح، كما لو كنت أتلصص عليهما، قبل أن أعيد توجيه الشاشة مرة أخرى نحو كونولي الذي دقق في الصورة أكثر، وبعدها أغلق الكمبيوتر المحمول، ورفع رأسه ناظراً إلى عيني مباشرة. ثم نهض بغتة وسار إلى زاوية الغرفة.

عاد وفي يده بندقية كلاشينكوف محاطة بغطاء مصنوع من الحرير الأزرق الغامق، مع أزهار متقنة الصنع مطرزة بغرز حمراء، وعند ثقب الزناد تمت تقوية المكان بخيط أسود اللون.

وقال: "لقد وجدنا هذا على متمردك".

"متمردي؟ حسناً...".

أخرج السلاح من غطائه القماشي ووازنه على كفه. وأنا بدوري فحصته دون أن آخذه منه. كان السطح مستهلكاً، والخشب ربط بشريط لاصق. على الجانب الأيسر من المستقبِل، والذي كان من الفولاذ الصلب، ختم مصنع ثلاثي الشكل به سهم بداخله، يتبعه الرقم التسلسلي للسلاح وتاريخ الصنع: 1955.

تأمله كونولي مستغرقاً في أفكاره هنيهة، ثم قال: "هذا على الأرجح واحد من أولى دفعات رشاشات الكلاشينكوف، عندما قام السوفييت بتسليح جنودهم بالبنادق. ومن ثم في مسيرة تاريخها الطويل - ومن يدري كيف حصل ذلك - وجدت طريقها إلى هنا، حيث أصبحت الآن جزءاً من ترسانة طالبان. هل بمقدورك التفكير في أي أداة أو جهاز ميكانيكي قد استخدمته أنت خلال هذه المدة الطويلة؟".

"استخدمتها أنا شخصيا يا سيدي؟" فكرت للحظة، ثم قلت بتردد: "ربما المراحيض الخزفية القديمة لدى أهلي، سيدي؟".

تجهم وجه كونولي، ودخل في صمت تأملي. ثم تنهد بعد هنيهة وقال: "هذا الشيء عمره خمسة وخمسون عاماً. يا له من بلد".

نظر إلى وجهي وأكمل: "الإسكندر الأكبر كان هنا كما تعلم".

حدقت إليه، محاولاً متابعة خط أفكاره. استمر في النظر إلى البندقية وأضاف: "يقولون إن اسم قندهار هو نسخة من اسم إسكندر، وهو الاسم الذي دعاه الناس به في هذه الأجزاء. بالرغم من أنه على الأرجح اشتُق من مكان هندي قديم ما".

"هندي يا سيدي؟".

"غاندهارا".

"نعم، فهمت".

ابتسم ابتسامة شاحبة وهو يقول: "لقد تعلمت ذلك من الملازم فروبنيوس. أنت تعرف ما كان عليه من عشق للتاريخ والجغرافيا وهذه الأشياء".

لم أعقب على كلامه. بادلني النظر ثانية، فرأيت عينيه وقد اغرورقتا بالدموع. ثم قال بصوت متهدج، وهو يحاول أن يخفي ضيقه بضحكة: "كل هذا هراء. هل تعلم أن نيران الأسلحة قد تمركزت في محيطه بحيث أن الرجال الذين حاولوا الوصول إليه لم يتمكنوا من رؤية شيء سوى الرمال والغبار الثائر؟".

امتنعت عن إخباره بأنني كنت هناك، وبأنني أول من وصل إلى فروبنيوس.

مسح عينيه بسرعة بظهر يده. وتنحنح قبل أن يقول: "لقد اشتبك مع العدد الأكبر من المتمردين، ونقل وطيس المعركة الحامية إلى موقعه بحيث أبقى الضغط بعيداً عنا نحن البقية ومنع بذلك هجوم العدو. ذلك الشجاع المجنون!".

أطرقت أرضاً. وخيم الصمت طويلاً بيننا.

في نهاية المطاف، وضع يديه على جانبي الكلاشينكوف، ضاغطاً إياه نحو الأسفل كما لو كان يحاول كسره إلى اثنين. اصطبغ وجهه باللون الأحمر حتى برزت عروق رقبته. وأخيراً استرخى وتهدل كتفاه. ابتسم ابتسامة شاحبة، ومرر يده على المستقبِل قائلاً بصوت هادئ: "الآلة تفوز".

سكت قليلاً ومسح عينيه مرة أخرى قبل أن يستطرد: "كان الملازم فروبنيوس متخصصاً في الكلاسيكيات، هل كنت تعلم ذلك؟ في كلية في الشمال الشرقي. أنا..." صمت لثوان قبل أن يتابع: "عندما ارتدْتُ الكلية - الكلية *الحكومية* - إذا كنت رجلاً، كان لديك أحد خيارين: إما أن تتخصص في العلوم الزراعية أو إدارة الأعمال".

التزمت الصمت في حين أومأ برأسه عدة مرات، كما لو كان يجري حواراً داخلياً مع نفسه.

سألني: "هل سمعت عن مدرسة بينغري؟".

قلت: "مدرسة بينغري؟ لا يا سيدي".

أكمل موضحاً: "إنها واحدة من أفضل المدارس الخاصة في البلاد. أعني، إنها مدرسة النخبة. وقد درس الملازم فروبنيوس هناك، ثم ذهب إلى فاسار. كلية فاسار!" كررها بهدوء وهز

رأسه غير مصدق، "لو شاء، كان بمقدوره دخول جامعة "ويست بوينت" والتخرج منها ضابطاً ذا رتبة مرموقة. لكنه لسبب ما فضّل خياراً متحفظاً مثل فاسار. لم أستطع قط فهم دوافعه، وقد سألته عن ذلك مرة فضحك دون أن يحر جواباً. لذا لا أدري ما أقول، لعل بعض الناس يفضلون اختيار الطريق الأصعب في حياتهم. ولكن بالنظر إلى منبته كنت لتعتقد...".

"أتوقع ذلك، سيدي. نعم إنه كذلك سيدي".

نظر إليّ ثم أشاح بنظره بعيداً وهو يقول: "كان أكثر ما يميز نيك هو حماسه. لم يكن أحد يضاهيه بقدرته على إيصال مشاعره. لا يزال أحد كتبه عن المسرحيات اليونانية موجوداً هنا في مكان ما. المشكلة هي أنني في كل مرة ألتقطه لأقرأ فيه أكون متعباً جداً وأستغرق في النوم".

حمل البندقية عالياً، وصوبها من خلالي إلى نقطة ما بعيدة، ثم تابع: "على أي حال، ما يعنيه كل ذلك هو أن هؤلاء المتمردين... كانوا موجودين هنا لفترة طويلة، طويلة جدًا. وعلى الأرجح أن دماً مقدونياً يسري في عروقهم، وهو ما قد يفسر على الأقل بعضاً من تصرفاتهم".

فأيدته قائلاً: "ويفسر بعضاً من سماتهم أيضاً. الرجل الميت في خيمتي لديه شعر فاتح اللون وعينان رماديتان. شكله أوروبـي جداً".

"أعتقد أن المصطلح الفني هو هندو - آري".

"أنت على حق يا سيدي، هندو - آري".

مدّ بندقية الكلاشينكوف باتجاهي متسائلاً: "هاك، هل سبق لك أن أمسكت واحدة من هذه الأشياء؟".

قلت وأنا آخذها منه: "كلا يا سيدي، لم أفعل". أخبرته أنها تبدو لي متهالكة مقارنة بسلاحنا الـ M-4 وهو الأقرب لها.

تجهم وجهه وهو يقول: "يمكنك أن تترك هذا الشيء تحت صخرة لعشر سنوات ثم تعود لاستخدامه عندما يقتضي الأمر، دون أن تجد مشكلة في ذلك. إنه آلة القتل الكليّة القدرة".

فذكرته: "ومع ذلك فقد خسر الروس الحرب".

أجابني مصححاً: "لقد خسر الروس لأنهم قاتلوا باستخدام قوافل من المركبات الآلية، لم ينشروا الجند في فرق للمشاة كما نفعل نحن. كانت تكتيكاتهم خاطئة وقد تعلمنا من تجربتهم، ونحن لن نكرر الأخطاء نفسها".

وضع البندقية وجلس إلى مكتبه. وراح يطوي غطاء المسدس الحريري الأزرق بعناية، ثم وضعه إلى جانب حاسوبه المحمول.

"سأحتفظ بهذا كهدية تذكارية. بعد سنوات من الآن، عندما أمضي وقتي في منطقة الطيران المنخفض متسكعاً في إنديانا أو في أي مكان آخر، أريد أن أنظر إلى هذا الشيء لأذكّر نفسي بأنني كنت هنا بالفعل، وسط اللامكان، سالكاً خطى الإسكندر المقدوني".

علقت: "ولكن الإسكندر لم يرجع إطلاقاً إلى دياره، سيدي".

"لكنني أعتزم ذلك"، قال عابساً قبل أن يستدرك: "سنعود كلنا يا دوك. هذا وعد. سنتجاوز هذه المحن".

قلت سارحاً بفكري: "إنه الصيف في الوطن يا سيدي. المدارس أغلقت والمخيم الصيفي يبدأ في غضون أسبوعين في ويليامزفيلد. أخي الصغير سيصبح مستشاراً هذا العام".

قال: "ذلك الصيف على بعد أميال وأميال"، وأسند رأسه إلى يده قبل أن يقول: "أنا متعب".

"الجميع متعب يا سيدي".

نظر إلي بعينين كأنهما لا تبصران أمامهما، وقال: "لا أعرف ما إذا كانوا سيهاجموننا اليوم مرة أخرى، ولكن إذا فعلوا، فإننا لن نرضى برهائن".

ترددت قبل أن أسأل: "ماذا لو جاؤوا لأخذ موتاهم؟".

لم يجبني، انتظرت رده لحظات قليلة، لكنه التزم الصمت. ثم أدار لي ظهره وعاد لدراسة خريطة ما، فأدركت أن الحديث قد انتهى.

تركت كوخه ووقفت جانباً لهنيهة كي أهضم المحادثة التي جرت بيننا. انتابني شعور بالاكتئاب، وحين رفعت عيني متأملاً الجبال التي تلوح في الأفق مطلة على القاعدة، استحالت مشاعري إلى نوع غريب من اللامبالاة. استجمعت شتات نفسي جاهداً، وانطلقت للبحث عن والن قبل أن تبلغ الساعة الـ 16.00، إذ أردت اللحاق به قبل انتهاء مناوبته لأسأله عما إذا كان قد تحدث إلى إليسون عن الجثة.

عثرت عليه عند نقطة مراقبة الدخول، على وشك تسليم مكانه للرقيب تانر.

نظر إليّ غائم العينين لدى سؤالي إياه عن الأمر وقال: "لا أزال أفكر في ذلك".

"ماذا عن الملازم إليسون؟".

"قال إنه سيفكر في الأمر أيضاً".

صفع خديه وقال وقد بلغ منه الإنهاك كل مبلغ: "رباه، بالكاد أستطيع الوقوف على قدمي. أعتقد أنني سآخذ قسطاً من الراحة". ومشى بعيداً بتثاقل.

تلفت حولي فألفيت كلاً من راميريز وبرات قد غادرا أيضاً واتخذ علي زاده المكان عوضاً عنهما، ممثلاً النجدة الوحيدة التي ظهرت حتى الآن. الأمر الذي جعل تانر في حالة هيجان، وكان قد بدأ لتوه بصب سخطه على علي زاده لغياب الآخرين عندما أتى جاكسون مهرولاً. ومن بين أنفاسه اللاهثة قال: "آسف على التأخير أيها الرقيب، كنت أحاول حمل غرول على الحضور معي، ولكن لم يحالفني الحظ. إنه متأثر جداً لموت سبيتز. ربما يجب عليك التحدث معه...".

صاح تانر بغضب مستعر: "أوه، بحق الجحيم، أين هو الآن؟".

"متقوقع في كوخه".

تبرعت قائلاً: "سأذهب لإحضاره".

هتف تانر: "شكراً يا دوك. وأخبرْهُ أنني سأضرب مؤخرته إذا لم يكن هنا في أسرع وقت".

عرض جاكسون أن يرافقني. فخاطبت تانر قائلاً: "سنغيب لبضع دقائق، هل تمانع؟".

فألح تانر: "من الأفضل أن يكون سريعاً هنا وإلا!".

وجدنا غرول متكوراً كالجنين على سريره، مواجهاً الجدار، وقد حشر سماعات الرأس الخاصة بجهاز الآيبود في أذنيه. جلست عند أسفل سريره، فلم يحرك ساكناً.

مال جاكسون فوقه وانتزع سماعات رأسه، فانتفض مستديراً نحونا وقد كور قبضتيه، وصاح غاضباً: "اللعنة ماذا يجري؟".

أجابه جاكسون برصانة: "دوك هنا. من المفترض أن تكون في موقع الحراسة، يا صاح. إن تانر يغلي ويفور".

"اللعنة على الحراسة يا رجل، دعني وشأني".

"عليك أن تتماسك يا رجل".

قلت لجاكسون: "لا بأس، سأتولى زمام الأمر من هنا".

راقبني غرول بكآبة وأنا أشير إلى جهاز الآيبود الخاص به وأسأله: "إلى ماذا تستمع؟".

فأجاب بنبرة متحفظة: "غيثسامني".

سألته: "أهذه فرقة موسيقية؟".

"أجل".

فقلت: "لا أظنني قد سمعت عنها. ما نوع الموسيقى التي يعزفونها؟".

أجاب جاكسون عنه: "إنّه نوع من الروك المتحرر ولكن المعدني".

دارت عينا غرول في محجريهما علامة على التذمر، ولكنه نهض جالساً وقال بانزعاج: "غيشامني ليسوا متحررين بل ما بعد المتحررين. وهم ليسوا "معدنيين"، أياً كان ما يعنيه هذا الاسم، إنهم من فئة (ميتال ديث) ولكن مع ألحان متصاعدة الوتيرة. حسناً؟".

رد جاكسون: "حسناً يا رجل، كما تشاء. إنهم فرقة ميتال ديث عنيفة ومذهلة".

"هراء"، انبرى غرول مدافعاً: "غيشامني ليسوا مثل فرق الميتال ديث الصاخبة. غيشامني هي فرقة أبعد ما تكون عن هذا النوع من التصنيف. عندما يكتبون أغنية فإنهم لا يحاولون أن يكونوا شيطانيين وغامضين قدر الإمكان، مثل بعض فرق الديث ميتال المبتذلة. إنهم يكتبون من القلب فحسب. بعض أغانيهم تبدو وكأنها ديث ميتال، وبعضها ما بعد التحررية، وبعضها لها مؤثرات من موسيقى الماث روك أو الموسيقى الصاخبة (غريندكور)، في حين أن بعض الأغاني الأخرى هي مجرد أهازيج بكلمات لطيفة. وهذا ما يجعل غيشامني فرقة رائعة".

عاجله جاكسون: "لدي أخبار لك يا أخي، الأهازيج اللطيفة هي أداة غير المتعلمين".

رد غرول بنزق: "بل أنت هو الأداة".

قال جاكسون: "أياً يكن يا رجل"، ثم تحول إليّ مستطرداً: "إذا كنت قد سمعت عن فرقة دريم بارانويا، فإنهم يشبهونهم قليلاً".

فانثنى غرول نحوي قائلاً: "لا تصغي إليه يا دوك، إنه يجهل ما يقوله. فرقة دريم بارانويا قد فقدت عقلها تماما بعد أغنيتها *داونهيل*. كريس، وهو والدي، يستمع إلى فرقة دريم بارانويا. حين أسمعته غيشماني لم تعجبه بسبب صوت المغني الهادر. لذلك ركلت وجهه ودفنته حياً في القبو. أنت لا تعبث مع غيشماني أمامي وتتوقع الإفلات من الأمر".

ضحك جاكسون وقال: "لا ريب في هذا. لقد فعلت الشيء نفسه مع أمي بعد أن حملتها على الاستماع إلى فرقة آميسور. نحن إخوة، أنت وأنا".

لكن غرول لم يكن يجاريه في حماسته، إذ بصق بازدراء قائلاً: "آميسور! أنت تعني القردة المستسلمة آكلة الجبن!".

خمنت ما يجري بقولي: "إذن فهم فرنسيون؟".

رد جاكسون بسرعة: "أجل"، ثم التفت ليرد على الهجوم الذي قوبل به فريقه المفضل: "وماذا عن الغيثشامني؟ إنهم كنديون".

"لا، بل اسكندنافيون"، صحح له غرول، "هناك فرق. وهذا يظهر ضآلة معارفك".

قلت بلطف: "ألا تستمعون أيها الرفاق إلى أي فرق أميركية؟".

هذه المرة استدارا نحوي متسائلين: "مثل ماذا دوك؟".

قال جاكسون: "مثل فرق تجارية صبيانية لا يتجاوز عمر إحداها على أرفف المبيعات العشرة أيام؟".

أضاف غرول: "مثل بيبـي بيبـي بيبـي أووه".

قلت: "بيبـي بيبـي بيبـي أووه؟ لا أعرف، ماذا عن بيرل جام؟".

حدق إليّ الاثنان بدهشة حقيقية. ثم قال غرول متسائلاً: "أنت تمزح دون شك يا رجل، أليس كذلك؟".

على الرغم من أنني كنت في الحادية والثلاثين من العمر، إلا أنني شعرت فجأة أنني من العصر القديم.

قال لي غرول بلطف: "سأخبرك ما سنفعل. إذا أعرتني جهازك الآيبود، سأُنزل بعض ألحان غيثشامني لك. يمكنك البدء بأغنية *بلاك ووتر ديز* وسترى، إنهم لا يشبهون أي فرقة أخرى. حتى الرسومات الفنية على ألبوماتهم رهيبة جداً".

في طريقنا إلى جدار الهيسكو أضاف: "أنا *أكره* فرقة غيثشامني. أقسم إنني في المرة الأولى التي سمعتهم فيها كاد يغمى علي بعد دقيقتين فقط. إنهم يجعلونني أشعر بالذنب لأنني لم أستمع إليهم منذ ولادتي، وبعد كل أغنية جديدة لا أستطيع العمل بعدها حوالى الأسبوعين. في كل مرة أمتلئ رعباً لفرط الحماس!".

وصلنا إلى نقطة مراقبة الدخول، فمشى تانر نحونا ليستقبلنا بخطى عسكرية.

"حسناً؟" وجه سؤاله إلى غرول مطالباً إياه بتفسير.

فتدخلت قائلاً: بإمكاني أن أشرح لك". لكن تانر طلب مني عدم التدخل بالأمر.

طأطأ غرول رأسه خجلاً وهو يجيب: "لقد كنت مشوشاً جداً أيها الرقيب. مع كل ما جرى مع سبيتي وبقية الأمور...".

خطا الأخير خطوة إلى الوراء مطبقاً شفتيه، وقد ارتسمت على وجهه علائم الاشمئزاز وقال: "سأخبرك شيئاً أيها الجندي، لديّ علاج جيد لمشكلتك: لقد حظيت لتوك بمناوبة مزدوجة".

أردت الاحتجاج، لكن غرول قال بهدوء: "لا بأس يا دوك، أعتقد أنني أستحق ذلك".

دار تانر على عقبيه، وانسحب متجهاً إلى نقطة المراقبة. تلكأت في الذهاب ووقفت أرقب غرول وقد أسند بندقيته الـ M-4 إلى كيس الرمل، وأخذ ينظر إلى الجبال.

"أتعلم يا دوك"، شاركني أفكاره متأملاً، "بالعودة إلى ما كنا نتحدث عنه في وقت سابق، أنا لست متديناً أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن في كل مرة أنظر فيها إلى تلك المنحدرات تصيبني القشعريرة، ومن ثم أشعر وكأن كل ما بإمكاني سماعه هو صوت جينس وهو يغني *"الموت يهمس في رأسي"*. عندها أدرك... أنني إن كنت متبعاً ديناً ما فسيكون جينس هو إلهي فيه".

سعلت وسألته: "من يكون جينس؟".

قال بخشوع: "المغني الأساسي في غيثسامني، وسيد الغيتار الأعظم. إنه جينس لاين".

قلت مربتاً على ظهره: "آمين، على ما تقول".

ثم هممت بالمغادرة في الوقت نفسه الذي رأيت فيه القائد كونولي خارجاً من كوخه، مقبلاً علينا: "وصلت للتو أخبار من الكتيبة. سوف يستأنفون رحلات طائرات البلاك هوك في غضون يومين. وهي المدة التي ستضطر فيها لأن تتحمل وجود صاحبك الرابض في كيس الجثة. أنا آسف بشأن ذلك".

هتفت: "يومان آخران!".

نظر إليّ بطريقة ساخرة وقال: "لقد قيل لي إن هناك قبائل معينة في الشمال ترفض الدفن إلى أن يمر أسبوع كامل على الميت، اعتقاداً منهم أن الدفن قبل أي مدة أقصر من ذلك يعد أمراً غير أخلاقي وينطوي على عدم احترام للميت".

"ألا يمكننا نقله إلى حيث كانت أكواخ الجيش الوطني الأفغاني، سيدي؟ أعني لم يبق شيء هناك بعد أن قام المتمردون بدكه".

صمت مفكّراً في الأمر، ثم قال: "أفترض أن بمقدورنا فعل ذلك... مع ذلك، سيتعين عليك مراقبته. أتعلم، لماذا لا تتحدث مع الملازم إليسون؟ انظر إن كان من الممكن نقل ذاك الشيء اللعين".

"هل أخبره أن هذا بأمر منك يا سيدي؟".

"حسناً".

"شكرا سيدي".

"على الرحب".

تسلق جدار الهيسكو، وأرسل بصره إلى الجثث الممددة في الحقل. ثم توجه إلى تانر متسائلاً: "لم يأت أحد لأخذها بعد، أليس كذلك؟".

أجابه تانر: "إنه أمر في غاية الغرابة يا سيدي".

"إنهم يعملون عقلهم، فهم يعلمون بأنهم سيطحنون إذا حاولوا".

"ومع ذلك، لم يثنهم هذا في الماضي، لا أدري ما الذي يمكن أن نفهمه من هذا".

"لا أظن أنّ علينا فهم أي شيء منه أيها الرقيب، فهذه ليست مهمتنا. لكنني بالتأكيد لن أقف مكتوف الأيدي بانتظار أن تتحلل الجثث أمام أعيننا، وتفوح رائحتها في القاعدة. لقد طلبت من الرقيب ترايب أن يجمع فرقتين، وأن يدفنوا الجثث خارج محيط مهبط الطائرات حيث لا يمكن لأحد رؤيتها. بعيداً عن الأنظار بعيداً عن البال".

سأله تانر عما إذا كان ينوي أن يأمر بدفن الرجال الثلاثة المتمددين في نهاية الحقل أيضًا. فأجابه: "كلا. الضوء ينحسر بسرعة، ولا أريد أي مخاطرة. المكان قريب جداً من الجبال، ونحن لا نعرف من قد يكون متحصناً هناك. فإن ظلوا حتى الغد، فسنتعامل حينها مع الموقف".

ثم بصوت منخفض، يسألني القائد عما إذا كان بإمكانه التحدث معي على انفراد لثوان.

تمشينا معاً خارجين إلى محيط الأسلاك الشائكة، ليقول: "أبلغوني من الكتيبة أيضاً أن فريقاً للإنقاذ فتش موقع تحطم البلاك هوك. صمت لثوان ثم تنحنح وتابع: "وقد أخبروهم أنهم قد وجدوا الجميع، ولا ناجين بينهم. لقد أخبرت جميع الضباط، وسأدلي بتصريح عام للجميع غداً. أما الآن فبتقديري أن من الأهمية بمكان أن يحصل الرجال على بعض الراحة".

وافقته بقولي: "بالطبع، سيدي"، ولم تسعفني الكلمات لأضيف أي شي آخر فلذت بالصمت.

تبادلنا النظرات، ومن ثم وفي نفس اللحظة أشحنا النظر نحو الجبال. لقد لطّف ضوء المساء من ملامحه، وقد اكتست تعابير وجهه بمزيج من الشباب والحزن والتعب. كان بحاجة ماسة إلى الحلاقة - كما هو الحال لدي - وبدا لي جلياً أنه قد فقد من وزنه خلال الأربع والعشرين ساعة

الماضية. أنا متأكد من أنني لم أكن أفضل حالاً منه، لكنني لم أستطع مقاومة استراق النظر إلى يده حيث لدغه الدبور: لقد خف التورم وبدت الآن ملتهبة ومغطاة بالبقع.

في تلك اللحظة بالذات، اندفع سرب من الغربان محلقاً فوق رؤوسنا فنظرنا معاً إلى الأعلى.

سألني بغتة: "هل رأيت شورتي منذ الاشتباك؟".

"الكلب؟ لا، لا أذكر أني رأيته يا سيدي".

"هممم، ربما لا يزال مختبئاً في مكان ما".

"سبيتز يعرف عادة أين هو"، قلت كلماتي تلك بدون تفكير، ثم استدركت. "لقد نسيت"، قلت معللاً بغباء.

هذا القائد ذو الوقفة الثابتة، وفي اللحظة التي نظر إليّ، بدا لي رقيقاً، مستسلماً، ومغلوباً على أمره تقريباً. مسح وجهه بيده وهز رأسه، ثم قال: "هل تقيم الحيوانات حداداً يا دوك؟ لا، لا تُجِبْ، كان هذا سؤالاً مجازيّاً".

غيّرت تكشيرة طفيفة شكل فمه وهو يتابع: "هذه هي الحرب، أليس كذلك؟ هذا ما تفعله الحرب. في أقل من شهر، فقدت اثنين من ضبّاطي الأكثر خبرة...".

أشعل سيجارة، وقذف بعود الثقاب بعيداً بحركة تشير إلى العجز وإلى التعب المفرط. لاحظت أن يده ترتجف. أخذ سحبة واحدة، ورمى السيجارة بعيداً. وأومأ إليّ كما لو أنه كان على مسافة بعيدة مني. قال: "سآخذ قسطاً من النوم. أنت تعرف أين تجدني إذا احتجت إليّ".

كان على وشك الذهاب، حين استدرك مستفهماً: "بالمناسبة ما الذي تفعله هنا؟".

"كنت على وشك التوجّه إلى الخيمة الطبية، سيدي".

مرّ تانر في تلك اللحظة. فأشار إليه كونولي سائلاً: "كم من الوقت ستبقى هنا؟".

فأجابه: "ثلاث ساعاتٍ أخرى، سيدي".

"لا تنس أن مناوبتك التالية تبدأ من الساعة 04.00".

"لا مشكلة يا سيدي".

هز القائد رأسه متعباً ومضى بعيداً. وبينما كان الأخير يغادر انضم إلينا المجند جاكسون مستفسراً: "ما الخطب أيها الرقيب؟".

أجابه: "سنكون في الحراسة مرة أخرى في وقت مبكر غدًا صباحاً يا جاكسون".

"لا!! باكراً متى؟".

"الرابعة".

"اللعنة".

"نعم فعلاً".

"أربعتنا كلنا؟".

قال تانر: "الكل باستثناء غرول"، ثم ابتسم ابتسامة جانبية متابعاً: "هذا ليس منتجعاً صحياً أيها الجندي".

حدق إليه جاكسون لثوانٍ بوجه خال من التعبير قبل أن يشيح بوجهه ويمضي عائداً إلى موقعه. لم أستطع أن أحزر ما إذا كان سعيداً لكون تانر قد أغفل غرول، أو أنه شعر بالإحباط أمام احتمالية حرمانه من نيل قسط واف من النوم لليلة أخرى. وأياً كان الأمر، فمن الواضح أن رد فعله قد أزعج تانر، وحسبت بأنه على وشك أن يناديه ليؤنبه على ذلك، إلا أنه على ما يبدو تراجع عن عزمه، إذ قال وهو يلتفت إليّ: "لا أزال أذكر نفسي أنه فقط في التاسعة عشرة من عمره".

"خيراً فعلت أيها الرقيب"، قلت بهدوء.

ثم التفتنا إلى جاكسون المدحور لنلحظ محاولته في إخفاء تثاؤبه من خلال الزفير من زوايا فمه.

توجهت إلى خيمة الطبيب لأعطي سفيتك إذناً بالانصراف، وفي الطريق توقفت عند كوخ إليسون للتحدث معه حول نقل الجثة، لكنه كان غارقاً في نوم عميق وقد انفصل عن عالم الأحياء. أمضيت بضع دقائق وأنا أستمع إلى شخيره المجهد مفكراً بأن هذه ربما كانت أول فرصة يحظى بها للنوم بعمق منذ أيام، وقررت تأجيل الأمر لليوم التالي.

وفي صباح اليوم التالي حين انطلقت للعثور عليه، كان الضباب سميكاً على الأرض. مر برادفورد من أمام الخيمة الطبية، فسألته ما إذا كان قد رأى الملازم، فأجابني: "ربّما هو في نقطة مراقبة الدخول، أو في مكان ما على امتداد جدران الهيسكو".

عادت الريح لتعصف بصورة حادة صافرةً في جنبات القاعدة. أخبرني الجنود القائمون على المراقبة في نقطة مراقبة الدخول بأنّ إليسون يتفقد جميع الرجال الذين يقومون بالمراقبة حالياً. لذا أمضيت الساعة التالية أبحث متعثراً حول محيط جدران الهيسكو عن الملازم المراوغ، في مهمة باتت أكثر صعوبة من المعتاد بسبب الضباب الذي جعل الرؤية مستحيلة لأبعد من خطوتين. تبعته

في المسارات التي سلكها مصمماً على العثور عليه. وأثناء تنقلي بين موقع حراسة وآخر، تبين لي أن معظم الرجال قد تجاوزوا ما حصل في الاشتباك، ولكني مع ذلك شعرت بوجود بقايا من التوتر الذي لم يفارقهم بعد، لحظته في رؤوسهم التي غطست بين أكتافهم، ياقاتهم المقلوبة للأعلى للحماية، بنادقهم المرفوعة في وضعية الاستعداد، وفي أعينهم التي ما فتئوا يضيقونها في محاولة منهم لرؤية ما حولهم من خلال ضوء الفجر الخافت. كل شيء بدا كالحلم على نحو مثير للفضول في ضوء الفجر الذي يبزغ والضباب الذي بدأ ينقشع. إن الرؤية من خلال الضباب تجعل كل شيء، من رجال وأكواخ، يبدو وكأنه يطفو على سطح الأرض. من حين لآخر، كنت أفقد القدرة على رؤية ما يحيط بـي تماماً، فأشعر وكأنني لم أعد جزءاً من هذا العالم، بل من مكان آخر مختلف تماماً. لا بد وأن هذه الحالة الذهنية الغريبة هي أثر لاحق لأحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية. نوع من رد الفعل المتأخر على المعركة ذاتها. شعور الانفصال عن الواقع كان شديداً كما لو أن أعصابـي كانت مجهدة، وفي الوقت نفسه بتّ أختبر المراحل المتناقضة للحلم كافة. من جهة أخرى فإن طبيعة هذا الإحساس كانت مثيرة للأعصاب. ففي كل مرة يرق فيها الضباب إلى حد أستطيع معه تبين ما حولي من جديد كان ذلك يقذفني مرة أخرى ومباشرة إلى الحاضر. كان مما يزيد الإحساس بعدم الواقعية هو الصمت المطبق الذي خيم على القاعدة، وكأن الضباب قد ابتلع أصواتها المعتادة كلها. وبدلاً من صخبهم، هُيئ لي وكأن الجميع يشاهدون مسرحية الضباب المخيم على الحقل، وغلالة السحب التي ترخي سدولها على الجبال ثم ترتفع قليلاً، لتسمح للشمس بالمرور من خلالها. لا أثر للحياة في الخارج - باستثناء الجثث الثلاث المرمية في نهاية الحقل. كل ما عداها هو أرض قاحلة كئيبة - حتى الغربان الصحراوية التي تملأ هذا المكان في العادة صباحاً لا أثر لها.

شيئاً فشيئاً، يتسلل ضوء وردي خافت عبر السحب، فينير السفوح ويجعلها ظاهرة للعيان مرة أخرى من بعيد. من قاعدة تلك السفوح، يظهر درب ضيق مائل يصعد نحو الأعلى منحنياً بزاوية حادة يختفي بعدها وراء كومة من الصخور المنهارة. ومن هناك يكمل الدرب طريقه صعوداً في تعرج حاد بين التلال وأشجار الصنوبر إلى أن حجبه وراءه مرة أخرى حاجز من الصخور المنهارة. ثم يكمل طريقه بعيداً عن الأنظار عبر وادٍ عالٍ يمتد بعيداً في سلسلة الجبال. في هذه المنطقة التي يتناوب فيها الضوء والظلام بحدة، لقي الملازم هندريكس والرقيب كاسترو مصرعيهما قبل بضعة أسابيع أثناء دورية استطلاع. ومنذ ذلك الحين، امتنعنا عن المغامرة في الجبال، بالرغم من أننا سمعنا شائعات عن هجمات لطائرات بدون طيار من طراز بريداتور وعمليات للقوى الخاصة انتقاماً لوفاتهم.

تدريجاً بزغت الشمس من بين الغيوم، مرسلة أشعتها على السهول، وحين سرى الدفء في أوصال الدنيا، خلعت سترتي. أنارت أشعة الشمس السفوح المنخفضة، وسرعان ما اكتسحت الحقل وغطت بضيائها القاعدة. أول الطيور التي ظهرت لم تكن غرباناً، بل كانا نسرين بطيئيْ الحركة، عظيميْ الأجنحة وقد حوّما عالياً فوق الجثث في الطرف البعيد من الحقل، لكنهما لسبب ما لم يهبطا. ثم ظهر اثنان أو ثلاثة من الغربان أيضاً، لكن يبدو أن وجود النسور قد أرهبها فطارت الغربان بعيداً إلى الجبال. وبعد لحظات، انقضّ صقر من قمة عالية مزيحاً النسرين من الساحة. ومع ذلك، بالرغم

من كل هذا النشاط الجوي، وربما بسبب خيوط الضباب غير المتلاشية بعد، ران سكون غريب يكتم الأنفاس.

لحسن الحظ، بدأ الضباب ينقشع في الوقت الذي أدركْتُ فيه إليسون الذي كان قد عاد إلى نقطة مراقبة الدخول واتخذ مكانه بجوار المجنديْن علي زاده ورينهولدر. شعرت بالارتياح، وخطوت نحوه حين رأيته فجأة يتصلب ويمشي بضع خطوات إلى الأمام. رفع منظاره أمام عينيه، موجهاً إياه صوب الحقل. حدق إلى علي زاده ومن ثم ضيّق عينيه وهو يركز في منظار بندقيته. ولم يلحظني أحد منهما.

كنت أحاول أن أكتشف ما ينظرون إليه عندما صفر إليسون بهدوء وهتف علي زاده مندهشاً: "تباً! شيء ما ينزل على الدرب اللعين".

ثم قال بسرعة: "لقد وصل إلى الحقل... يبدو أنه يتجه نحو الجثث".

علّق رينهولدر، الذي كان ينظر أيضاً من خلال منظاره: "يبدو وكأنه صرصور عملاق".

أخيراً، تمكنت من تحديد موقع ما يتحدثون عنه، ورحت أرقبه بعناية، في حين طلب إليسون إلى رينهولدر استدعاء القائد فوراً. بدأت أشعر بأن معدتي تنقلب.

علي زاده الذي ما انفك يراقب المشهد من منظار بندقيته تمتم قائلاً لإليسون: "أنت لن تصدق هذا يا سيدي، ولكنني أعتقد أنها امرأة تضع البرقع... تتحرك على نوع من المنصة على عجلات. إنها تستخدم شيئاً لدفعها إلى الأمام".

نظر إليسون من خلال منظاره.

تابع علي زاده: "يا رباه! إنها تدفع هذا الشيء إلى الأمام بيديها العاريتين!".

خفض بندقيته في الوقت نفسه الذي خفض فيه إليسون منظاره، ولمحني واقفاً إلى جانبه، فقال لي: "صباح الخير يا دوك. ما الخطب؟".

هززت رأسي وقلت: "مسألة يمكنها الانتظار".

نظر علي زاده إلى إليسون بارتياب متسائلاً: "ما الذي يجري هنا بحق الجحيم يا سيدي؟".

رفع إليسون منظاره مرة أخرى متقصياً بقية الحقل حوله قبل أن يقول: "هناك مسافة تقدر بألف متر تفصل بيننا وبين سفوح المنحدرات. بقدر ما أستطيع أن أرى، فإن هذه الأرض - باستثناء المرأة التي في العربة - مهجورة كسطح القمر".

تنحنح إليسون قبل أن يضيف بهدوء: "سنكتشف ما يجري عما قريب، أليس كذلك؟".

ثم تحول إليّ قائلاً: "يستحسن أن تهتم بخيمتك يا دوك. فربما نحتاج إلى خدماتك، وفقاً للطريقة التي ستتبلور فيها الأمور...".

إيسمين [6]

منذ اللحظة التي صعدت فيها إلى المروحية الضخمة في مطار قندهار، أدركت أن حياتي لم تعد ملكاً لي. كان هناك أربعة رجال آخرين على متن الطائرة: أعضاء الطاقم الثلاثة في المقدمة، وطبيب في الجيش أمضى الرحلة بأكملها يفحص أسطوانات الأكسجين والمعدات الطبية المتنوعة. لا أحد منهم يتحدث معي، وقد جعلتهم خيالاتهم جزءاً من الظلام المخيم في الداخل والخارج. وما فتئت حوامات المروحية تهدر بأصوات تشبه قرع الطبول تصم الآذان. وراحت الأضواء التي تشبه رأس الدبوس في حجمها تضيء الداخل وتنعكس على الألواح اللامعة حتى شعرت وكأنني في غرفة سوداء مملوءة بالمرايا الملونة. وبينما ارتفعت بنا المروحية في السماء، تحركت الأضواء يمنة ويسرةً فأغمضت عيني وأخذت أتلو الصلوات في سري.

شعرت بالدم ينبض في أذني، وبضغط مستمر يضيّق الخناق علي. فإذا ما دفعني الفضول إلى فتح عيني مرة أخرى، كنت أندم على الفور لأن ذلك كان يسبب لي شعوراً بالغثيان. وبما أني كنت مربوطاً إلى مقعدي، فإن مساحة الرؤية لدي اقتصرت على مستطيل ضيق فوق كتف الطيار، لمحت من خلاله قطعاً مجتزأة من الأرض تارة ومن السماء تارة أخرى. شعرت بأنني معلب في صندوق من الزجاج، وما انفككت أحاول تثبيت نفسي بينما كانت الطائرة تغطس ثم تطفو فوق غمام بلون الدخان الأسود. ومرة التقطت عيناي صورة رقعة من الماء الرمادي، ربما كانت بحيرة. أما الجبال فقد بدت وكأنها ظلال مسننة ترتفع في الهواء.

كنت على وشك أن أصاب بالغثيان ثانيةً عندما غطسنا نحو الأسفل عبر ثقب في السحب. لمحت عندها قاعدة عسكرية صغيرة تحتنا مباشرة ميّزت منطقة الهبوط فيها من خلال الأضواء الوامضة. تعاظم حجم القاعدة ونحن نقترب، وانقسمت إلى خليط من المباني الغامقة المرتفعة قليلاً عن مستوى سهل يحتضنها. ارتفع قمع لولبي من الغبار ليستقبلنا يشعرك وكأنك تهبط إلى العالم السفلي. وسُمع صوت ارتجاج مفاجئ، فشعرت بذعر كبير يجتاحني وضُغط رأسي إلى الوراء وشَدت الأشرطة المقيدة جسدي إلى مقعدي. شعرت بقوة عملاقة تصدم ضلوعي بضربات مكتومة، إلى أن استدار الطيار وأشار إليّ رافعاً إبهامه فعرفت عندئذ أننا قد هبطنا سالمين.

أرخيت رأسي بارتياح لوصولي الآمن. كان الآخرون يعجون بالحركة، ففككت عني حزام مقعدي وسحبت حقيبتي. وبينما كنت أرميها على كتفيّ، تم حمل أول نقالة إلى الداخل. أسرع ضابط نحونا وصاح بشيء ما للرجل المستلقي على النقالة، فرد الأخير عليه بابتسامة واهنة. ضغطت

نفسي ماراً بجانبه ثم قفزت خارجاً من المروحية، لأهبط أرضاً وقد كادت أمواج هواء شفرات المروحية تطيح بـي.

في الخارج، كانت الرمال تغطي كل شيء. كان هناك رتل من النقالات التي تنتظر أن يتم تحميلها إلى الطائرة، وقد اكتست وجوه حامليها بطبقة من الغبار. ركضت وأنا أسعل عبر طبقات الرمال التي تثيرها شفرات المروحية. وأثناء تجاوزي للرجال الذين يحملون القتلى والجرحى، وقد ذكرني هذا المشهد بالجان الذين يخدمون ملاك الموت. وفي الوقت الذي خرجت فيه من دائرة منطقة الهبوط، كانوا قد انتهوا من تحميل النقالات.

انتظرت أن يلحظ أحد ما وصولي، إلاّ أن الغبار الذي أثارته الطوافة جعلني غير مرئي أيضاً. شعرت بالبرد القارس يهاجمني من الجهات جميعها. كل ما حولي من مناظر طبيعية كان بلون رصاصي غامق. ولفت نظري أشكال تشبه خلية النحل غير واضحة المعالم داخل محيط الأسلاك الشائكة - بدت لي أكثر شبهاً بالمقابر منها بمساكن الأحياء. كانت التجارب التي خضتها مع قوات التحالف حتى الآن تقتصر على نقطة صغيرة في إقليم باكتيكا والقاعدة الضخمة في باغرام - يمكنني التكهن الآن من أن الأمور ستكون مختلفة جداً هنا في قاعدة تارسندان، كما يسميها الأميركيون في مصطلحاتهم.

أقلعت المروحية في تلك اللحظة، لحقت بها موجة من الغبار تطاردها إلى السماء. حامت في الجو للحظات تبينتُ فيها، بين طيات الظلام الحالك، نوراً شاحباً انبثق في الأفق معلناً بزوغ الفجر.

انفصلت طائرتا الأباتشي المرافقتان، اللتان كانتا تدوران في الأعلى، عن بعضهما، لتفسحا مكاناً للآلة الأكبر، ومعاً اخترقت الطائرات الثلاث السحاب. استطعت رؤية أنوارها تلمع من خلال الضباب للحظة، ثم ما لبثت أن اختفت مخلفة وراءها هديراً يشير إلى وجودها، وقد أخذ هذا الهدير يتضاءل باضطراد.

داهمتني حمى الترقب: برودة رطبة غلفت يدي العاريتين وأنا أغلق سحّاب سترتي. نسيجها المبلل أعاد إليّ ذكرى تقيُّئي مرتين أثناء الرحلة. فوضعت حقيبتي على الأرض وخلعت سترتي التي تنبعث منها رائحة غير سارة، ثم عدت لأقف هناك وأسناني تصطك في الظلام.

عاد الرجال واحداً تلو الآخر من منطقة هبوط المروحيات. لا أحد فيهم يتكلم: كان الصوت الوحيد الصادر عنهم هو صوت أحذيتهم فوق الحصى. كان الهواء ما يزال كثيفاً ومحملاً بالغبار الذي أثارته شفرات المروحية، مما جعل معظم الرجال يخفضون رؤوسهم إلى الأسفل ويرفعون ياقاتهم. قليلون جداً هم الذين نظروا إلي، وأقل منهم من أدرك وجودي أصلاً. أحدهم صفق بيديه بشكل إيقاعي أثناء سيره ملتمساً شيئاً من الدفء. وسرعان ما بت أنا الشخص الوحيد المتبقي في تلك الأرض المهجورة. الأمر الذي جعلني أسحب قطعة الورق المجعدة من جيبي لأتأكد منها من تاريخ وصولي ومكانه، بالرغم من يقيني أنه لا حاجة بـي إلى ذلك. وفي اللحظة التي بدأ الشك

يخامرني فيها عما إذا كنت قد أصبحت غير مرئي حقاً، توقف جندي أمامي وسألني مستفسراً إن كنت أنا المترجم الجديد. لم أستطع أن أرى وجهه لأنه كان قد أخفاه خلف وشاح، ولكنني ابتسمت على أي حال ومددت يدي.

"مرحباً. نعم، اسمي مسعود".

فرد: "من هنا"، ثم سار أمامي غير عابئ بيدي الممدودة للسلام.

على الرغم من أنني وجدت فظاظته غير مفهومة، فقد حملت حقيبتي على ظهري ولحقت به. اقتربنا من الأسلاك الشائكة، فظهر وراءها جدار هيسكو ومواقع إطلاق النار، وقد اصطفت أمامها أكياس الرمل.

أثناء مرورنا عبر نقطة مراقبة الدخول، ميّزت ظلال رجال الحراسة، لكن كل شيء بقي غامضاً في الضوء الشحيح. داخل القاعدة، رفرف طائر ليلي فوق رؤوسنا، ثم أضاءت أمامي شعلة عود ثقاب أشعل بها مرافقي سيجارة حملها بين أصبعين ثم التفت ليتأكد من أنني خلفه وفمه ينفث دخاناً رمادي اللون. ولفتت نظري كلمة (الرب) وقد كتبت بالحبر على وشاح ربطة حول خوذته.

وعندما تقدّمنا في القاعدة أكثر، بدا وكأن ضباباً كثيفاً يصعد من الأرض. كان الهواء بارداً، ولكن رطباً أيضاً، والغيوم التي تحجب السماء ظهرت سوداء ومنخفضة على غير عادتها. انتظرت من مرافقي أن يقول شيئاً، كأن يشير إلى المعالم ويشرح لي عن الاتجاهات، ولكنه ظل صامتاً. وأنا بدوري لم أتمكن من تشكيل تصور خاص بـي عن القاعدة بالنظر إلى حالة الضباب، سوى أنها بدت لي خالية من الحياة ومهجورة كلياً. ثم ذكرت نفسي بما مضى فيها من ساعات قاسية نجا فيها الرجال من معركة كانت، بكل الروايات التي سمعتها في قندهار، رهيبةً حقاً.

ثم مررت بما أتوقع أنه المطبخ العسكري، مستنتجاً ذلك من الدخان الحلزوني الرقيق الذي ارتفع في الهواء. انعطفنا بعدها بصورة حادة إلى ممر ضيق بين مبنيين مصنوعين من الخشب الرقائقي، ودخل مرافقي من خلال باب انفرج مفتوحاً في الضباب. أضاء نوراً خافتاً، ودخلت بعده، فخدشت أنفي رائحة الهواء الفاسد، والأقدام العفنة والغبار. قطّبت حاجبيّ، وأنا أضغط نفسي لأمرّ ما بين صفين من الأسرة الطابقية. وأمامي وقف دليلي يراقب ما حوله للحظة قبل أن ينقضَّ على علبة معدنية صغيرة، وجّهها إلى الهواء. وبينما كنت أنظر متعجباً من فعلته تلك، ضغط على رأسها مرسلاً تياراً مستمراً من الضباب الأبيض الذي غلف المكان على الفور برائحة كيميائية لاذعة تذكر بعض الشيء بالزهور المجففة، فبدا أنه رضي بالنتيجة التي وصل إليها، عندها وضع العلبة على الطاولة. ثم خلع سترته، وخوذته، ووشاحه، ولفتني كم كان نحيلاً - بمثل نحولي تقريباً - إنما ذا كتفين عريضتين تدلى منهما ذراعاه كالجناحين. كان وجهه شديد الشحوب إلى الحدّ الذي أتاح لي رؤية الأوردة الزرقاء المخضرّة التي تجري في جبهته. عيناه فيروزيتان، فمه قرمزي اللون، وشعره الذي حُلق قصيراً أشقر حريري. في الواقع لقد كان مرافقي جميلاً للغاية.

لا بد من أنني كنت أحملق إليه من غير قصد، لقد غدا وجهه أشدّ شحوباً من قبل - في حال كان ذلك ممكناً - وأشاح جانباً وسمعته يقول بصوت مكتوم إن هذا هو المكان الذي سأقيم فيه. أشار، وهو لا يزال مشيحاً بوجهه عني، إلى سريرٍ فارغٍ موضّحاً أن بقية الأسرة خالية لأن من يشغلونها عادةً هم الآن في مناوبة للحراسة. أضاف أنني ولا بدّ متعبٌ بعد رحلتي، واقترح أن أستريح إلى حين يتم استدعائي من قبل قائد القاعدة. ويبدو أنه لم يتوقع مني أن أطرح أي سؤال، لأنه عاد فارتدى سترته وخوذته ثانية، ولف وجهه بالوشاح، ثم دفعني بكتفه ماراً بجانبي ثم خرج. تساءلت في سري عما إذا كان يعتزم البقاء لفترة أطول ولكنه غير رأيه لسبب ما. كما فاجأني أيضاً أنه لم يشعر بالحاجة إلى تقديم نفسه إلي كما تقتضي الشكليات وآداب المجاملة. لعله ببساطة شخص خجول؟ أياً كان الأمر فقد شعرت بخيبة أمل. وعاهدت نفسي، على أن أحاول التحدث معه مرة أخرى.

راقبت الباب وهو يغلق خلفه ثم وضعت حقيبتي على السرير. الضبابُ الذي بثه معطرُ الجو الصناعي جعل الهواء أكثر صعوبةً في التنفس، حاولت مقاومة المزيج اللعين من رائحة المواد الكيميائية المختلطة بروائح الجسم وغيرها. واعتزمت عدم الوقوف كثيراً عند هذا الموضوع والتعامل معه من خلال ربط وشاح فضفاض حول وجهي. أخرجت خريطة القاعدة التي أُعطيت لي، وتجهزت لدراستها من أجل تحديد مكان وجودي. ولكني عندما جلست على السرير، شعرت بالنعاس فوراً يثقل جفوني. وعلى الرغم من أنني لم أكن مرتاحاً لفكرة النوم بعد لحظات من وصولي، إلا أن التعب تغلب علي، فوضعت الخريطة جانباً وتمددت. استلقيت هناك للحظات، مستمعاً فقط إلى صوت أنفاسي المجهدة وأنا أتنفس من خلال الوشاح، قبل أن يقع بصري على صور نساء شبه عاريات أُلصقت في سقف السرير. كن يبتسمن لي بألفة حميمية مما وضعني في حالة غريبة شبيهة الحلم... استسلمت إليها تدريجاً.

استيقظت على شيء دافئ ذي فراء يلتف حول قدمي. أعادني للحظة إلى ذكريات الطفولة في النوم تحت بطانية من جلد الغنم في فصل الشتاء. لكن هذه البطانية التي حول قدمي بالذات تعطي أنيناً منخفض النغم عند تحريك قدمي، فهببت جالساً في السرير، مطلقاً صيحة فزع وساحباً ركبتي إلى جذعي. هناك حيوان بحجم دب صغير على سريري، يتمدد ويتثاءب وهو يحدق بي. من السرير المقابل، مد جندي قد أوقظه الضجيج، يده نحوي بنعاس وقال: "أنا علي زاده، هل أنت بخير؟".

صحت: "هناك كلب في سريري".

أومأ بأدب، وهو لا يزال نصف نائم: "أجل، هذا شورتي، إنه المكان الذي ينام فيه".

فقلت محتجاً: "ولكن هذا سريري!".

لم يبدُ عليه أي قدر من الاكتراث. بدلاً من ذلك، لوّح بيده وهو يقول: "استرخِ يا صاح. سريرك كان لواحد من فرقتنا وقد أصيب في هجوم الأمس. وقد غادر في الطائرة التي أحضرتك

إلى هنا. هذا كلبه، أعطه تربيتةً حانية. إنه ودود جداً".

رفضت قائلاً: "أنا آسف، لكن الكلب لا يمكنه البقاء هنا".

تكلّف ضحكة قصيرة وهو يجيب: "أياً كان يا صديق"، ثم نادى الحيوان الذي لا يتزحزح: "تعال هنا يا شورتي، كل شيء على ما يرام". بدا صوته غاية في اللطف والهدوء إلى حد أصابني بالدهشة. وأخيراً، نهض من مرقده وحمل الكلب إلى سريره. ثم استلقى موليا إياي ظهره ولفه بذراعيه. لمحت طرف ذيل يهتز مضطرباً، ثم قال شريكي في مهجع النوم: "نراك في وقت لاحق"، وغرق سريعاً في النوم. تأملته للحظة حائراً، ثم، ولعدم وجود بديل أفضل، آثرت أن أحذو حذوه وأغمضت عينيّ.

عندما فتحتهما مجددًا، كان هناك ضوء فضي خافت يخترق فتحة في الباب. ألقيت نظرة على ساعتي فألفيتها الثامنة صباحاً. وبما أن أحداً لم يأت لطلبي قررت أن أكون فعالا وأبحث عن القائد بنفسي. لدي انطباع بأنني أعيش فصلاً جديداً في حياتي وأريد أن أبدأه بالشكل الصحيح. أخرجت موسى الحلاقة والمرآة وتلفت باحثاً عن بعض الماء. وجدت قارورة ماء بلاستيكية على طاولة صغيرة، فسكبت بعضاً من مائها في كوب الحلاقة. ولم أرغب بتشغيل الضوء خشية إيقاظ علي زاده، لذلك قمت بتثبيت المرآة بجوار الباب. وفي تلك اللحظة تماماً، دفع الباب ليدخل منه جنديان، كدنا نتصادم تقريبًا لولا أنني تمكنت وأنا أحمل الكوب من التراجع في اللحظة المناسبة والكوب في يدي.

أثناء مرورهما بجانبي قرأت اسميهما على صدريهما: دوغال وليي. بدا الإرهاق جلياً عليهما وقد غطى الرمل والغبار وجهيهما. جلس ليي على ركبتيه وبدأ بملاعبة الكلب الذي قفز بدوره مقبلاً عليه من سرير علي زاده، في حين خلع دوغال خوذته وحذاءه ووضعها على السرير العلوي فوق سريري. وبابتسامة تنطق بالتعب قال: "لا تؤاخذْنا، فنحن لم نذق طعم النوم منذ اندلاع الاشتباك".

ثم توجه إلى سريره، وكذلك فعل ليي، وحجب كلاهما سريريهما عن الرؤية بالبطانيات. تمطى الكلب وتمدد في الممر فلم يترك لي سوى خيار المرور فوقه لأصل إلى أدوات حلاقتي مرة أخرى. بوجود أربعة رجال وكلب، ازدحم المكان إلى حدٍّ شعرت معه برهاب الأماكن المغلقة، ثم ازددت فزعاً عندما فُتح الباب مرة أخرى ليطل منه جندي آخر. إلاّ أن هذا الأخير كان رقيباً تبين أنه قد جاء لاستدعائي بعد طول انتظار.

"مسعود؟".

بوجهي الذي رطبت نصفه، ووقفتي الخرقاء وقد فتحت ساقيّ على جانبي الكلب بغية المرور فوقه، أجبته: "كنت على وشك الحلاقة"، كما لو أن ذلك لم يكن واضحاً.

قال لي: "لا عليك، إن القائد لن يلاحظ ذلك، ثق بـي. لديه أشياء أكثر أهمية ليفكّر فيها".

وضعت أدوات الحلاقة من يدي على مضض، ومسحت وجهي بمنشفة، وقمت بقلب سترتي الملطخة بالقيء قبل أن أرتديها وأخرج.

شعرت بالذنب لأنني لم أتل أذكاري الصباحية. وبينما أنا أستعد للمغادرة، قفز الكلب مستقراً على سريري. فعلق الرقيب: "أرى أن شورتي قد استلطفك".

لم أحر جواباً واكتفيت بابتسامة صغيرة شجاعة بدلاً من ذلك.

نطحني الكلب بخطمه مداعباً ونحن في طريقنا للخروج.

مد الرقيب يده لي مصافحاً وقال: "بالمناسبة، أنا فلينت".

كانت السماء ملبدة بالغيوم في الخارج. أخذ الجو يزداد دفئاً، ولكن شيئاً من الضباب لم يبارح المكان بعد، لعل السبب كان أن الجبال قريبة جداً.

يبدو أن الرقيب قد قرأ أفكاري إذ علق بقوله: "لدينا طقس غريب هنا، لكننا اعتدنا عليه. فهو ينتقل من البرد القارس في الصباح إلى 46 درجة مئوية في الظهيرة".

علقت بقولي: "لقد سمعت عن السموم التي مرت بكم، من المؤكد أنها جعلت القتال صعباً، أليس كذلك؟".

التفت نحوي متسائلاً: "السموم؟ ما هي هذه؟".

أجبته: "هكذا نسمي الرياح الحارقة المصاحبة لعاصفة رملية".

فما كان منه إلا أن أخرج دفتراً من جيبه وكتب الكلمة، لكني انتبهت إلى أنه قد تجنب الإجابة عن سؤالي.

قال عندما انتهى من الكتابة: "كلامك مضحك".

ترددت، غير واثق من كيفية الرد. إلا أنني لم أعتقد بأني قلت أي شيء مضحك على وجه الخصوص، وأخبرته بذلك.

فقال: "لا، لا، قصدت أن لديك لكنة مضحكة. من أين حصلت عليها؟".

أجبت: "أستاذ المحادثة الذي تتلمذت على يده في كابول كان بريطانياً". ثم شعرت بالقلق فجأة، فأضفت: "آمل ألاّ يؤثر ذلك على مكانتي عند القائد...".

"لا تقلق يا صغير"، قالها مع ابتسامة، "فأنت تتقن التحدث بلغة أفضل من طريقة تحدث غالبية الناس الذين حولنا".

مر جندي بجوارنا، وبعد أن تجاوزنا التفت ثانية ونظر إليّ متسائلاً، ثم خاطب الرقيب مع ابتسامة مكشرة: "من هذا أيها الرقيب؟ المتأنق يمشي مثل سيدة! هووو.. هووو...".

أجابه الرقيب محتداً: "هذا يكفي يا راميريز، كفّ عن هذا".

وصلنا مركز القيادة في اللحظة التي خرج فيها الجندي المسؤول عن تشغيل المذياع مع جهاز الاستقبال وقد رفعه عالياً في الهواء. نظر إلينا وقال: "لا أستطيع التواصل مع القاعدة الرئيسة". هدر تلك الكلمات مسرعاً وهو يرفع هوائي المذياع إلى أقصى حد ممكن. حمل صوته نبرة ملحة بدا معها أن مرافقي قد فهمها واستجاب لها، فطلب إليّ أن أنتظر خارجاً قبل أن يندفع إلى داخل الكوخ. تمشيت خطوات في المكان لبضع دقائق بصبر نافد قبل أن أقرر تجاهل تعليماته واللحاق به إلى الداخل.

كان الكوخ مكتظاً. احتاجت عيناي للحظة للتكيف مع عتمته، قبل أن أتمكن من تمييز وجود ضباط ورجال يصطفون أمام الجدران. لكن بدا على الجميع التشتت، فلم يلحظ أحد دخولي. رأيت ضابطاً يجلس إلى طاولة وقد أطرق برأسه، وانحنى عليه الجندي المسؤول عن تشغيل الراديو هامساً بشيء ما. استنتجت من العلامات الموجودة على صدر الضابط أنه هو القائد الذي من المفترض أن ألتقي به. ولكن من الواضح أن هناك خطباً ما، لأن صمتاً مفاجئاً خيّم على الجميع عندما بدأ في الكلام. قال إن الطائرة المروحية التي تحمل القتلى والجرحى من القاعدة - وهي نفس المروحية التي أقلتني إلى هنا، بعبارة أخرى - قد تحطمت على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من هنا. وعلى الرغم من أنهم ينتظرون أخباراً مؤكدة، إلا أنه لا يعتقد بوجود ناجين إثر تحطّمها.

قابل الجميع هذا الخبر بآهة مكلومة. غطى بعض الرجال وجوههم، فيما تصلّبت ملامح آخرين وكأنها قُدّت من صخر. تبادل القائد كلمات مع اثنين من الرجال، ثم اندفع أحدهما، وكان عملاقاً حقيقياً، خارجاً من الكوخ بوجهٍ يعتصره الألم. في هذه الأثناء، لاحظ الرقيب فلينت وجودي، فأسرع نحوي قائلاً من بين أسنانه: "ما الذي تفعله هنا؟" سألني بهمسة شرسة، "لا يُسمح لك بالدخول إلى مركز القيادة. أظنني أخبرتك أن تنتظر في الخارج. الآن اخرج. لا أريدك في أي مكان ضمن مائة نقرة من مركز القيادة!".

سألته بارتباك: "نقرة يا سيدي؟".

أجاب بنزق: "ألم يعلموك أي شيء في باغرام؟ النقرة تعدل ألف متر. وأنا لا أعني ذلك حرفياً بحق السماء، أو أنك ستتمركز بشكل دائم خارج السلك. كل ما في الأمر أني لا أريدك في مكتب القائد، هذا كل شيء".

قلت: "حسناً يا سيدي، أنا أفهمك الآن. كان خطئي".

قال: "ولا تدعوني "يا سيدي"، حسناً؟ أنا رقيب وأعمل من أجل لقمة العيش".

وعندما أمسك بذراعي، سألته عن لقائي مع القائد، فلم يمهلني مجيباً بأنه سيعيد ترتيب هذا اللقاء في وقت آخر.

تركت محيط الكوخ بعد تأنيبي وقفلت عائداً إلى مسكني، الأمر الذي استغرق مني بعض الوقت للعثور عليه. وعندما فتحت الباب وجدت أن علي زاده والآخرين قد ذهبوا، وكان هناك مكانهم رجل ممدد بالفانيلة على الأرض يبكي وينتحب كالأطفال. أمسكت الباب متردداً، مفكراً فيما إذا كان يتوجب علي أن أغادر، عندها تحول نظره إليّ وانفجر صارخاً في جنون: "أغلق الباب الملعون واخرج من هنا، اللعنة عليك يا رأس الممسحة". أغلقت الباب بسرعة ووقفت في الخارج، وساقاي ترتجفان. مرّ بـي جندي آخر وحدق إلى وجهي بنظرة باردة.

أشعلت سيجارة بأصابع مرتجفة وحاولت أن أستجمع نفسي. سحبت نفساً عميقاً، ومشيت ببطء. وبعد بضع دقائق من التجوال بلا هدف، وجدت نفسي أمام جدار الهيسكو الذي يمثل محيط القاعدة. مشيت بمحاذاة الجدار حتى وصلت إلى نقطة مراقبة الدخول التي يديرها رجلان ويشرف عليها ملازم أول كنت قد لمحته في كوخ الاتصالات. ألقى عليّ نظرة تساؤل بينما كنت أجرّ قدميّ على الأرض، ابتسمت له بتردد فأومأ وأقبل نحوي.

عرفته بنفسي: "أنا مسعود، المترجم الجديد".

قال بنبرة جافة وهو يهزّ يدي بسرعة: "أنا إليسون، من الفصيلة الثانية".

علّقت: "أنا آسف للحادث، لقد جئت بتلك المروحية".

قال: "نعم، أعرف، لقد كنت محظوظاً".

وقف بجانبـي بينما كنت أنظر إلى الحقل وإلى الجثث الممددة هناك. خلف الحقل ترتفع الجبال شامخة فوق كل شيء، بينما حجبت كتلة كثيفة من الغيوم ذات اللون الرمادي أعلى المنحدرات تكاد لا تفسح المجال لأي ضوء أن يتخللها باتجاه السهل أدناه.

قلت: "من الغريب أن طالبان لم تتفقّد قتلاها حتى الآن".

أطلق ضحكة تفتقر إلى روح الدعابة معلقاً: "هذا لأنهم يعرفون أننا مستعدون لمحوهم عن وجه الأرض إذا هم عادوا مرة أخرى".

لاحظ أن سيجارتي قد احترقت إلى آخرها، فأخرج علبة وقدم لي واحدة وتريّث قليلاً كي يشعل سيجارتي أولاً. لقد وجدت الاسترخاء الذي انطوت عليه إيماءاته أمراً مطمئناً للغاية. وللمرة الأولى منذ وصولي إلى هنا، بدأت أشعر بالراحة.

سألني: "من أين أنت إذاً؟".

أجبته: "أنا في الأصل من شاريكار، هي مدينة صغيرة تقع شمال باغرام وجنوب وادي بانجشير، لكنني جبت جميع أنحاء أفغانستان".

قال: "إن لغتك الإنجليزية جيدة جدًا. المترجمون الشفويون القلائل، الذين كانوا هنا من قبلك، بالكاد استطاعوا أن يؤلفوا جملة تامة".

شكرتُ له إطراءه ثم سألته ما إذا كان بإمكاني الخروج وتفقد الجثث.

التفت ناظراً إليّ، فلاحظت أن عينيه زرقاوان إلى حدّ مدهش. سألني: "لِمَ تريد أن تفعل ذلك؟".

قلت: "لأنني أكره طالبان وسيكون من اللطيف رؤية وجوههم الميتة".

حنى رأسه للحظة ثم رمقني بنظرة ذات تعبير محايد وأجاب: لا أستطيع أن أدعك تفعل ذلك، فالمحيط ملغّم ولا أريدك أن تتطاير شذر مذر أثناء حراستي".

"ولكن لا بد أن شخصاً ما قد أخذ الجثث ورتبها في هذا الصف الأنيق؟".

أجاب: "نعم"، دون استفاضة.

فقلت: "كل ما أقترحه - أن أخرج وأنظر إلى الجثث ثم أعود مرة أخرى".

ضحك وقال: "هل تعلم ما هي الأوامر الأمنية الثابتة في المعركة؟ ما آخر قاعدة عسكرية كنتَ فيها؟".

"كنت في باغرام، وقبل ذلك في مركز عسكري في باكتيكا".

"باكتيكا، هاه؟ لقد سمعت أن الوضع جامح هناك".

"الوضع صعب".

حدق إلى صف الجثث بعينين ضيقتين ثم قال بشكل حاسم: "كلا. لا يمكن القيام بذلك، باكو".

"باكو؟".

"انسَ ذلك. كانت مزحة".

حاولت ثانية: "ربما يمكنني التعرف على بعض أفراد طالبان، ألن يكون ذلك مفيدًا؟".

تفحصني بحدة. ثم أرسل نظره إلى الحقل مرة أخرى وسحب نفساً عميقة من سيجارته قبل أن يقول:

"حسناً، ولكن يمكنك فقط فحص صف الجثث المسجاة خارج الأسلاك. أما تلك التي في نهاية الحقل فهي خارج حدود السماح. إنهم قريبون جدًا من السفوح، ونحن لا نريد المزيد من الإصابات في صفوفنا من قبل القناصة الذين قد يتربصون هناك".

شرعت بالذهاب، حين أوقفني بإشارة من يده قائلاً: "سأرسل معك شخصًا للتأكد من أنك لن تبتعد كثيرًا".

أجبته: "لا عليك، أستطيع تدبر أمري بنفسي. إنها بضعة أمتار قليلة، وحسب، على أيّ حال".

زمّ شفتيه، وحدجني بنظرة باردة من عينيه الزرقاوين وهو يقول: "إذا خطوت خطوة واحدة خارج نقطة مراقبة الدخول دون إذن مني، سأطلق النار عليك بنفسي".

حملقت إليه متسائلاً في نفسي عما إذا كان يمزح مرة أخرى.

ابتسم لي، ولكنه بطريقة ما لم يعد هو الضابط ذاته، ذلك الشاب الذي قدم لي سيجارة.

تمتمت محتاراً: "أنت حتماً لا تعني ما تقول".

"أوه، أنا أعنيه. أنا جاد لأبعد الحدود. والآن، انتظر في مكانك ريثما أجد شخصاً يرافقك".

أدار رأسه ماسحاً جدران الهيسكو بنظره، قبل أن يسير بضع خطوات منادياً أحد الرجال. في تلك الأثناء، شعرت بالدم يغلي في رأسي وأنا أستوعب الأبعاد الكاملة لإهانته لي.

هل يعتقد حقاً أنني سأكون غير مسؤول إلى تلك الدرجة؟ للحظة، دار في خلدي احتمال أنني أتناول الموضوع بحساسية زائدة بالأخذ بعين الاعتبار إجراءاتهم الأمنية الشديدة الارتياب، ثم قررت أنني لست كذلك. فهذا الموقف ليس إلا مثالاً آخر على ازدرائهم لي. وليس بمقدوري أن أخمن ما إذا كان هذا موقفاً يتشاطرونه تجاه جميع مواطني بلدي، ولكن بما أنني لم أقابل أياً منهم منذ وصولي إلى هنا، فلا يمكنني أن أحكم بإنصاف.

أدركت أنه لم يكن أمامي من خيار سوى الانتظار حتى يعود الضابط. فوقفت وأنا أتميز غيظاً في الظل محدقاً في الحقل. سرعان ما سمعت خطى ورائي، واستدرت مظلّلاً عينيّ من الشمس بيدي.

إنه الجندي الذي رافقني من منطقة الهبوط الليلة الماضية. وقف هناك محتضناً بندقية نحيلة ذات ماسورة طويلة، ومعدن أسود لامع.

قرأت اسمه على طية صدر السترة. إنه: سيمونيس.

عاد الملازم، وقال مشيراً إلى الدليل: "سيأخذك إلى الجثث".

وتوجه إلى سيمونيس بقوله: "راقب المنحدرات".

سرت في أثر سيمونيس ونحن ننحرف بعيداً عن الأسلاك الشائكة سالكين مساراً متعرجاً أدى مباشرة إلى قتلى حركة طالبان. وفي الوقت الذي استغرقناه للوصول إليهم، خلصت إلى أني نادراً ما شعرت بغربةٍ كالتي شعرت بها منذ وصولي إلى هذا المكان.

انتفض سرب من الغربان محلقاً في الهواء لدى اقترابنا، في حين طنت سحابة من الذباب محتجةً بقوةٍ على تدخلنا. أخذت وقتي وأنا أمشي حول الجثث. كانت الأرض غارقة تحتها ببقع داكنة رطبة. إنها المرة الأولى التي أرى فيها العدو بهذا القرب، وقد شعرت بأنها مقاومة لتغيرات المناخ حولها على نحو يدعو للفضول. كنت على استعداد لأن أكرههم لكنهم بدوا عاديين بشكل مخيب للآمال، ولا شيء فيهم على غرار ما كنت أتخيله. كانت الجثث مشوهة بشكل فظيع، وبعضها بالكاد يمكن التعرف عليه كبقايا بشرية. الجثة الأقرب إليّ كان رأسها معلقاً إلى جذعها بجزء غضروفي صغير.

في مكان قريب مُدد صبيّان كانا بوضع أفضل قليلاً ويكادان يكونان في مثل عمري تقريباً. حتى أن أحدهما كان يرتدي سترة خضراء مطرزة تشبه إحدى ستراتي. معظمهم من المزارعين: أستطيع معرفة ذلك من الجلد المتصلب على أيديهم. والفرق الوحيد الملموس بيننا هو أنهم جميعاً يملكون لحى كاملة وذات صبغة حمراء، بينما لدي وبر كأنه نتأ البارحة في وجهي.

ثم رحت أذكّر نفسي بأن الأميركيين أتوا هنا للمساعدة، وأن رجالاً مثل هؤلاء البائسين الممددين هنا الآن هم من ذبحوا عائلتي. لقد قتلوا أبـي وأمي وأخويّ الاثنين الأكبر سناً وأختي وزوجها وأخَويْ أبـي الاثنين وأسرهما وكلاً من جدي وجدتي لأبـي. لقد تسللوا في إحدى أيام الجمعة بعد الظهر وحاصروا منزلنا، الذي كان متطرفاً عن المدينة. كان والدي وأشقاؤه يمتلكون أقدم متجر لبيع الملابس في سوق الشاريكار، وكان جدي يقول إنه يعود إلى عهد الإمبراطور المغولي أورنجزيب، وهو آخر أولئك الذين حاولوا إخضاع الباشتون المتوحشين وأخفقوا.

أما أمي فكانت امرأة متعلمة جميلة تدير مدرسة ابتدائية للبنات، تحت رعاية منظمة نسائية علمانية. لم يكن والدي مثقفاً ولا وسيماً، لكنه كان رجلاً طيباً وكان فخوراً بوالدتي ويدعم مشاريعها. في وقت لاحق، علمت أن مدرسة أمي هي التي أثارت حفيظة الطالبان، فقد وجهوا إليها تحذيرين، وعندما تجاهلتهم تصرفوا بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها.

لقد كنت الناجي الوحيد من المجزرة، فقط لأنني كنت أتصيد سمك المنوة في بركة مجاورة. كان أول إخطار لي بما حدث هو الدخان الأسود المتصاعد من المنزل المحترق. لا أذكر شيئاً مما أعقب ذلك، سوى أنني ظهرت بعد الحادثة بيومين في مزرعة جدتي لأمي مغطى بالغبار، على بعد خمسين كيلومتراً إلى الشمال. جلست دون أن أتكلم لمدة أيام. كنت في السادسة من عمري. وقد استغرق الأمر مني وقتاً طويلاً بعدها لاستعادة صوتي.

ولهذا السبب كنت أود أن أشعر بالكراهية تجاه هذه الجثث الملقاة عند قدمي، ولكني بدلاً من ذلك أشعر بالفراغ بشكل غريب. جثمت إلى جوارهم متسائلاً عما إذا كان لذلك علاقة بحالتهم. من الواضح أن ثلاثة منهم قد فجرتهم الألغام الأرضية لأنه لم يبق من سيقانهم شيء سوى مزَقٍ من العظام واللحم. وتلقى اثنان آخران طلقات مباشرة في الرأس فأصبح وجهاهما خليطاً دامياً، اضطررت معه لإمالة رأسي لتجميع ملامحهما. فقط أحد الأولاد الذي كان في مثل سني بدا وكأنه لم يصب بأذى وأنه نائم؛ لكن رأس جاره كان محطماً، بالرغم من أن يده اليمنى تستند إلى الأرض كما لو أنه على وشك النهوض. الأكثر من ذلك، أنهم جميعاً قد بدأت تظهر عليهم التأثيرات اللاحقة لرياح السموم، فقد تحولت أطراف أنوفهم وآذانهم إلى اللون الأسود، في حين أن بشرتهم بدت جافة وورقية. لكن جفاف الأجسام حال دون انبعاث الروائح منها، حتى الآن على الأقل.

قطع عواء حزين سلسلة أفكاري. إنه شورتي، كلب المجموعة. عجبت لرؤيته في أقصى نهاية الحقل، قريباً من المنحدرات. مع كل الهرج الذي أثير حوله، كنت أتوقع أن يحرصوا على إبقائه في حدود القاعدة. ولكن من يدري، ربما يسمحون له بالجري هنا وهناك، فقد شاهدته يجتاز الجثث الثلاث في نهاية الحقل ثم يصعد ممراً ضيقاً. تابعته بنظري حتى اختفي وراء أكمة من الأشجار.

ظهر ظلٌّ على الأرض أمامي، فرفعت رأسي لأتبيّن من يكون. إنه حارسي يقف بعينين كعيني الصقر ترقب المنحدرات، ويداه تمسكان ببندقيته. سألني: "هل تعرفت إلى أحد؟".

أجبته: "لا، لا أعرف أحداً من هؤلاء، أعني من لا يزال لديهم وجوه منهم".

ألقى نظرة غير مكترثة إلى الأجساد وعلق: "تبدو كلها متماثلة بالنسبة إليّ".

أجبته بانفعال: "لكنهم ليسوا متماثلين، فلكل منهم تاريخ مختلف من الآثام، والنهب والقتل".

قال بشكل غير مبال: "ربما. والآن حان وقت العودة".

قلت بهدوء: "إنه لأمر غريب. كنت أتوقع أن يكون الأمر مختلفاً. لقد قتلت طالبان عائلتي، لذا كنت أسعى للحصول على شيء من الرضا".

كان قد تحرك بالفعل مبتعداً عندما توقف فجأة والتفت محدقاً إلى وجهي ثم قال: "هكذا إذاً"، وقفل عائداً إلى الجثث ووجه مسدسه إليها، ثم استطرد قائلاً: "كنت تريدها دافئة وحيّة حتى تتمكن من سماع صراخ أصحابها".

سألته: "هل مررت بتلك التجربة؟".

قال: "أجل".

"وهل كانت مرضية؟".

"تماماً".

شعرت بضيق في التنفس، فنهضت واقفاً على قدمي، ورحت أسوي قميصي حين قال لي وعيناه تتابعانني: "هل أكلت شيئاً اليوم؟".

أجبته: "في الحقيقة، لا".

"حسناً، هيا بنا نتناول بعض الطعام، إنها نهاية فترتي".

اجتزنا الحقل، ومررنا بجانب الرجال في دورية الحراسة. نظر الملازم أول إليّ بتساؤل قائلاً: "فإذاً؟ هل تعرفت إلى أي منهم؟".

"لا يا سيدي، لم يحصل ذلك".

تحول إلى سيمونيس: "هل رأيت أي حركة على المنحدرات؟".

أجابه الأخير: "كلا سيدي. إنها خامدة مثل مسكة الباب".

صحح له الملازم: "لا بد أنك تعني مسمار الباب..".

هزّ سيمونيس كتفيه بلامبالاة وقال: "أعتقد ذلك".

نظر إليه الملازم بازدراء قبل أن يصرفنا. وعندما أصبحنا على مسافة آمنة من نقطة المراقبة، قال سيمونيس بصوت منخفض: "الحقير اللعين".

التقط أكياس الوجبات الجاهزة من خيمة الطعام، وسألني عن المكان الذي أرغب بتناول الطعام فيه. وعندما شرحت له الوضع في مسكني، قطّب جبينه، واقترح الذهاب إلى كوخه. في طريقنا إلى هناك، أمسك بكيس الوجبة الجاهزة الخاص به، وابتسم ابتسامة ساخرة وهو يسألني: "أتعرف ماذا نسمي هذه الأشياء؟".

حدقت إلى وجهه وأجبت بتردد: "وجبات جاهزة للأكل؟".

"كلا، بل وجبات رفض تناولها الأثيوبيون".

كان كوخه على الطرف المقابل لبرج حراسة، بدا أنه متضرر بشدة. وكان صغيراً جدًا، وعندما دخلنا، عبّرت له عن دهشتي لعثوري على سريرين فقط بداخله.

"أنا قنّاص"، قالها بنبرة حاسمة، وكأن ذلك يفسر كل شيء. ذاك هو سريري، والسرير المقابل كان سرير كونويكي - لقد كان قنّاص الفصيل الثاني - لكنه أصيب البارحة، لذلك أضحى المكان لي إلى أن يأتي بديلٌ منه".

"هذه أخبار سيئة عن صديقك...".

"إنها أمور تحصل هنا"، وهزّ كتفيه قبل أن يضيف: "كان تيد متزوجاً، وقد سئمت الاستماع لتذمره. لقد كان هذره يستمر ويستمر دون انقطاع، وأنا لا أرتاح للثرثارين".

جلسنا متقابلين، وأكلنا وجبتينا في صمت.

عندما انتهيت، سألني إذا كنت أرغب في تناول بعض الشاي.

أجبته: "نعم، من فضلك، وشكراً لك على العرض!".

ارتعش فمه وقال: "لا تتأمل كثيراً فطعمه مثل مياه الغسيل".

"حسناً، ومع ذلك. لا بد أنك تعرف أنه من عادتنا تقديم الشاي للضيف. فهذا جزءٌ من آداب الضيافة الخاصة بنا".

لم يرد، ولكنه وبينما وضع الماء ليغلي على موقد متنقل، بدأ بخلع ملابسه إلى أن لم يبق عليه سوى سرواله القصير. لقد فعل ذلك دون تكلف، ومن دون أن ينظر إليّ، كما لو كنت غير موجود هناك. أما أنا فقد جلست على السرير، وقد جمدتني المفاجأة، أود أن أنظر بعيداً، ولكنني لا أستطيع. شعرت بالخزي إنما أيضاً بالافتتان.

ناولني كوب الشاي، واستقر أمامي على سريره. كنت تقريباً في حالة من الانبهار، لكنها لم تمنعني من أن ألاحظ أنه يملك يدين وقدمين بديعتي التكوين تماماً كالنساء.

رفعت الكوب إلى فمي لأشرب بطريقة خاطئة، أدت إلى إراقة كل ما فيه.

سألني عندما استعدت توازني: "هل من خطب ما؟".

قلت بعصبية: "أنت شبه عار. وهذا أمر لم نعتده في ثقافتنا".

وبكل بساطة ظل جالساً أمامي، يحتسي الشاي، ويحدق إلى وجهي بثبات. أضحى الصمت بيننا غير مريح، وتساءلت في نفسي ما إذا كنت قد أهنته، فرحت أرغي وأزبد قائلاً: "لم أقصد الإساءة إليك. أنا ببساطة غير معتاد على ذلك، هذا كل شيء".

فكان رده: "اهدأ، ليس الأمر مهماً. الجو حار هنا في الداخل".

"يمكنني فتح الباب...".

"كلا. أنا أفضله مغلقاً".

ثم برقة قال لي: "أنت لست سيئاً أيضاً، بيرادار".

"بماذا ناديتني؟".

"بيرادار".

شعرت بفيض من الدفء يسري في عروقي، ضخته دقات قلبي الجذلى. هززت رأسي عدة مرات، وقد أشعرني تشجيعه ودعمه العاطفي بالدوار، إلى حد جعلني أرغب في النهوض إليه واحتضانه.

قلت: "عرفت منذ اللحظة التي وقعت فيها عيني عليك أننا سنكون إخوة. الآن أشعر بالارتياح. أنا أخوك وصديقك، ألست كذلك؟".

قال: "سوف نرى. لمَ العجلة؟".

أجبته بحرارة: "نحن في ريعان الشباب، من المفترض أن نكون في عجلة من أمرنا".

سألني: "كم عمرك؟".

أجبته: "أبلغ الثامنة عشرة من العمر"، ثم صححت: "سأكون في التاسعة عشرة في أقل من شهر، في ثمانية وعشرين يوماً".

قال بتهكم: "أنت مجرد طفل".

سألته: "لماذا؟ وكم عمرك؟".

فكان الجواب: "واحد وعشرون عاماً".

"إذاً أنت يافع أيضاً. سوف تكون صديقي الأول والأقرب هنا. سنتجول في المكان كما يفعل الأصدقاء في أفغانستان: يداً بيد".

"أأنت مجنون؟". قال ضاحكاً.

"لماذا أنا مجنون؟".

"لأننا سنعدم، هذا هو السبب".

"نُعدَم؟".

"أجل. سنتدلى من العوارض الخشبية. دون أي استجواب أو محاكمة".

"لكن لماذا؟ هل يحظر على الأميركيين والأفغان أن يكونوا أصدقاء؟ أنت في بلدي، ولدينا قول مأثور: عندما تكون في بلخ، افعل ما يفعله البلخيون. كانت بلخ أمّ جميع المدن وكان سكانها مشهورين بصداقتهم. وعلى مر السنين، ورثنا أسلوب حياتهم. إنها طبيعتنا".

"هنا ليس بلخ".

"ومع ذلك، إنها البلد ذاتها، أليس كذلك؟".

رد بهدوء: "الأمر ليس كذلك، يا صاح". ثم استطرد بمرارة: "بعض الناس لا يراعون الاختلاف عند الآخرين. إنهم يحبون الأشخاص الذين هم من نوعيتهم فقط".

تلكأت قبل أن أرد محاولاً فك شفرة كلامه. أخيراً، سألته عما إذا لم يكن هو من نوعهم.

قال بحسم: "كلا، لست كذلك".

"وماذا عني؟ هل تراني من نوعك؟".

حكّ صدره وقال: "سوف نرى".

شعرت بالألم من كلامه، ولكني حاولت أن أخفيه. فقلت له: "إذا كنت تشعر بأنك لا تنتمي إلى شعبك فلربما أمكنك أن تستقر في أفغانستان. وأنا سأجد لك امرأة جيدة لتكون زوجةً لك".

"زوجةً؟".

كي تنجبا الأطفال".

ارتعش فمه مرة أخرى ولكنه بقي صامتاً.

حثثته بسؤالي: "هل ستفكر في الأمر؟".

أجاب: "بالتأكيد، سأفكر فيه".

"إذاً وبينما أنت تفكر"، استرسلت قائلاً وأنا ما زلت أشعر بالغبطة: "أود أن أشكركم نيابة عن مواطني بلدي جميعهم، على مجيئكم إلى هنا والقتال من أجلنا. أود أن أخبر جميع الأميركيين - وأبدأ بك - أننا بحاجة إلى أن تبقوا هنا إلى أن يتحقق السلام في بلادنا. لا تتخلوا عنا قبل الأوان. أنت تتحمل مسؤولية شعب بأكمله بين يديك. أنت تمثل الديمقراطية والحرية وسيادة القانون، مهمتك نبيلة حقاً، والخطأ الوحيد الذي قمتم به حتى الآن هو دعمكم للحكومة الحالية الفاسدة والتي تسعى بشكل مطلق لخدمة مصالحها الذاتية. يجب أن تصدقني عندما أقول هذا. عندما كنت في كابول، رأيت بأم عيني كم سرقوا، ومراراً وتكراراً. علاوة على ذلك، فإنهم باشتون وسيتصالحون مع طالبان في اللحظة التي تغادرون فيها، وكلنا نخشى مجرد التفكير بما سيحدث بعد ذلك. لذلك نحتاج إلى دعم شخصٍ آخر، شخصٍ مثل البطل أحمد شاه مسعود، قائد المجاهدين، الذي هو من الطاجيك، مثلي بالمناسبة، والذي قتله العرب، شخصٍ يكون قائداً حقيقياً وليس وغداً"، توقفت متسائلاً: "ألستُ على حق؟".

هزّ كتفيه وقد بدا عليه الضجر، وأجابني وهو يمط الحروف: "لا أدري، يا رجل، أنا لا أهتم بالسياسة".

تراجعت إلى الوراء دهشاً وقد اختلطت الأمور علي وحدقت إلى وجهه، عيناه تنمان عن عدم اكتراث حقيقي. سألته: "إذاً لماذا أنت هنا؟".

قبل أن يتمكن من الإجابة، أشرت إلى وشم 9/11 على ذراعه. "ألهذا السبب؟".

قال بلامبالاة: "هذا؟ كلا لقد حصلت عليه لأن الجميع فعلوا ذلك".

"لماذا؟".

"ربما لأنني أحب أن أكون جندياً. ليس الأمر معقداً".

"أهذا هو؟ لأنك تحب أن تكون جندياً؟".

أضاف وقد ارتسمت على فمه ابتسامة جانبية: "وأن أرى بؤر الجحيم في العالم على نفقة العم سام".

تجاهلت مقولته وقلت: "حسناً، أنت سائح في بلدي؟".

"بالتأكيد، سائح مع بندقية. إنهم يدفعون لي لأطلق النار على المناظر حولي. بووو! وهكذا يتطاير عز مدينة غزنة، أو أي مكان آخر".

"أعتقد أنك تمزح. أنت هنا لحمايتنا من الضرر الذي ألحقته حركة طالبان بأماكن مثل باميان".

ابتسم مرة أخرى وقال: "حسنًا، أنت مصيب في هذا. إذاً ماذا لو أخبرتك أنني صياد لعبة كبير؟ أصيب الناس بدلاً من الحيوانات وأحصل على مكافأتي. إن إطلاق النار على الناس على أي حال أكثر متعة من إصابة بعض التماثيل أو كومة من الطوب".

"إذا كنت تسعى وراء هذا النوع من المكافأة، فإنك ستجني مالاً وفيراً كمقاول خاص. ثق بـي"، أضفت بمرارة، "أنا أعرف في هذه الأمور".

وبدلاً من أن يجيبني، أشعل سيجارة وسحب منها نفساً عميقاً. وعندما زفر، شكل الدخان حلقات حول رأسه، تابعها بعينيه وهو ينفخ المزيد منها.

كان علي أن أنبهه إلى أن التدخين داخل الأكواخ يعد مخالفاً للقوانين. فكان رده:

"أوه حقاً؟" لكنه لم يحرك ساكناً ليطفئها.

قلت: "على الأقل هذه كانت القوانين المتبعة في القواعد العسكرية الأخرى التي كنتُ فيها...".

سألني: "أتريد أن تبقى معي هنا؟".

"أجل، بالطبع، ولكن ماذا لو دخل ضابط فجأة؟".

"اللعنة على ذاك، حسناً؟ إذا دخل شخص ما، فسأتولى أمر العواقب".

أحجمت عن إخباره بأنني سأقع في ورطة أنا أيضاً، ولذت بالصمت. فجأة قال: "أنا من أسبارتا، نيويورك...".

"من مدينة نيويورك؟".

"كلا، أبعد منها نحو الشمال، من بلدة صغيرة في كاتسكيلز. في مكان ذي شارع رئيسي واحد بنهاية مغلقة وأحد عشر منزلاً متداعياً. سكانه فقراء متسخون؛ غارقون في الجهل. هذا هو المكان الذي ترعرعت فيه مع زوج أمي. لقد كان امرأً محطماً، وقد حطمني معه. لذا أنا أكافح الآن لأستعيد ذاتي".

على الرغم من أنني لم أفهم تماماً ما يعنيه، فقد بدا لي أنه ينتظر رد فعل ما مني، فقلت له بعد هنيهة: "فهمت. أنا آسف".

"لا حاجة لتكون آسفاً فأنا أستطيع أن أعتني بنفسي الآن".

رمى لي بقداحته وبعلبة السجائر. ترددت للحظات، ثم أشعلت سيجارة واتكأت على السرير. سألته: "عندما نشأت في أسبارتا، هل خطر في بالك أنك ستكون هنا يوماً ما، في إقليم

قندهار؟".

ارتعش فمه بحركة باتت مألوفة الآن، وقال: "ما رأيك؟".

شعرت بالعاطفة تعقد لساني.

"أعتقد أن اجتماعنا كان مقدّراً. لقد كان مكتوباً".

"أوه حقاً؟" لم يبدُ عليه الاقتناع، وتمدد على سريره. كان يتحرك بتراخ وكسل على نحوٍ ذكرني بحركات الفهد.

واصلت حديثي بهدوء فقلت: "لقد عرفت الفقر، وما زلت فقيراً. لكني أشعر أن قربك أغلى من كل ثروة في العالم".

قال: "لديك موهبة واضحة في الثرثرة".

"أما زلت لا تصدقني؟ إذاً استمع لهذا. عندما رأيتك للمرة الأولى تذكرت تمثالاً حجرياً لمحته في مخيم للاجئين في كويتا. كان تمثالاً قديماً جداً، وجميلاً جداً. وقد تم نحته عندما كان شعبنا كله من أتباع بوذا. وقام أحد السارقين بتهريبه خارج باميان وحاول بيعه".

"حقاً؟ وماعلاقة هذا بـي؟".

"سأخبرك. هل سمعت عن تماثيل بوذا في باميان؟ تلك التي فجرها الطالبان؟ أجل؟ كان لديها بعض الملامح ذاتها التي حملها هذا التمثال، إلا أنها كانت أكبر بكثير بالطبع. حسناً، كنت صبياً في مزار شريف عندما سمعت عن تدميرهم للتماثيل. في ذلك الوقت، كنت أعمل حمّالاً في السوق. لقد كانت حياةً صعبة، لكنني في كل مكان ذهبت إليه كنت أحمل معي الكتاب الوحيد الذي كنت أملكه في ذلك الوقت. لقد كان واحداً من كتب أمي، وقد كان مؤلفاً للشاعر الإنجليزي الشهير، السيد شيلي. وكانت فيه قصيدة ذكرتني بطريقة غريبة بالكارثة التي حلت بباميان. هل سمعت عن أوزيمانداياس ملك الملوك؟".

قال متثائباً: "لا، لا أستطيع القول إنني سمعت به. أوزي الوحيد الذي أعرفه هو أوزي أوزبورن".

توقفت عن الكلام وقد انقطعت سلسلة أفكاري: "أوزي أوزبورن؟".

"أظن أنك لم تشاهد العرض التلفزيوني".

"لا".

فكر، ثم اعتدل في جلسته وتناول علبة بلاستيكية صغيرة بحجم علبة الثقاب.

"هل تعرف ما هذا؟".

"نعم، بالطبع، إنه جهاز آيبود".

"إذاً سأشغّل لك عليه شيئاً".

انتقل إلى السرير الذي كنت عليه وجلس إلى جواري. أزكمت أنفي رائحة ذكورته الغامرة وشعرت بأني على وشك الإغماء. غطت كلاً من يديه طبقة من الذهب الناعم. وتلألأت حبات صغيرة من العرق حول شفتيه. اقترب مني ونقر بشكل متكرر على الآلة، إلى أن قال أخيراً: "خذ، استمع إلى هذا".

وضعت سماعات الرأس ثم رميتها بعيداً عني، قائلاً: "أعتقد أن هناك خطأ ما في جهازك".

ارتسم خط رفيع على جبينه، استمع للحظة ثم قال: "كلا، هذه هي الطريقة التي يفترض أن يكون الصوت عليها. هذا أوزي يغني *حرب الخنازير*. هيا، حاول ثانية".

"لا، شكراً. لقد كان فظيعاً! يبدو لي كالشيطان بحد ذاته".

قال ساخراً: "أحقاً؟ هذه الأغنية تعيد لي دائمًا ذكريات الاستلقاء على شاطئ مشمس وأنا أستمع إلى صوت الأمواج. لن أكتفي أبداً من ذاك الصوت الناعم المثير والكلمات الرومانسية. إنها أغنية رائعة للاسترخاء مع - لا أدري - ربما حبيبك أو عائلتك. لطيفة حقاً وسلسة".

"أنت لست جاداً بالتأكيد؟ بالنسبة لي تبدو وكأنها نوع من الضوضاء الذي يستخدم لاستخراج المعلومات من الإرهابيين. إذا شغّلنا هذه الأغنية هنا، فإنها ستجذب لنا جميع حيوانات ابن آوى من على مسافة أميال".

ضحك برقة، قبل أن يربّت على صدري ثم يقول: "يالك من صغير نحيل، ألست كذلك؟ لن يتطلب الأمر مجهوداً كبيراً لكسرك".

فلفتّ نظره: "أنا تقريبا بطولك نفسه".

"نعم أياً كان. هل تصارع؟".

"أعترف أني لم أصارع أحداً أبداً".

"قد أصطحبك إلى صالة الألعاب الرياضية في وقتٍ ما وأعطيك بعض التمارين لتصبح أكثر صلابة".

قلت محاولاً عدم السماح لصوتي بالارتعاش: "سيكون هذا لطيفاً، وهذا ما يفعله الأصدقاء، فهم يجدون الأشياء التي يمكنهم القيام بها معاً. أعتقد أننا سنكون أصدقاء حقيقيين".

"لقد قلت لي ذلك آنفاً".

"إذاً هل لي أن أخبرك أيضًا أنني غير راضٍ البتة عن المكان الذي وضعوني فيه. فعدد الأشخاص هناك أكثر من اللازم، وهناك كلبٌ أيضا، وهذا كثيرٌ جداً".

مط كلماته وهو يقول: "أنا أيضاً لا أهتم كثيراً بالكلاب".

عاجلته بقولي: "ولكن أنت لديك هذا السرير شاغر هنا. ربما يمكنك السماح لي بالحصول عليه؟".

"أتريد الانتقال إلى هنا؟".

"هذا من شأنه أن يساعدني إلى حد كبير".

مرر إصبعه على طول ذراعي فارتعشت لحركته. ثم قال: "سأفكر في الأمر".

لذت بالصمت مستاءً من افتقاره إلى التعاطف مع حالي. وأمضينا بضع ثوان نتبادل النظرات فيما بيننا، ثم أضفت: "إن ذلك سيساعدك أنت أيضاً على ما أعتقد".

ابتعد عني قليلاً، سائلاً بعينين ضيقتين:

"صحيح؟ وكيف ستساعدني؟".

أجبته: "أعتقد أنك وحيد في أعماق قلبك".

لم ينكر الأمر، وبدلاً من ذلك قال بعد فترة من الصمت: "هل تعتقد أنني أكترث لهذا الأمر؟".

أجفلني جوابه، لكني لم أشأ أن أحمل كلامه على محمل الإساءة.

راح يحدق إليّ دون أي تعبير على وجهه ثم فجأة أنزل يديه كالصاعقة على كتفي بشدة ارتج لها عمودي الفقري. عندما تراجعت إلى الخلف مذعوراً غام وجهه، وحفرت أصابعه في أعماق ذراعي قبل أن يفلتني. ثم نهض وسار متعثّراً إلى سريره، واستلقى عليه مولياً ظهره لي. قال بصوت مكتوم: "أنا متعب. أنت تتكلم كثيراً. ثرثرة، ثرثرة، والمزيد من الثرثرة...".

أدركت أنه يطلب إليّ المغادرة. امتقع وجهي انفعالاً، ونهضت قائماً وأنا أقول له: "لقد تركت جهاز الآي بود الخاص بك".

"دعه على السرير. سوف أحصل عليه لاحقاً".

انتظرت بتردد وأنا أنظر إلى جسمه المتمدد أمامي بوهن، ثم سألته: "هل يمكنني الذهاب الآن؟".

قال بصوت ضعيف: "أجل، وأغلق الباب خلفك".

وطئت خارج الكوخ ثم اتكأت على الباب وشعور بالارتباك والتشوش يعصف بـي، كما لو أنني التقيت لتوي مع أحد الفضائيين. كدت أهم بالذهاب عندما استدرت فجأة ودونما تفكير وفتحت الباب.

التفت إليّ ببطء من على السرير وحدق بـي ثم قال ناهراً إياي: "ما بالك يا هذا؟ هل تقتحم الأماكن دائماً هكذا دون استئذان؟".

تبخر من ذهني ما كنت على وشك أن أقوله وانسحبت دون تردد مغلقاً الباب بعناية، وسرت مبتعداً بخطى متعثرة. كان المساء قد أرخى سدوله لكنني بالكاد لاحظت ذلك، فقد كانت تعصف بـي مشاعر الحيرة والإذلال، وفي الوقت نفسه كان هو كل ما يمكنني التفكير به. مر في خاطري بيت من قصيدة شعر يقول: "صديقي العزيز، هل سافرت الطريق كله عابراً المحيط فقط لتعذبني بجمالك الذي لا يرحم؟" واغرورقت عيناي بالدموع. لقد خيل إليّ أنني وجدت رفيقاً في هذا المكان البائس، لكن آمالي على ما يبدو قد ذهبت أدراج الرياح. أنا عاجز عن تصديق إلى أي حد تتعثر أموري في هذا المكان.

انعطفت عند إحدى الزاويا، مثقل الذهن، ودون أن أبصر أمامي، فإذا بـي أرتطم بالرقيب العملاق الذي رأيته خلال التجمع الصباحي في غرفة القائد.

فهتف بحدة: "احذر أين أنت ذاهب، أيها الجندي"، قبل أن يتراجع ويقيسني بنظراته صعوداً وهبوطاً. ثم قال بلطف: "انتظر لحظة. أنت مترجمنا الجديد، أليس كذلك؟".

"أنا مسعود"، عرفته بنفسي مومئاً إيجاباً ومجبراً نفسي على العودة إلى الحاضر.

قال: "لقد كنت أبحث عنك، هل استلمت اتجاهك؟".

"اتجاهي؟ لا...".

قال بإرهاق: "هذا ليس جيدًا، ليس جيدًا. آسف بشأن ذلك. فقد كان ثمة الكثير من الأحداث مؤخراً". صمت مفكراً ثم قال: "أأخبرك ماذا سنفعل؟ تعال لرؤيتي غداً وسأرشدك لما ينبغي عليك فعله. العاشرة صباحاً حسناً؟ أراك لاحقاً".

استدار ليغادر ثم توقف.

"بالمناسبة، لقد سمعت أنك ألقيت نظرة على قتلى طالبان. ألديك أي استنتاجات بشأنهم؟".

استجمعت أفكاري، شاعراً بضرورة ترك انطباع جيد عند هذا الرجل، ثم قلت بعناية:

"لقد وجدت أنه من غير المعتاد أن يدخلوا في مواجهة مباشرة. هذا ليس أسلوبهم المعتاد، إنهم عادة ما يكونون أكثر خبثاً".

تراجع خطوة إلى الوراء وعاد ليطالعني مجدداً كما لو كان يراني من زاوية أخرى.

ثم قال: "أرى جلياً أننا سنجري محادثة مثيرة للاهتمام غداً. لقد حزت إعجابي منذ الآن. سوف تقدم إضافة جيدة هنا".

صافحني ثم مضى في طريقه.

تردد صدى كلماته في رأسي وأنا عائد إلى مركزي. يا لها من خاتمة خيالية لهذا اليوم على نحو يلائم أحداثه. سرت بمحاذاة جدار الهيسكو وألقيت نظرة على الحقل. كانت الشمس منخفضة في السماء وتضيء الجبال بوهج سماوي أحمر ذهبي. عندما وصلت إلى مسكني، ترددت قبل فتح الباب ثم صررت على أسناني ودخلت. ألفيت الغرفة مزدحمة بالجنود الذين يلعبون الورق. رفع أحدهم رأسه ونظر إلي، فإذا به الرجل الذي صاح في وجهي هذا الصباح. وما يثير العجب، أن الغضب قد اعترى قسمات وجهه مرة أخرى وصرخ: "اللعنة! من أنت يا هذا؟ وماذا تفعل هنا؟".

شخص آخر تولى عني الإجابة وقال: "هدئ أعصابك، يا صاح. إنه المترجم الجديد وسيشغل سرير سبيتي".

"هل تمزح معي؟ من قال لك أنه يمكن أن يحصل عليه؟".

أنزل الجندي المسمى ليي أوراق اللعب الخاصة به وهو يقول بهدوء:

"لم يخبرنا أحد بذلك يا رجل، لم يكن لدينا أي علاقة بهذا. تم تعيينه مكان سبيتي، حسناً؟ إنه يتبع الأوامر فحسب".

"أعتقد أن هذا سخف وجنون!" قال الرجل الآخر وهو يكاد يختنق بالكلمات: "هل فقدوا عقولهم؟".

كنت مندهشاً من غضبه، لقد استطعت أن أرى أوردة رقبته وهي تنتفخ.

وبازدراء لم يتكلف إخفاءه تحول الرجل إلى دوغال وقال: "ربما يتوجب عليك أنت أن تصحبه إلى مكان آخر، أيها المثير، بما أنكما قادمان من المكان نفسه، وإلى ما هنالك".

"اغرب عن وجهي يا غرول"، هدر دوغال: "لقد تجاوزت حدودك كثيراً. لقد وضعوه هنا، لأنه لم يبق شيء قائماً على قدميه في قسم الجيش الوطني الأفغاني، لقد تحطم هذا القسم كلياً".

طرح غرول أوراقه من يده ودفعني جانباً وهو يخرج من الكوخ مرغياً ومزبداً وهو يقول: "سأشوه وجهك إذا رأيتك هنا مرة أخرى".

سادت لحظة صمت محرج، ثم أقبل رجل آخر نحوي وقدم نفسه قائلاً: "مرحبا بك في الكهف، هذا ما نسمي كوخنا به. كيف حالك اليوم؟ أنا المجند المختص غارسيا، ريكاردو غارسيا - بإمكانك أن تدعوني ريك. يوجد سبعة منا هنا، وأعتقد أنك قابلت الجميع باستثناء آش جاكسون، بالرغم من أنني متأكد من أنك ستصادفه قريبًا جداً. أما بالنسبة إلى تشاك غرول، فلا تعتب عليه؛ فقد خسر أفضل صديق له في حادث المروحية، مما جعله يفقد عقله".

"لقد نعتني بذي الرأس الممسحة هذا الصباح"، قلت بصوت خفيض.

أدار كل من دوغال وليي رأسيهما نحوي معاً وحملقا إليّ. مرت لحظة صمت، ثم قال ليي بعدها: "لقد كان يعبث معك وحسب".

"يعبث معي؟".

"هذا يعني أن تشاك كان يمزح معك، فهو لم يكن يعني ما قاله" شرح دوغال.

أجبته: "لقد بدا جاداً بما فيه الكفاية. وها هو قد غادر من هنا كالعاصفة وقد رأيتما بأي حالة من الغضب كان".

"لم يكن غاضباً، حسناً؟ يمكنك الاعتماد على ما نقول، نحن نعرفه جيداً. إنه يتألم يا رجل، كلنا كذلك. لقد مررنا بساعات من الجحيم. لقد كان الوضع صعباً، وإخواننا قد قضوا على إثره".

أردف ليي: "إنه شخص جيد في الأساس، ولديه عائلة، أتفهم ما أعنيه؟".

أضاف دوغال: "لا أظن أنه قد نال قسطاً من النوم منذ البارحة، في الواقع".

سألتهما: "إذاً ما الذي يتوجب عليّ فعله؟".

أجابني دوغال: "فقط تغاضَ عما جرى يا رجل. سيعود تشاكي إلى رشده. امنحه بعض الوقت".

ثم قال ليي باقتضاب: "ولا تحاولن الوشاية به أو بأي واحد منا. إنها ليست عادة جيدة. اتفقنا؟" وحول نظره بعيداً مني باشمئزاز وقال مخاطباً أصحابه: "الرجل الشاذ مثلي الجنس مثله مثل رجل الميلاد، لوطي صاخب لعين".

بدا على دوغال أنه يشاطرني الحيرة إزاء هذا التعليق الغريب، لأنه سأل ليي: "بابا نويل مثليّ الجنس؟".

تجاهل ليي سؤاله وبدل أن يجيبه قال متجهماً: "إذا بدأ مثيرو المتاعب بالتغلغل بيننا، فسأوسعهم ضرباً، أقسم على ذلك".

تدخل غارسيا في الحديث بالرغم من انفجار دوغال بالضحك، فقال: "ومع ذلك أيها الرجال، غرول ليس بالرجل السهل المراس الذي يمكن التماشي معه. حتى وهو في أفضل الأوقات فإنك تجده أقرب إلى الجنون". نظر إلي مبتسماً وهو يقول: "إذا كان الأمر يناسبك، فبإمكاننا تبادل الأسرّة".

وافقت على الفور، وخلال لحظات، وجدت نفسي في السرير الأبعد عن غرول. فكرت بأنني بهذا التبادل قد حصلت على مكافأة إضافية لعدم اضطراري بعد الآن مشاركة مساحة النوم الخاصة بـي مع الكلب الذي لاحظت أنه عاد من رحلته في الجبال. ومع ذلك، شعرت بأنني مستنزف وأنا مستلق في سريري، أعيد في رأسي شريط أحداث اليوم. قطعت أصوات لاعبـي الورق الخافتة مراراً سلسلة أفكاري غير المنتظمة أصلاً، إذ تناهت إلى سمعي أجزاء من أحاديثهم. سمعت غارسيا يتحدث عن الملازم الذي قضى في المروحية المتحطمة وكم سيفتقدون قيادته. قال دوغال أن أحد الرجال الذين قتلوا في الاشتباك كان على وشك أن يصبح أباً. ثم أخبرهم غارسيا أن منزله في فلوريدا قد سحبت منهم ملكيته لأن ستايسي لم تستطع سداد أقساط الرهن العقاري، وهذا حقاً، كما قال، سيئ جداً. ثم سأل ليي عما إذا كانوا يعتقدون أن حركة طالبان ستهاجم مرة أخرى، ولكن بعد ذلك بدأت أحاديثهم تتقاطع وتختلط بعضها مع بعض فتوقفت عن الإصغاء إليهم. وعوضاً عن متابعتهم، عدت بذهني إلى فترة ما بعد الظهر مع سيمونيس ووجدت شأنه يؤرقني مرة أخرى.

"هذا لأنك أخطأت في فهم الموضوع"، قال فجأة وترك يدي. "وهذا حقاً سيئ، سيئ للغاية".

تمتمت وقد أطرقت أرضاً: "لم أكن أعلم". ومضت نيران صفراء صغيرة في زوايا الغرفة، وأنا أحاول أن أتحرك دون أن أصدر صوتاً، ويرهبني الدمار الذي يلف المكان. كنا نمشي بين بقايا مكتبة أمي المحروقة، والتي بالكاد أتذكرها، لكنني أستطيع تمييزها. بقية المنزل كان مظلماً كمنجم الفحم.

التفت نحوي بعينين كئيبتين تشتعلان ألماً وسألني: "هل تفهم؟".

أجبته: "أنا أحاول".

"من الصعب عليّ أن أصوغ الأمر في كلمات".

التقط أحد الكتب المتفحمة وسألني من دمّر المكتبة.

أجبته: "من تظن؟ إنهم الطالبان. هذا ما يفعلونه. يحرقون الكتب ويقتلون النساء".

قال فجأة: "يؤسفني أنك كنت مضطراً للمرور بهذا، أنا حقاً آسف".

"لا أريدك أن تشعر بالأسف تجاهي، ليس هذا ما أريدك أن تشعر به".

قال: "أود أن أعوضك".

حاولت أن أبقي نبرة صوتي بعيدة عن التضرع وأنا أسأله: "حقاً؟ وكيف ذلك؟".

قال: "سوف أريك"، ولوّح بيده. وراقبت وقد غمرتني الدهشة كيف أن الغرفة بكل ما حوته من كتب ورفوف قد أعادت تشكيل نفسها حتى عادت بالضبط كما كانت قبل الكارثة.

التفتّ إليه فاغر الفم: "هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ هل أنت ساحر؟".

قال: "إنني من الجالاندات تحفني البركة، وكذلك هو القائد بالمناسبة".

"القائد؟ أي قائد؟"...

"القائد كونولي، اللعنة الضابط القائد هنا".

أحسست بشخص ما يهزني من كتفي ويهتف: "استيقظ يا مسعود. القائد يريدك الآن". إنه دوغال، يبدو متوتراً: "هيا يا رجل، أسرع".

سألته وأنا أغالب النعاس: "كم الساعة؟" ردّ: "إنها السابعة صباحاً".

"ما المشكلة؟"، سألته وأنا أتعارك مع حذائي.

قال وقد أصبح في الخارج سلفاً: "سأخبرك على الطريق". كان عليّ الركض للّحاق به، وما إن فعلت حتى وصل القائد.

"كيف حال لغتك الباشتونة؟" سألني دون أي مقدمات.

"جيدة جداً"، وقبل أن أكمل قاطعني فقال: "لدينا حالة مهمة هنا، هناك امرأة في الحقل خارجاً...".

"امراة...؟".

"هذا على الأقل ما نعتقده، لكننا لا نستطيع التأكد من ذلك بسبب البرقع. هيا تعال معي..".

لم ينتظرني ولكنه حث الخطى نحو نقطة مراقبة الدخول. قال لي من فوق كتفه: "ما أريدك أن تفعله، هو ترجمة أسئلتي لها. اجعل العبارات بسيطة، وقل لي بالضبط ما تقوله في الرد. أفهمت؟".

قلت على عجل: "أجل سيدي"، بالرغم من أن جزءاً مني تساءل إن كنت أحلم. أكاد أشعر وكأنني لم أعد أعرف من أنا أو أين أكون. ألقيت نظرة إلى السماء، كانت صافية في ضوء الصباح الباكر. حلق فيها سرب من الغربان دون إصدار أي صوت، متجهاً إلى الجبال. كل شيء يبدو غريباً، غريباً جداً. أسرعنا متجاوزين سيمونيس الذي كان يتكئ على كومة من أكياس الرمل مع بندقية القناصة الخاصة به موجهاً إياها إلى الحقل. التمع منظار بندقيته وهو يعدل وقفته وقد انتقل إلى اليمين قليلاً. ألقيت نظرة خاطفة إلى الوراء، في اللحظة التي رفع فيها عينيه، فالتقت نظراتنا. وأدركت لحظتها أنه يصوب نحوي مباشرة الآن. ثم أرشدني القائد وهو يسلمني مكبر الصوت ويشير بيده: "ها هي ذي هناك". رفعت مكبر الصوت إلى فمي باستعداد، فيما تنحنح القائد، وكان على وشك الكلام عندما بزغت الشمس من وراء الجبال، وتدفق نورها مغطياً الحقل، ومعمياً أبصارنا. خطا القائد إلى الوراء وظلل عينيه. وتوهج الحقل باللون الأحمر ثم الأبيض ثم الأحمر مرة أخرى. قال القائد: "لا أستطيع رؤية شيء". فخفضت مكبر الصوت وانتظرت حتى تتضح الرؤية أمامي.

واشتعل الحقل بالنار، ثم بالدم، ثم بالنار مرة أخرى.

الملازم ثاني

واحد

اثنان

ثلاثة

أربعة... رحت أعد الأمتار بصمت بينما كانت العربة المتهالكة تتقدم إنشاً تلو آخر إلى الأمام عابرة الحقل باتجاهنا. بالرغم من أننا ما نزال في الساعات الأولى من النهار، فقد كانت هناك كمية كبيرة من الغبار عالقة في الهواء. بجواري استلقى القناص سيمونيس على بطنه فوق جدار الهيسكو موجّهاً بندقيته إلى الكيان المغطى في العربة. ودون أن أحول رأسي، سألته: "كم نبعد عن المنحدرات، هل بمقدورك تقدير ذلك؟".

قال: "أخمن أنها حوالى تسعمائة متر يا سيدي".

"وكم برأيك يبلغ المدى الأقصى لقناص من طالبان؟".

"باستخدام أفضل ما يتوفر لديهم من البنادق ذات المزلاج المتحرك، أتوقع يا سيدي أن يصل من سبعمائة إلى ثمانمائة متر - وهذا في يوم ذي طقس جيد دون رياح. على أن يستخدم بنادق من نوع لي - إنفيلد أو موسين - ناغانت مزودة بمنظار تيلسكوبي، وهذه الأنواع اللعينة كلها في غاية الدقة".

قلت له: "في هذه الحالة إذاً أريدك أن تركز نظرك عليها. وأريدك أن تطلق عيارات نارية تحذيرية في اللحظة التي توشك أن تقترب فيها من خط المائة متر القريب منا. هذا بعيد بما فيه الكفاية عن المنحدرات بحيث لا يطاله مجال قناصتهم، إنما قريب بما فيه الكفاية بالنسبة لنا لصيدها إذا ما استشعرنا بوجود ما يريب".

وضع زوجاً من قفازات نومكس الخضراء المقاومة للاحتراق، مددت عنقي لأطل من فوق كتفيه وكررت تعليماتي للمجند لاشون وونك غاينز، الذي يعمل كمحدد مواقع له: "هل استوعبت ذلك يا وونك؟".

"أجل سيدي".

أبقى سيمونيس إصبعه بلطف على الزناد منتظراً إشارتي. قبيل لحظات، بعد أن أرسلت المجند رينهولدر لإحضار كونولي، أوعزت إلى فلينت، سكوت، وآشوورث، كقادة سرايا من الفرقة 2، ليؤمنوا المحيط. كما طلبت أيضاً من المجند سيمونيس ضبط نقطة الصفر على الهدف في منطقة القتل. صعد سيمونيس جدار الهيسكو مع بندقيتَي قنص. عيّن الهدف واختار بندقية الصيد ريمنجتون خاصته مفضلاً إياها على M-24.

بعد النظر من خلال منظار بندقيته تحول إلي وقال: إنها تقريباً هناك.

رفعت المنظار على عيني وراقبت العربة تقترب من علامة المائة متر. في برقعها الأزرق الأغبر، بدت من ترتديه كالسراب بالنسبة للأرض الرمادية اللون المحيطة بها.

خاطبت سيمونيس قائلاً: "هل ترى ذاك الحجر الأسود الخشن على يمينها؟ إنه على بعد حوالى عشرة أمتار من العلامة باتجاه الساعة التاسعة".

"نعم سيدي".

"أيمكنك إصابته؟".

"شيء مؤكد".

"إذا افعلها، *الآن*".

وبحركة سلسة، نقل مؤخرة الريمنجتون إلى كتفه وحدد الشبكة في منظار البندقية على هدفه. أضحت البندقية ملقمة وجاهزة للإطلاق، وأخذت فوهة ماسورتها ترتفع وتنزل مع كل نفس يأخذه. وفي نهاية الزفير الثالث، ضغط على الزناد. لم أكن بحاجة إلى استخدام منظاري لأرى الحجر وهو ينفجر.

قال غينز بهدوء معلقاً على دقته: "اللعنة! أنت لا تحتاج إليّ هنا، يا أخي".

فرد سيمونيس: "ليس هناك رياح، الأمر سهل جداً".

أشرت لهما: "لم يوقفها ذلك".

شاهدنا العربة وهي تتمايل متقدمة إلى الأمام على الأرض غير المستوية.

"إذا استمرت بالتحرك، فإنها ستصل إلى منطقة الألغام"، قال غينز متأففاً.

قلت: "وتوفر علينا المتاعب حينها".

قال غينز: "انظرا كيف تزحف، ستضاهي سائقة الفورمولا دانيكا باتريك".

لم نحر جواباً أنا وسيمونيس، فقد كنت منشغلاً جداً بمحاولة إيجاد هدف آخر من أجل سيمونيس، لكن الأرض بدت خالية من نقاط الاستعلام.

اقترح غينز: "ماذا عن ذاك الحجر الأبيض إلى يسارها؟ باتجاه الساعة الثانية".

مسح سيمونيس الحقل: "حوالى خمسة أمتار من العلامة؟".

"لا، أقرب".

"حصاة مستطيلة، مع بقع سوداء؟".

"تلك هي".

حددت الحجر من خلال منظاري: "إنه بالكاد بحجم البازلاء، عليك به يا سيمونيس".

أعاد تلقيم بندقيته وأنفاسه تتتالى، ناظراً من خلال فتحة النطاق ومركزاً نظراته على الهدف. مع إجراء تعديل صغير جداً، انتقل إلى يساره قليلاً وتوقف لحظة قبل الضغط على الزناد. شاهدت من خلال المنظار حين تحولت الحصاة البيضاء إلى نفحة من الغبار.

قلت له: "أصبتها تماماً، عمل جيد".

شاهدنا العربة تترنح للحظة قبل أن تبدأ المضي قدماً إلى الأمام بإصرار مرة أخرى، وقد راحت من ترتدي البرقع تدفع الأرض بيديها لجعلها تتحرك إلى الأمام.

التفت إلى سيمونيس: "ما مسافة إطلاق النار التي كانت لديك؟".

أجاب: "288 من أصل 300، سيدي".

"حسنا، أيها المجند المتخصص. هذه فرصتك لتتوج مهمتك. أريدك أن توجه الهدف تماماً فوق رأسها، ولكن قريباً بما فيه الكفاية بحيث يمكنها أن تشعر بتيار هواء الرصاصة من خلال برقعها".

حذّره غينز: "لا ترديها قتيلة".

كشّر سيمونيس وقال: "ألديك أموال ترغب بفقدانها؟".

"لماذا؟".

"تفرج"، قال سيمونيس.

قام بالتلقيم ثانية واتخذ وضعية مريحة. رفعت المنظار إلى عيني. يبدو أن العربة اصطدمت بعائق في الأرض، لأن العجلات علقت لحظات قبل أن تتحرك مرة أخرى. انتظر سيمونيس لحظة ثم ضغط الزناد.

لم نر للطلقة أثراً، لكن العربة ترنحت لتقف على بعد بوصات من خط الخمسة والسبعين متراً. انتظرناها لتتحرك مرة أخرى، لكنها بقيت ثابتة.

قال سيمونيس وهو يطلق أنفاسه الحبيسة: "هدف".

همس غينز: "هيّا أيتها السيدة، متراً واحداً إضافياً وكنت استحلت لكومة من اللحم الميت...".

كان لا يزال سيمونيس يراقبها من خلال منظاره حين قال: "إنها تلامس شيئاً ما حول عنقها. يبدو وكأنه قلادة".

علقت: "قد تكون قلادة من أجل جلب الحظ السعيد، فهي ستحتاجه".

قال غينز: "إنها تلوح براية بيضاء يا سيدي".

"جيد. يبدو أنها فهمت الرسالة".

قال غينز: "يبدو أنها جاءت مجهّزة بالراية وبكل ما يلزم".

نظر وراء كتفه مواراباً ثم قال: "القائد هنا يا سيدي".

قفزت إلى أسفل من على الهيسكو وسرت إلى كونولي. كان المترجم الجديد برفقته وقد تخلى عن القوانين الخاصة بلباس العاملين لصالح الجيش الأميركي مرتدياً الملابس المحلية من سروال فضفاض، كنزة قطنية، القبعة، والصندل. وتساءلت في نفسي متعجباً عن السبب.

سطعت الشمس على الحقل في تلك اللحظة. ورفع المترجم مكبر الصوت إلى فمه ثم خفضه مرة أخرى، في حين أخذ كونولي خطوة إلى الوراء مظلّلاً عينيه بيده.

نظرت إلى الحقل لكني لم أستطع رؤية شيء، فأشعة الشمس المتدفقة من قمم الجبال لتغمر الكون جعلتني كمن يحدق في ضباب ذهبي.

قال سيمونيس القابع على الهيسكو فوقنا: "إننا في حضرة الملك القرمزي".

لف كونولي عنقه نحوه وقال: "ماذا كان هذا؟".

"أعني الشمس، سيدي..." يوضح سيمونيس.

تحول كونولي إلي وقال: "صباح الخير أيها الملازم، هل تم تأمين المحيط؟".

"نعم سيدي".

أومأ إلى العربة في الحقل: "ما ظنك؟ انتحاري؟".

"كلا، إنها بطيئة جداً يا سيدي. وبارزة جداً للعيان. ووضعها غير عملي بتاتاً. وتقدمها هكذا في وضح النهار، إنها عملياً كمن يصرخ للفت الانتباه".

"حسناً. ماذا يمكن أن تكون غير هذا؟".

"أنا أصوت للتكتيكات التحويلية".

"تعني محاولة إلهاء؟".

"لِمَ لا؟".

قال: "قد تكون على حق. شيء ما يبدو غير طبيعي في هذا الموضوع. كم تبعد المرأة عن السلك؟".

"لقد أوقفناها في خط المتر الخامس والسبعين، سيدي".

حدق إلى عيني وقال: "إنها قريبة جداً. بودي لو كانت المسافة أكبر بيننا وبين تلك العربة. لا تنشغل عن المسألة بشيء أيها الملازم إليسون. يفترض أنك بتّ تعرف آلية التصرف الصحيحة حتى الآن".

احمرَّ وجهي وقلت: "نعم يا سيدي".

ظهر عقرب من شق بين كيسي رمل رافعاً ذيله في وجوهنا. فرفع كونولي حذاءه وضربه بقوة وهو يقول: "أنا أكره هذه الأشياء"، وأوشك أن يعيد الكرة حين انزلق العقرب إلى شق في الأرض، دون أن يصيبه مكروه على ما يبدو.

قال كونولي: "تباً لي!".

فعلق وونك غينز: "إنها مخلوقات صعبة المراس يا سيدي".

"شأنها شأن هذا البلد اللعين"، أضاف كونولي.

أقبل الرقيب والن محيياً: "صباح الخير أيها القائد، صباح الخير ملازم إليسون".

فصافحته قائلاً: "صباح الخير أيها الرقيب أول". لفتتني عيناه المخضبتان بلون الدم. لقد تألم كثيراً لفقدان نيك فروبنيوس.

نظر شزراً إلى ساحة المعركة، ثم قال: "حسناً، هذه هي أسلحة الدمار الشامل التي تشغلنا؟ ما هذا حباً بالله؟".

قلت: "في ظاهر الأمر، تبدو امرأة في عربة تقوم بجولتها الصباحية".

بادره كونولي: "ما الذي تعتقده يا رقيب أول؟ أهو رجل أم امرأة تحت البرقع؟".

تردد والن قبل أن يقول: "لقد باغتّني بسؤالك يا سيدي"، ثم نظر إليّ متسائلاً: "ما رأيك أيها الملازم؟".

فأجبته: "لا أظن أن الأمر يحدث فرقاً سواء كان رجلاً أم امرأة. ما يهم هو أن هذا الشخص يمثل عنصر خطر وقلق بالنسبة إلينا. فإذا كان هناك متمردون على المنحدرات، فيحتمل أنهم يستخدمونها لإلهائنا أو للاستطلاع. ومن المعروف أن حركة الطالبان تستغل النساء والأطفال كعناصر إلهاء أو كدروع بشرية".

قال كونولي: "حسناً، دعونا نكتشف الأمر على الحالتين". ثم توجه إلى المترجم وسأله: "ما اسمك مرة أخرى يا بني؟ فوضع المترجم يده على قلبه قائلاً: "كوماندان صعب، أنا أدعى مسعود".

"مسعود ماذا؟".

"عفواً سيدي؟".

"اسمك الكامل ما هو؟".

"فريد همايون مسعود عطار، سيدي"، قالها مبتسماً، قبل أن يضيف: "عطار، مثل الشاعر الشهير الذي كتب *منطق الطير*".

قال كونولي: "فهمت". وصمت لبرهة وقد بدت عليه الحيرة، قبل أن يقول: "سأناديك بمسعود فقط، إذا كان هذا يناسبك".

"كما يحلو لك، كوماندان صعب".

"حسناً، سلها ما الذي تريده".

خطا مسعود خطوات إلى الأمام بذكاء ورفع مكبر الصوت إلى فمه، فأصدر الأخير خشخشة حين أدار زر تشغيله.

صاح قائلاً: "ستاري مي شي، تسي غواري؟ مرحباً ما الذي تريدينه؟".

ارتد إلينا صوت عالي النبرة واضح كالجرس.

قالت: "سلامات أوزي..."، ولكنني لم أستطع فهم بقية ردها.

ترجم مسعود: "تقول إنها هنا لدفن شقيقها الذي قتل في المعركة يوم أمس. إنها شقيقته واسمها نظام".

قال كونولي: "ما هذا الهراء". وبصق بالقرب من حذائه. "أيرسل الفئران نساءهم لدفن موتاهم؟!".

نظر إليّ وسألني: "هل تستطيع أن تميّز إذا كان هذا الصوت عائداً لرجل أم لامرأة؟".

أجبته: "يبدو أنه صوت أنثى شابة".

"رقيب أول؟".

أجاب والن. "أوافقه الرأي".

خالفنا مسعود الرأي عندما قال بصوت ملؤه الثقة: "بل هو شاب، كوماندان صعب".

تحول نظرنا جميعاً إليه وسأله كونولي: "لماذا تقول ذلك؟".

"اسم نظام هو اسم ذكر، قائد صعب".

مطّ كونولي شفتيه وهو يقول: "حسناً، وهذا يعني أن الرجل في قمة الغباء؟" لكنه بدا عليه عدم الرضى.

قال مسعود باستخفاف: "إنه من الباشتون"، ونقر على رأسه.

سأل دوك تايلور الواقف خلفنا مسعوداً: "ما هي لغتك الأم، مسعود؟".

"إنها داري، سيدي".

"إنها النسخة الأفغانية من اللغة الفارسية، أليس كذلك؟".

"أجل سيدي".

"واسم نظام هو اسم علم مذكر في الفارسية، أليس كذلك؟".

"أجل سيدي؟".

"هل هناك استثناءات لهذه القاعدة على الإطلاق؟".

تردد مسعود قبل أن يجيب: "هذا ما لا أعرفه يا سيدي".

تدخل كونولي مقاطعاً الحديث: "ما هي وجهة نظرك يا دوك؟".

"ببساطة يا سيدي. نظام ليس اسم رجل على الدوام. فالكلمة تعني الانسجام، وتشير إلى ترتيب اللؤلؤ وغيره من الأشياء الثمينة، وهو ما قد يفسر سبب تسمية ابنة الشيخ الفارسي في القرن الثاني عشر التي ألهمت ابن عربـي، الشاعر العربـي الأكثر شهرة، وتسمى نظام. هذا هو التفسير لاسم نظام بشكل أو بآخر".

قال مسعود كاسفاً: "لم أكن أعرف".

صفّر والن بهدوء: "أبتّ تدرس الأدب العربـي الآن يا دوك؟".

"من باب الاطلاع قرأت بعض الكتب خلال الأشهر القليلة الماضية"، قال تايلور مع ابتسامة ملطفة، ثم تقدم إلى الأمام ووقف إلى جانبـي، فقلت له بحدة: "لقد اعتقدت أنك ذهبت لتؤمن التعزيزات في الخيمة الطبية، أيها الرقيب".

أجاب: "رجالي هناك وهم على أهبة الاستعداد. ففكرت أنه من الأفضل أن أعود إلى هنا في حال انفجرت العربة".

علق كونولي متجهماً: "دعونا نأمل ألا تصل الأمور إلى ذاك الحد"، ثم تحول إلى مسعود: "هلا سألتها عن اسم أخيها؟".

ترجم مسعود إجابتها، وإن كان قد أضحى أقل ثقة بنفسه مما كان عليه قبل أن يظهر دوك. فوجئ كل من دوك وكونولي عند سماع إجابتها: قال دوك: "يا للسماء، إنها شقيقته".

سألتُه: "شقيقة من؟".

قال: "الرجل الذي يتحلل في خيمتي".

سأله والن: "زعيم العصابة التي ضربتنا؟".

أومأ كونولي إيجاباً. وعندما تكلم، كان في صوته نبرة حماس جديدة للموضوع، إذ قال: "إذا أتقنا اللعبة، فقد تكون فرصة مذهلة لجمع المعلومات الاستخباراتية. يمكن أن نستنطقها للحصول على معلومات عن أخيها، وعن القبائل، وعن الجبال، وعن كل شيء!".

ثم طلب من مسعود أن يسألها عمن أخبرها بأنها قد تجد أخاها هنا.

نقل مسعود الإجابة: "أولئك الذين نجوا من المعركة".

علّق وونك غاينز متعجباً: "حسناً، بعض الملاعين قد نجوا وفروا بعيدا!".

التفت إليه مطالباً إياه بأن يطبق فمه.

بدا القلق على كونولي فجأة، وثبت منظاره على العربة. وبعد فترة من الصمت قال: "إنني أرتاب في الأمر، ولكنني لا أعرف السبب".

أستوضحته أنا ووالن، فقال ببطء: "لست أدري، ولكن هل من المنطقي، في بلد كهذه، أن تأتي امرأة بمفردها، وفوق هذا هي تدعي أنها شقيقة زعيم القبيلة، على متن عربة تدفعها بيديها لتطالب باستعادة جسده؟ يبدو الأمر خارج السياق الثقافي للمنطقة. ففيها الكثير من حرية الحركة والمشاركة المباشرة للمرأة. إن هذا يستلزم بشكل أو بآخر تعليقاً جامحاً لمبادئهم".

قال وهو لا يزال يحدق من خلال منظاره: "مسعود، اطلب منها أن تصف شقيقها... بالتفصيل".

ففعلت كما طلب منها، من دون تردد، وبإسهاب.

قال دوك: "إنها تعرفه، إنه الرجل المسجى في حقيبة الجثث من تصفه. لقد فحصته، إنها تذكر تفاصيل أساسية من جثته". ثم راح يتفحصها من خلال المنظار وسأل كونولي إن كانت المرأة عينها في صورة المراقبة التي التقطتها الطائرة بدون طيار.

تبادلنا أنا ووالن النظرات. من الواضح أن هناك معلومات لم يتم إطلاعنا عليها. ولسبب ما، استفسار دوك أزعج كونولي فتجاهله وأنزل منظاره طالباً من مسعود إخبارها أنه سيحتفظ بالجثة بهدف التحقق من هوية صاحبها.

"قل لها لن يدفن قبل تحديد هويته".

ترجم مسعود؛ وردّت المرأة قائلة: "أنا أستطيع التعرف إليه".

لدهشتنا رأينا كونولي يدور على عقبيه مستعداً للمغادرة.

قال: "لن أضيع المزيد من وقتي على هذا بعد الآن. لن أتفاوض مع هذا الشخص سواء كان امرأة أم لا. إنها لن تقترب من قاعدتي. مسعود، أخبرها بأننا ننتظر الخبراء ليفحصوه وهذا كل شيء".

"القائد صعب...".

"ماذا *الآن*؟".

"إنها تريد أن تعلم متى سيأتون".

"قل لها - لا أدري - قل لها سيكونون هنا عما قريب".

"إنها تريد أن تعرف متى".

"أوه، حباً بالله! بالكاد حظيت بقسط من النوم في اليومين الماضيين و...".

قال مسعود بسرعة: "يمكنني إخبارها بأن الخبراء سيكونون هنا في غضون يومين".

"حسناً".

تبادلنا أنا ووالن نظرات الاستغراب، كونولي يتصرف على نحو غريب. هل يمكن لنقص النوم أن يؤثر على أحكامه؟

أثناء ذلك، تابع مسعود كلامه مع المرأة، وأصغينا إليهما، إلى أن قال مسعود بعصبية: "القائد صعب، لقد قالت إن أخاها يجب أن يُدفن بشكل لائق. وهي تتمسك بحقها في دفنه".

اكفهر وجه كونولي وخطا بعيداً من المترجم، ثم خفض صوته بحيث لا يسمعه إلا الواقفون منا قربه. وبنظرة ثابتة باتجاه العربة، قال لنا أنا ووالن بإصرار: "سأدع المترجم يخبرها بأن تغرب من هنا، فهو الآن تحت سلطتنا. لقد كان قائداً لطالبان ومتمرداً تسبب بموت خيرة رجالنا الشرفاء الذين كانوا من *رجالي* وتحت *قيادتي*. وأنا من سيكون عليه لقاء ذويهم وإخبارهم بأن أبناءهم وأزواجهم و*إخوانهم* - أخوانهم هم - لن يعودوا إلى بيوتهم بعد كل هذا الانتظار. وأنهم ماتوا تحت بصري، ولم أستطع أن أفعل شيئا لإنقاذهم. لا شيء على الإطلاق. وعليه فإن بإمكانها أن تأخذ حقوقها التي تتشدق بها وترميها في القمامة. وسأطلب من المترجم أن يبلّغها هذا".

وقبل أن أتمكن من الكلام، تدخّل والن بهدوء قائلاً: "أهي حقاً بحاجة لأن تسمع كل هذا، سيدي؟".

فتح كونولي فمه ثم أغلقه. توهّج وجهه بالأحمر، ثم تدلّى كتفاه وقال بتعب: "كلا بالطبع. إنها غير مضطرة لسماع ذلك".

فجأة بدا كونولي أكبر من سنيه السبعة والعشرين بعقود. ثم ما كان منه إلا أن سار إلى مسعود وقال: "أخبرها أننا لم ننته منه بعد".

ردت: "إنه ميت. أي شأن سيكون لكم مع رجل ميت؟".

"أخبرها أن شقيقها كان إرهابياً، ومن حركة طالبان، وأنه رجل سيّء".

"هذا ليس صحيحا! أخي من الباشتون. كان مجاهداً، ومقاتلاً في سبيل الحرية. حارب طالبان، ومات في قتاله مع الغزاة الأميركان. لقد كان رجلاً شجاعاً".

بدا مسعود محرجاً وهو يترجم ما قالته.

"اللعنة، هذا لا يصدق..." قال كونولي بدهشة، ثم ثنى ذراعيه وهز رأسه مضيفاً: "إنها لن تقبل بالرفض. أيها السادة، هل تعتقدون أنها كانت تنفع للعمل لدى الأمم المتحدة؟".

كانت نكتة غير موفقة وابتسمنا جميعاً ابتسامة باهتة.

سأل دوك: "أود أن أعرف السبب في أنها لا تترك العربة. هذا شيء غريب، أليس كذلك؟".

درس الرقيب برادفورد الوضع عبر منظار، ثم أعلن بعد لحظة: إنها تحمل بجعبتها أشياء، كمجرفة، وكيساً من الورق البني، وبطانية مطوية، وشيئاً آخر على ما أعتقد... يبدو وكأنه واحد من تلك الرشاشات من الطراز القديم، ولكن بماسورة مقصّرة، وهو أمر غير منطقي".

علق مسعود: "إنهم يستخدمون جميع أنواع الأسلحة، سيدي. ولدى بعض أفراد الطالبان أسلحة عمرها أكثر من مائة عام".

حوّل كونولي نظره إلى وجهي وقال: "أنت هادئ جداً أيها الملازم".

تنحنحت وقلت: "هذا لأنني لا أعرف ماذا أقول يا سيدي. فمن ناحية، إذا كانت تقول الحقيقة، فستكون أمامنا فرصة ذهبية لاستجوابها، والحصول على قياساتها الحيوية لمطابقتها مع المشتبهين في قواعد بياناتنا، واستخراج جميع أنواع المعلومات التي تهمنا عن شقيقها وقبيلتهم. لكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك ما لم نكن على يقين من أنها ليست انتحارية، ونحن لن نعرف ذلك حتى نذهب إليها، وهو ما يعني تعريض أنفسنا لخط نار واضح من جهة المنحدرات. لذا فإننا واقعون في مصيدة مزدوجة".

ناداني سيمونيس من فوق الجدار: "اعتقدت أننا أثبتنا أنها خارج نطاق قناصهم يا سيدي".

أجبت: "قد يكون لديهم مدافع أبعد مدى، أيها الجندي".

قال والن: "لنطلب منها المغادرة، ونرى ردة فعلها".

ابتسم كونولي بتكلف وهو يقول: "أوه، تقصد مثلاً: شكراً لقدومك، نرجو أن تعودي مرة أخرى؟ بالله عليك، ما هذا الكلام!".

"حسناً يا سيدي، إن كانت حزينة حقاً على فقيدها، فإنها ستبقى في الجوار".

"وإذا كانت انتحارية، فلن تفعل؟".

"ربما ليس ليوم كامل، أو على الأقل ليس عندما تلتهب درجات الحرارة. سيحتاج الأمر لكثير من الالتزام كي يجلس المرء ليشوى تحت الشمس".

وفي هذه الأثناء ما الذي يفترض بنا أن نفعله؟ أنقبع داخل القاعدة اللعينة حتى تحزم أمرها وتقرر ما ستفعل؟".

"وهل لدينا خيار يا سيدي؟ لو كان جنود الجيش الأفغاني ما زالوا بيننا لكنا أرسلناهم للتعامل معها، لكنهم ليسوا هنا، والأمر متروك لنا، أليس كذلك؟ أعني، سيتوجب علينا الارتجال إذ ليست هناك إجراءات عمل موحدة للتعامل مع هذا الوضع".

حدج كونولي والن بنظرات مستطلعة، وبعد هنيهة تحول إلى المترجم قائلاً: "لم لا تخبرها بهذا يا مسعود؟ أخبرها أنها يجب أن تغادر، وأن لا مكان لها في منطقة القتال".

كان ردها طويلاً وعاطفياً وتهدج صوتها في أثنائه.

ران صمت محرج من جانبنا، ثم قال مسعود فجأة: "كوماندان صعب، ربما أستطيع أن أشير إلى هذه المرأة الوقحة أنه ليس لها أي دور لتلعبه في دفن مسلم؟ إن ما تقترحه فيه تدنيس للمقدسات. هذا هو الواقع".

ابتسم كونولي، وأخذت عيناه تتلألآن رضى وهو يرمقنا بنظرته، ثم وضع يده على ذراع المترجم قائلاً بلطف: "أحسنت يا مسعود، افعل ذلك ومن ثم أطفئ مكبر الصوت، لقد انتهينا من الحديث".

وانتقل إليّ موجهاً: "لا تعدُ عيناك عنها أيها الملازم. وراقب المنحدرات جيداً، ولا تتوان عن طلبي إذا لمحت أي علامة للعدو".

"إلى متى نصبر عليها يا سيدي؟".

"أنا أميل إلى ما اقترحه الرقيب أول. دعونا نرَ كم من الوقت ستبقى هاهنا. فإذا كانت هنا صباح الغد، سنعيد النظر في خياراتنا".

ولامس خوذته حين مر بنا منصرفاً: "سأراكم لاحقا أيها السادة".

راقب كل منا المشهد من خلال منظاره حينما أخبرها مسعود رسالته الأخيرة، وقد أصدر مكبر الصوت قرقعة عالية حين أطفأه. فما كان من المرأة إلا أن خفضت رايتها البيضاء. وفي تلك

اللحظة صاح سيمونيس مخاطباً إيانا من مكان تمركزه على جدار الهيسكو: "هناك نسر يحوم فوقها يا سيدي. وما فتئ يخفض ارتفاعه منذ فترة من الزمن راكباً التيارات الهوائية الدافئة".

ظلّلتُ عيني بيدي ورحت أتفحّص الطير، كان ضخماً بالفعل. فقلت لسيمونيس وأنا أهش بعيداً ذبابة عن وجهي: "أبقِ عينك عليه، فإن اقترب كثيراً، اقتله".

وبعد فترة وجيزة، دوت طلقة في الأجواء سقط على إثرها النسر ميتاً طاوياً جناحيه، كصخرة ثقيلة ارتطمت بالأرض. وارتفع عمود من الريش والغبار في الهواء.

عاد كونولي راكضاً: "اللعنة ماذا كان ذاك؟"، فأشار مسعود بصمت إلى الطير.

وضع كونولي نظّارته الشمسية، وأومأ إلى وونك غاينز وإلى أحد الرجال ممن يقومون بالحراسة يدعى ديريك سيرانو، ثم ربّت على كتف مسعود وقال بهمة: "هيا بنا. سنجري حديثاً مطولاً فيه الكثير من الهذر".

فهتفت قبل أن أتمكن من منع نفسي: "لقد ظننت أننا انتهينا من الكلام".

لم يكلف نفسه عناء الرد، إلى أن أضحى في منتصف الطريق باتجاه السلك، عندها نادى فوق كتفه: "لقد غيرت رأيي، أيها الملازم. أمّنْ لنا غطاء الحماية".

تسلقت جدار الهيسكو، وجثمت إلى جانب سيمونيس، وقلت له: "سأكون المراقب الخاص بك. أي حركة خاطئة تصدر عنها اعتبرْها ذريعة كافية لقتلها، دون طرح أي أسئلة. مفهوم؟".

"نعم سيدي".

تسلق والن إلى جانبي ومدد جسده الضخم بجواري. أومأت برأسي باتجاه كونولي وقلت له: "شيء ما في هذا الوضع يفقده أعصابه. هذا النوع من التدخل المباشر يناسب من هو أدنى منه رتبة".

نظر إليّ شزراً، ثم قال بهدوء: "إنه متعطش للدم. بعد الإصابات التي تلقيناها، لقد أضحت المسألة شخصية".

التقط والن بندقية الـ M-24 وأخرجها من حقيبتها سائلاً سيمونيس: "أهذه لكَ، هل لي أن آخذها؟".

أجابه الأخير: "نعم، أيها الرقيب أول".

فقال: "سأستعيرها منك طوال مدة زيارة القائد"، ثم طفق يقدر المدى ويعدّل الشبكة ومنظار الرؤية. ثم عاد فقال لسيمونيس: "ركز عليها، وسأراقب أنا المنحدرات". ثم تمدد بجانبي

وعيناه مثبتتان إلى منظار البندقية.

بالأسفل منا، شرع دوك بتجهيز الإبر والمحاليل الملحية واتخاذ احتياطاته الخاصة لأي ظرف طارئ قد يقع.

أما أنا فقد دعوت إحدى فرق السلاح الخاصة بفصيلي، وطلبت منهم نصب رشاش M-240B. ففي حال اندلاع قتال دونما إنذار، سيكون هو العامل الحاسم لصالحنا.

وفعلاً نصبت الفرقة السلاح، واستقرت منتظرةً نتيجة هجوم كونلي.

سألتُ والن بصوت خفيض: "هل تعتقد أنها تخدعنا؟".

انتقى كلماته بعناية قبل أن يقول: "إن الطالبان هم سادة رسم الاستراتيجيات، كما علمتنا تجاربنا معهم. أراهن بأنهم يقضون وقتهم في مكان ما على تلك المنحدرات. وفي تلك الأثناء، يرسلون هذه المرأة لإبقاء العين علينا. ما إن تغفل أعيننا عن الحراسة فإنهم سيضربون!".

"حسناً، عميلهم الحركي فتاةٌ تتحايل علينا في عربة أطفال؟".

"ممكن. إما ذاك... أو أنها طعم، بالرغم من أن لديّ شكوكاً حيال ذلك. هناك عنصر من الجرأة والإقدام في تصرفها يجعلني أعتقد أنها يمكن أن تكون امرأة ثكلى حقاً".

"لا بد من أنهم، والحال هذه، يعوّلون على كمٍّ هائلٍ من السذاجة من جانبنا. وهم قطعاً لا يفتقرون إلى العقلانية إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟!".

"هل يمكنني أن أشاركك شيئاً من الحكمة أيها الملازم؟".

"بالتأكيد".

"استمع إذاً: قال رجل حكيم ذات مرة أن تسع أعشار التكتيكات تقوم على المنطق، وتدرس في الكتب. ولكن الجزء العاشر غير العقلاني منها هو الذي يعد اختباراً للجنرالات. إنه يعتمد على غريزة نقية، والتي تصبح جزءاً من طبيعة المرء في الأزمة مثلما هي ردة الفعل الانعكاسية".

فكرت متمعناً في كلامه للحظات، ثم أدرت رأسي وابتسمت وأخبرته: "لقد ساعدتني للتو على اتخاذ قراري بشأنها، إنها انتحارية".

"لمَ تقول هذا؟".

"لأنها تمثل حصان طروادة الممتاز في أعقاب معركة نارية تركت كلاً منا غاضباً ومستنفداً. إنهم يدركون أن قواعد الاشتباك لدينا تمنعنا من مهاجمتها. لذا فإنهم يعتمدون علينا في

ارتكاب خطأ حاسم واحد فقط: ألا وهو تصديق قصتها وتركها تقترب منا بما فيه الكفاية. كخطة، إنها رائعة".

أومأ ببطء بالموافقة: "إنها بالتأكيد تملك الدافع المثالي، والانتقام هو أمر طبيعي بالنسبة إلى هؤلاء الناس، إنه كالهواء الذي يتنفسونه. يمكنها أن تكون شقيقة القتيل وانتحارية معاً".

نادانا دوك من الأسفل: "هي مذنبة لمجرد ارتباطها بهم أيها الرقيب أول؟".

بدا والن مستمتعاً قليلاً بتعليق دوك، وأجابه: "ما ينطبق على الجميع ينطبق عليها يا دوك. إنهم مهووسون بالانتقام والتعادل مع خصومهم، وأنتم تعرفون هذا بالقدر الذي يعرفه أي شخص آخر. أعتقد أنني سمعت في إحدى الدورات الإعلامية بأن القبائل الباشتونية تسمي هذا الأمر (بدل)".

علق الرقيب بتراك، الذي اتخذ موضعه الآن إلى جانب والن: "اللعنة على الباشتون. لدينا أساليبنا الخاصة في التعادل معهم. أنا في انتظار إتيانها بحركة واحدة خاطئة من أجل تسوية الأمور. ثم يمكننا الفوز بما هو حق لنا، وسيرقد الملازم فروبنيوس والآخرون بسلام".

"نحن لا ننتقم، أيها الرقيب" احتج دوك.

فرد بتراك: "تحدث عن نفسك يا رقيب".

همّ دوك بالرد، عندما صاح رجل من فريق الأسلحة: "حركة على المنحدرات!".

رفعت منظاري على الفور، وثبت والن نظره في منظار بندقيته.

أمسكت أنفاسي وأنا أقول: "يبدو وكأنه كلب".

رد والن: "اللعنة عليّ يا رجال، إنه شورتي".

سألت: "كيف تسلل بحق السماء خارج القاعدة؟".

رد سيمونيس الذي كان بجانبي متشدقاً: "الكلب يغادر موقعه دون إذن يا سيدي. سيتوجب عليك أن تحاسبه".

قال والن: "لم أكن لأخبر القائد لو كنت مكانك أيها الملازم، سينفجر غضباً".

قال سيمونيس: "بالحديث عن القائد، يبدو أنهم يتبادلون نقاشاً حامي الوطيس".

شاهدت كتفي كونولي العريضتين وهما ترتفعان وتنخفضان وهو يومئ بحماس. كان كل من غاينز وسيرانو قد وجها سلاحيهما إلى المرأة. أما المترجم ما انفك يحوّل وجهه بينها وبين

كونولي وهو يترجم بينهما. شيء ما في الصورة العامة جعلني غير مرتاح للوضع، ولست أدري كنهه. أخيراً، أشار كونولي بكلتا يديه قبل أن يستدير على عقبيه ويقفل عائداً إلينا بخطى عسكرية واسعة أجبرت المترجم على الركض ليتمكن من مواكبته. خلفهما كان كل من غاينز وسيرانو يسيران إلى الوراء وسلاحاهما مصوبان إلى الكائن الذي في العربة. وفي اللحظة التي وصل بها كونولي إلى القاعدة كانت المرأة قد أدارت عربتها وراحت تدفعها بالاتجاه المعاكس.

"أهي مغادرة؟". تساءلت بصوت مرتفع دون توجيه السؤال لأحد محدد.

قفز والن عن جدار الهيسكو إلى الأسفل وأسند بندقيته الـ M-24 إلى كيس من الرمل، ثم مشى إلى كونولي الذي كان ينفض الغبار عن سرواله.

"إنها تسأل إن كان بإمكانها أن تدفن رفاق أخيها"، قال كونولي ساخطاً: "وقد وافقت".

"حسناً، فهي لن تغادر؟" سأله والن.

"كلا".

سأل دوك: "لماذا لا تغادر المرأة العربة يا سيدي، هل بإمكانك أن تخبرنا؟ هل هناك من خطب في ساقيها؟".

أجابه كونولي: "لقد كنا بعيدين جداً. وللصراحة، لم يكن هذا من أولى الأشياء التي شغلت ذهني". ثم نظر إليّ وقال: "أبق عينك عليها أيها الملازم".

بدا رابط الجأش، أو بالأحرى غلب عليه التبرم، ثم غادر مع والن بينما كنت أفحص الطرف البعيد من الحقل حيث وصلت المرأة إلى الجثث في تلك الأثناء. رفعت منظاري وشاهدتها تخرج مجرفة من العربة أخذت تلتمع تحت أشعة الشمس. انحنت على الأرض بحركات خرقاء، ثم بدا أنها تجر نفسها إلى أقرب جثة إليها، ثم استقامت وبدأت بالحفر. شاهدت الغبار يطير في الهواء. وبعد قليل أصبحت محاطة بحجاب كثيف من الغبار.

سمعت واحداً من الرجال يقول: "يا رجل، إنها تحسن استخدام المجرفة".

قال آخر: "إنها قصيرة نوعاً ما،...".

خفّضت منظاري، وشعرت كأنني أختلس النظر. وإلى جانبي، وضع سيمونيس بندقيته من يده وسعل ليلفت انتباهي، ثم سألني: "أيفترض بنا أن نجلس هنا ونراقبها وهي تدفن أولئك الرجال الثلاثة؟". كانت نبرة صوته تشي بعدم التصديق.

أجبته: "هذا صحيح". وقد تملكني شعور بعدم ارتياح لا مبرر له.

ارتعش جانب فمه وهو يقول بنعومة: "يا سلام، أميركا... اللعنة نعم!".

"ماذا كان ذاك، أيها المجند المحترف؟".

نظر إليّ بوجه خال من أي تعبير: "إنها عبارة من فيلم *تيّم أميركا*، سيدي. من معدّي *ساوث بارك*، البرنامج التلفزيوني".

قلت له: "أعرف. أنا أعرف ما هو *ساوث بارك*. لكني فقط لم أدرك الرابط بين ملاحظتك والوضع الراهن".

مرر يده على وجهه، فلم أستطع معرفة ما إذا كان يخفي ابتسامة متكلفة.

أردفت منزعجاً: "لقد سمعت القائد، وقد كانت أوامره واضحة".

"نعم سيدي. سمعتُ القائد. الأوامر هي الأوامر".

بطريقة أو بأخرى، شعرت بالحاجة للقيام إلى مزيد من الإيضاح: "هؤلاء النساء مختلفات جداً عن أولئك اللواتي في الوطن، أيها المجند المحترف. إنهن معتادات على العمل الشاق. وفي الواقع سمعت أنهن يقمن بالأعمال كلها بدل الرجال حتى أنهن على سبيل المثال ينقلن المعدات، فإن لم يتواجدن في المحيط يترك الرجال معداتهم وراءهم".

علق متملقاً: "أولئك الطالبان مختلون يا سيدي".

"لقد أصبت أيها المجند المحترف".

ارتعش فمه مرة أخرى: "أعتقد أننا مختلفون".

أجبته بصوت متوتر: "أجل".

نظرت مجدداً إلى المرأة، ثم التفتُّ إلى سيمونيس وصرفته من مهمته. فتأرجح نازلاً من حائط الهيسكو دون صوت.

"أراك لاحقاً يا دوك"، قالها لتايلور الذي كان مشغولاً بجمع معداته الطبية. انتظرت منه أن يحييني أنا أيضاً، إلا أنه لم ينظر إليّ وهو يضع بندقيتيْ القناصة خاصته على كتفيه، وانطلق بعدها مبتعداً.

ثم غادر تايلور كذلك، وفجأة صرت وحدي على قمة جدران الهيسكو. وأدركت أنني لا أزال أشعر بعدم الرضا، بالرغم من أنني لم أستطع تحديد السبب تماماً. ثم أدركت أن للأمر علاقة

بكونولي، لقد كنت متضايقاً من الطريقة التي ذهب فيها دون أن يمنحني الوقت الكافي لاتخاذ الترتيبات اللازمة لتغطيته. لقد كانت خطوة محفوفة بالمخاطر في وضع غامض، وهذا النوع من التهور هو بالضبط ما نحن في غنى عنه ونحن على شفير معركة نارية شرسة. ثم خلُصت إلى نتيجة وهي أني لعلي كنت متشدداً في تطبيق الأنظمة والقوانين، لكن تصرفه كان غير مسؤول تماماً من جانبه.

"لِمَ أنت منزعج إلى هذا الحد؟ أتاني صوت ضاحك يسألني: "لطالما كان كونولي أشبه بالقذيفة الجاهزة للانطلاق على الدوام، أم أنك لم تكن تعرف ذلك؟ إنه جزء من عملك كقائد فرقة أن تعوض عن إهماله".

رفعت بصري لأجد نيك فروبنيوس يقف أمامي شابكاً ذراعيه. كان النور من ورائه قوياً إلى حد اضطررت معه لتضييق عيني كي أتبين ملامحه.

أجبته بخشونة: "كنت أظن أن أفكار المرء، على الأقل، هي من خصوصياته".

"أوه، هيا يا إليسون. لا شيء في هذه السريَّة يسمى بالخصوصيات".

قلت مهزوماً: "لكن هذا خطأ". فانفجر ضاحكاً وقال: "ماذا أستطيع أن أقول؟ الحياة سافلة. أما بالنسبة إلى تقيّدك الشديد بالقوانين، فإن كانت هذه هي آلية عملك كان يجب عليك أن تتخذ وظيفة مكتبية في باغرام".

لا أصدق أنه قد قال ذلك تواً، فقلت محتجاً: "حسناً، لمجرد أني أتبع القواعد فإنّ هذا يجعلني من مجندي الصف الثاني؟".

فرد عليّ بابتسامة جانبية وهو يقول: "من تراه يقول ذلك الآن؟".

"أنت فعلت للتو! أنت تدّعي أنني كنت تواقاً لوظيفة مكتبية".

"هل تأخذ الأمور دائماً على محمل شخصي يا توم؟".

"أنا أحافظ على مبادئي لأنني أعتقد أن في هذه المواقف أيضاً اختباراً للمرء"، بذلت جهداً لئلا أنفعل وأنا أجيبه: "لقد دُربت على اتباع القواعد، لقد دُربت أن القواعد موجودة لسبب، ولهذا فهي في غاية الأهمية. القواعد تنقذ الأرواح. إنها تجعل من النظام حصيناً ضد أي خطأ محتمل".

"حصيناً، هاه؟".

"أجل".

"نادراً ما يتبع جنود المواجهات والمعارك القواعد، أيها الملازم باتربارس"، قال وهو يمط الكلام: "جنود الحامية هم من يتبعون القواعد. هذا ما أقوله".

هززت رأسي دون أن أهتدي إلى جواب. فأنا ببساطة لم أعرف كيف أرد.

ربّتَ بيده بمودة على كتفي وقال: "سوف تتعلم". وارتسمت على وجهه ابتسامة كما لو كان شريكاً في مؤامرة. ثم استطرد: "أما الآن فلدينا عمل نقوم به".

وثب إلى الخلف وأمسك بباب غرفة تغيير الملابس وتركه مفتوحاً لي كي أمر، فمررت بجواره مستغرباً في نفسي كيف سمحت له في أسبوعي الأول مع السرية أن يقنعني بجرْيِ عشرة أميال حول مطار قندهار دون أي معنى. علماً أنني كنت أعلم أن رأيي ليس بذي قيمة في الموضوع. تذكرت بمرارة أنه كوني الملازم ثاني المبتدئ هنا، فأنا مدرك جيداً أن تقييم إمكاناتي يجري بالمقارنة مع الأسطورة الثابتة التي جئت بديلاً لها. إنه ديفيد هندريكس، وهو من قدامى المحاربين في البوسنة وفي العراق. المسألة هي أنني سبّاح، ولستُ عداءً. كان هذا دائماً عيباً بالنسبة إليّ في سلك المشاة. لربما توجب عليّ الانضمام لسلاح البحرية. أياً يكن الأمر، فقد قررت أن أجري بأقصى سرعتي كي أتجنب الإذلال التام.

وبينما كنا نخرج إلى حيث النور المتوهج وقعت عيناي على ميزان الحرارة الرقمي على الحائط. فتراجعت وقررت أن أخاطب عقلانية رفيقي للمرة الأخيرة، بالرغم من أنني كنت أدرك أن ذلك لن يحدث أي فرق على الإطلاق.

"لماذا نقوم بهذا أيها الملازم؟ أعني الحرارة 37 درجة مئوية في الظل! سنكون في أتون الجحيم خارجاً. سنخبز، ثم سنحترق".

رد بابتهاج: "إنه الخلود، أيها الملازم. نحن نفعل هذا لنضع بصمتنا على الزمن الهارب بسرعة. أتذكر فيديبيديس في الماراثون، الذي ركض مائة وخمسين ميلا على طول الطرقات السيئة حتى سبارطه. بالمقارنة معه فإن الجري عشرة أميال على مسار ممهد هو لعب أطفال".

لم أكن على استعداد للاستسلام للهراء الكلاسيكي الغامض، فقلت: "وهل ركض في حرارة سبعٍ وثلاثين درجة؟".

"بل لربما كان الجو أكثر حرارة من هذا. الصيف في اليونان هو أسوأ أوقات السنة. وقد كان مكرهاً على ذلك، إذ توجب عليه أن يصل إلى الإسبارطيين في الوقت المناسب لطلب مساعدتهم قبل هجوم الفرس".

"أفترض أنني لست فيديبس".

قال مصححاً لي: "فاي - ديب - بيديس".

"حسناً. أنت تعرف ما أقصده".

"ستنسى الحرارة حالما تستقر خطواتك... فضلاً عن أننا لم نقطع الطريق كله من تارسندان لنتراجع في اللحظة الأخيرة. لقد تم إدراج اسمينا وانتهى الأمر، أتذكر؟ سنغدو أضحوكة لو غادرنا".

ابتسم لي ثم وضع نظارته الشمسية من النوع الذي يلتف حول العينين، ثم قال: "حسناً، أيها الفتى القوي، دعنا نرَك وأنت تعرض إمكانياتك".

كززت أسناني على بعضها وتبعته خارجاً تحت أشعة الشمس.

لم ينجح الأمر، عند الميل الرابع شعرت بنقص كبير في السوائل، أصبحت معه على وشك السقوط أرضاً. ثم حصل شد في وتر ركبتي، وإذ بـي وقبل أن أدرك ما حدث، انبطح أرضاً ورأسي يسبق جسدي.

أبطأ فروبنيوس من سرعته ثم توقف، نظر حوله ثم استقر بصره عليّ وقال: "لقد هزمت تقريباً، هاه أيها الملازم؟".

أثارت غضبـي نبرة التسلية التي كانت في صوته، فهتفت به بنزق: "حقاً أيها الملازم، ماذا كنت تتوقع؟ أنا في هذا البلد منذ تسعة أيام فقط. ولست معتاداً على الجري في درجة حرارة أربعين".

مر اثنان من قوى البحرية يجدان السير بخطى واسعة. تابعهما فروبنيوس بنظره، ثم قال: "أعتقد أن عليّ أن أمضى قدماً لوحدي". ثنى ركبتيه ثم مددهما، ثم انطلق يستأنف جريه وهو يقول لي: "لا يمكنني السماح لجنود البحرية بالتغلب علينا. أراك لاحقاً يا إليسون، دع الطبيب يفحص ساقك".

كنت أضع الثلج على فخذي وأنا في غرفة الانتظار حين انضم إليّ بعد انتهاء السباق. كان وجهه أحمر كالشمندر، وكان غارقاً في عرقه.

"هل أنت صامد يا توم؟ هل من تمزق؟".

"لا، مجرد التواء. أنا بخير شكراً".

قال بحزن: "لقد اكتسح مشاة البحرية السباق، هناك بريطاني واحد من الوحدة الجوية الخاصة، وعداءان من القوات الخاصة في المراكز العشرة الأولى، ولكن بخلاف ذلك، استولى مشاة البحرية من الولايات المتحدة على كل المراتب، هؤلاء الرجال يتدربون بجد".

ارتمى بتثاقل على المقعد، وراح يشاهد الأخبار في محطة الأخبار الأميركية على شاشة التلفزيون. حيث انتقل المذيع من تقرير عن الجولة الرئاسية إلى تورونتو إلى اجتماع قادة الأعمال العالمي في إسبانيا.

علقت بخبث على انفعاله: "أنت تأخذ الأمر بشكل شخصي جداً يا نيك".

"اللعنة فعلاً! أنا أحب أن أكون مع الفائزين".

"آسف لأني خذلتك".

نظر في وجهي ولم يحرِ جواباً. بعد قليل، أشار برأسه إلى التلفاز، وقال: "انظر إلى هؤلاء الكريونيون يا رجل. نحن ندار من قبل مجموعة من الكريونيين الملاعين". ارتسمت علائم الغضب على وجهه وهو يتكلم، وقد بدا جلياً أنه يشعر بالاشمئزاز.

"عذراً... ماذا تقول؟".

للمرة الأولى منذ أن عرفته، بدت عليه أمارات الحرج، وتضرج وجهه بحمرة الخجل وهو يقول: "لا تلتفت إليّ. أنا أتحدث إلى نفسي. أفعل ذلك كثيراً عندما أكون محبطاً".

"سيساعدني على الفهم لو أني عرفت ما كنت تتحدث عنه".

قال: "دع عنك الأمر، إنه أمر معقد جداً ويستلزم شرحه وقتاً، وأنا متعب جداً". وتناول منشفته، وبدأ بمسح وجهه والذراعين. ثم فجأة، وضع المنشفة جانباً وقال: "كان كريون ملك طيبة في اليونان القديمة. كان طاغية ودكتاتوراً، ولكن حتى هؤلاء المهرجين ليسوا بأفضل منه حالاً. إنهم جميعاً ذوو بذلات من دون روح. أنا أقول لك يا رجل، المؤسسة العسكرية هي المؤسسة الوحيدة الباقية في أميركا التي تحمل مفهوم الشرف، أو أياً من الفضائل التي شكلت يوماً ما للولايات المتحدة الأميركية في سالف الأزمان المكانة التي يتطلع إليها العالم بأسره. فكر في الشجاعة، والتحمل، والنزاهة، والحكم، والعدالة، والولاء، والانضباط، والمعرفة.

أما ما تبقى - القيادة المدنية بشكل خاص - ليست سوى كومة من الهراء. ليس لديهم أي رؤية. السياسيون وقحون: كل ما يهمهم هو السلطة. وكبار رجال الأعمال ورجال المصارف يرعون مصالحهم الخاصة ولتذهب البلاد إلى الجحيم. هؤلاء هم الناس الذين يديرون شؤوننا، الذين يملون علينا ما نقوم به وكيف نقوم به، أولئك الخسيسون. لقد امتطوا ظهورنا حين أرسلونا إلى هنا عن طريق إدارةٍ تنبض بالفساد، وقيدوا عملنا هنا كي نخدم مآربهم دون مبادئ توجيهية واضحة، ثم نسونا وتوقعوا منا أن نحقق المعجزات. رائحة النتن تنتشر يا رجل، هذا العرض الفاسد الملعون قد وصلت رائحته إلى عباب السماء. أنا آسف، ولكن أود أن تكون حياتي التي لا أملك سواها مختلفة عن هذا. أود أن أفخر ببلادي وما نمثله. ادعوني شخصاً مثالياً ميؤوساً منه، لا يهمني، ولكن هذا هو

ما دفعني للانضمام إلى الجيش في المقام الأول. أفكر بأصدقائي من الكلية وهم في مكاتبهم وسياراتهم ومنازلهم المكيفة وأفكر بأنني كنت لأصبح مثلهم".

حملقت به بذهول، وكلماته تتردد في أذني. في الختام تمكنت من القول: "لست متأكداً من أنني سمعتك بشكل صحيح، ولكن هل سمعتك للتو تدعو رئيسنا بالمأفون؟".

"ماذا؟".

"أنا أحاول أن أتذكر الكلمات بالضبط...".

اشتعل غضباً وأجابني: "أوه، حباً بالله. فلننس الأمر، حسناً؟".

"أنا فقط أحاول أن أفهم - أعني، إنه قائدنا".

"لا، حقاً، لننس ذلك".

"لقد انتخبناه يا نيك".

"دعنا ننهِ الحديث والأمور لا تزال طيبة بيننا، أفهمت؟" أضحى صوته جافاً وجاداً، مما دعاني لأن أتمهل وأنتقي كلماتي قبل أن أكمل قائلاً: "ثم إن جيشنا خاضع دستورياً للقيادة المدنية. فذاك جزء من سلسلة قيادية واضحة".

لم يجب، واكتفى بالتحديق إلى الشاشة ثم نظر خارج النافذة. انتهيت من وضع الثلج على ساقي ولكن ترددت في قول المزيد. وأخيراً حانت منه التفاتة إليّ وقال: "ها أنذا. الآن بتَّ تعرف لماذا أنا هنا".

أجبته: "أجل بتُّ أعرف، وقد كانت لديّ تساؤلاتي. أعني، لقد ارتدت جامعة فاسار".

فقال: "صحيح، ولكني اضطررت إلى أن أقود السيارة وصولاً إلى جامعة فوردهام في مدينة نيويورك لتلقي دروس تدريب الضباط الاحتياط في الجيش. وكان الطريق يستغرق ساعتين لكل من الغدو والرواح، إلى جانب منهاجي المثقل في فاسار".

"رباه، هذا جنون!".

"كنت لتصبح صديقاً جيداً للغاية مع زوجتي"، قالها ساخراً قبل أن يصحح لنفسه: "أعني زوجتي السابقة. إنها تعتقد أنني معتوه".

"ولكني لا أظنك معتوهاً!".

"لا؟".

"بالطبع لا، أيها الملازم. أنا أحترمك، وقد لاحظت بصورة خاصة الطريقة التي يطيعك بها الرجال. إنها تشي بالكثير بالنسبة إليّ. أنت قائد فطري، وأنا فخور بالعمل إلى جانبك. قد نكون مختلفين - لست أدري، فأنا لا أزال أعمل على فهم ما قلتَه لي لتوك - ولكن هذا لا علاقة له البتة بأدوارنا هنا".

استدار بكليته مسدداً نظراته نحوي، وقد اكتسى وجهه بما يعبّر عن الضائع التائه المثقل بالأعباء. كانت نظرة فارغة بشكل غريب، كما لو أنه أصبح فجأة غريباً عني. رأيت العرق ينضح من وجهه، فكه مشدود، وعيناه مثبتتان عليّ. ومع ذلك، لم أستطع الجزم ما إذا كان ينظر نحوي أو ينظر إلى مكان آخر.

قال بهدوء: "أخبرني، لم انضممت أنت إلى الجيش يا توم؟".

"لقد سألني أبـي قبلك هذا السؤال يا توم، وهو الأمر الذي كنت أحاول معرفته مذ أخبرتنا بعزمك. ما شأنك أنت مع الجيش؟".

وضعت جانباً كيس رقاقات البطاطس التي كنت أتناولها، وأطرقت النظر إلى الأرض لبلورة أفكاري. كنت متمدداً على سجادة صوفية خشنة، كانت سابقاً صفراء زاهية، ولكنها مع الوقت تحولت إلى درجات بلون الكراميل نظراً لاستخدام أمي المفرط لمواد التبييض أينما تقيأ القط وانابـي، والذي يتقيأ عملياً في كل مكان. كان أبـي، يجلس في كرسي جدي الهزاز، وينظر عبر النوافذ الفرنسية إلى المروج والغابات الممتدة بعيداً وصولاً الى الخليج. أما أختي آني فقد جلست عند قدميه، كما تفعل في كثير من الأحيان، مستندة إلى ركبتيه تقرأ كتاباً. في تلك الأثناء، كانت أمي في المطبخ تغسل صحون العشاء، وهذا واحد من طقوس مساء الأحد حيث تبعدنا جميعا عن "منطقتها" كما تسميها، وتبدأ بالعمل في الحوض مع قرقعة مزعجة للأواني والمقالي تجعل القط وانابـي يسابق الريح هرباً من المنزل بحثاً عن بقعة ضوء خافت حيث يمكنه أن يجد بعض السلام والهدوء. كان القمر قد أطل لتوه مرسلاً نوره على البحيرة الممتدة على حدود المرج والغابات. عندما كانت آني طفلة، كانت تشير إلى البركة ثم إلى السماء وتقول لي: "انظر يا تومي، قمر في الأعلى، وقمر في الأسفل!".

كنت أدرك أن والدي ينتظرني لأتكلم، وأن لصبره حدوداً، فقلت له بعد مدة: "لقد رأيت البرجين كيف تهاويا يا أبـي. كيف مات الناس. الكثير من الناس".

أرجع نظارته عن أرنبة أنفه إلى مكانها، ثم قال: "كان ذلك قبل ثلاث سنوات يا تومي. وقد ثأرنا لمصابنا وقصفنا الأنذال في العراق وأفغانستان".

"أعلم، ولكن الحادثة لا تزال تنبض بداخلي. ولا يزال هؤلاء الإرهابيون موجودين. إنهم لم يذهبوا بعيداً".

"نحن في ولاية ماين يا تومي. لن يأتي أحد في طلبنا. كن واقعياً".

"هذا ليس المقصود. البلد يحتاج إلى أناس ليتطوعوا"، كنت على وشك الاسترسال عندما توقفت شاعراً بالسخف لما أوحته صياغتي لعبارتي من تركيز على أهمية الذات، فاكتفيت بأن أضيف: "لا بد أنك تعرف ما أعنيه".

"لم يكن هذا الهدف الذي صبونا إليه عندما وفّرنا المال لكليتك".

"أنا أعلم. ولكن هيئة إعداد الضباط الاحتياط يمكن أن تساعدنا في هذا المضمار أيضاً. لقد غطيت كل ما يلزم من أساسيات".

احتج أبـي منفعلاً: "أنا لن أقبل مالاً مغمساً بالدم! أنا لن أسمح لهم بأن يشتروك! أنا لا آخذ المال مقابل حياة ابني!".

"إنهم لا يشترونني يا أبـي. الأمور لا تجري على هذا النحو. إنني أنا من يريد الانضمام".

"يمكن أن تُقتل، لقد قتل ابن تاد ميرفي في العراق".

لاحظت أن جلبة الأواني في المطبخ قد توقفت، وأن أمي قد أسندت مرفقيها إلى الطاولة، ودون أن تتفوه بكلمة، لكني قرأت على وجهها أنها كانت تصغي إلى حديثنا. ثم لاحظت أن آني أيضاً لم تكن تقرأ إنما تمسك بكتابها وحسب وتنتظرني حتى أرد.

تنحنحت، وشعرت بشيء ما يقف في حلقي، لا بد أنه الدوريتوس الذي كنت أتناوله. عدّلت جلستي وضممت ركبتي بذراعي.

"على أحد ما أن يضطلع بهذه المهمة يا أبـي. فكر في الأمر لثوان: يمكنني أن أصبح ضابطاً إن تأهلت".

سقط الكتاب من يد آني وعادت فالتقطته ثانية.

قال أبـي بهدوء: "تومي، لقد حان الوقت لنتحدث في بعض الأمور معاً".

رددت: "لا حاجة إلى ذلك يا أبـي. إذا كنت لا تريدني أن أقدم على هذا الأمر فلن أفعل".

قال: "ليس الأمر كذلك، يا بني"، فجأة بدا صوته متعباً.

"ما الأمر إذاً؟".

للمرة الأولى نظر إليّ مباشرة وهو يقول: "من سيعتني بالقارب؟ من سيتسلم مني عندما أتقاعد؟ أنا لا أستطيع القيام بهذا العمل إلى الأبد. لقد بت في التاسعة والستين من عمري، وأنا لم

أحسب أنك ستتخلّى عني يوماً".

لم أكن أقوى على النظر في عينيه. لقد كانت حرفة صيد الكركند البحري تسري في العائلة لأجيال، أباً عن جد. بدأ أبـي بمساعدة والده من سن الخامسة، كما كان الجد مع والده من قبله، وكما فعلت أنا نفسي عندما صعدت إلى متن القارب لأرافقه في رحلات الصيد مذ كنت في التاسعة من العمر. أستطيع أن أتفهم وجهة نظره حتى وإن كنت أتمنى لو أقول له إن توقعاته غير عادلة بالنسبة إليّ، لأن الابن الأكبر كان هو من يرافق والده على متن القارب على الدوام. غير أننا لم نعد نتكلم عن آندي أخي الأكبر، أو على الأقل ليس منذ أن خرج من السجن وانتقل للعيش في مقطورة في الفناء الخلفي لشخص ما في منطقة بار هاربور. آخر ما سمعناه عنه، أنه كان يزاول بعض الأعمال الغريبة، وأنه عمل لبعض الوقت لدى إحدى شركات إزالة القمامة، لكنه لم يعد يزورنا، ونحن لم نعد نتصل به. في واقع الأمر، أنا لا أعتقد حتى أنه يملك هاتفاً.

استدرت مرسلاً بصري نحو الخليج، متأملاً الجزء القليل الذي بالإمكان رؤيته فوق قمم الأشجار. أنا أحب هذا المكان؛ أحب إحساس السكينة والخلود اللذين يمنحهما للمرء. في ظل ظروف مختلفة، كنت لأتولى المهمة عن أبـي دون تلكؤ. لكن البرجين المنهارين غيّرا كل شيء بالنسبة إليّ. حتى أنني لم أزر يوماً مدينة نيويورك، أو واشنطن، أو تلك البقعة في ولاية بنسلفانيا. ولكني أعرف الخطأ من الصواب، وأعرف أن على المرء أن يعيش الحياة وفقاً لقواعد معينة، وأن شخصاً ما كسر تلك القواعد وآذانا إلى حد بعيد، وأنني سأشعر بالإخفاق والفشل لو أنني لم أقم بواجبـي تجاه الأمر.

أخذت آني يد أبـي واحتضنتها بيديها، بأصابعه المشققة من عمله طوال العمر بالمياه المالحة والحبال المتأرجحة وفخاخ الكركند الصدئة. وبدت أصابع آني الرقيقةُ شبهَ شفافةٍ مقابل يد والدي الكثيرة العقد.

دخلت أمي وتجولت بذهن شارد بين نبتات صبار عيد الميلاد المحببة إليها الموضوعة في الزاوية بجانب باب الشرفة. اقتلعت منها بعض الزهور الميتة قبل أن تمر بجواري لتقف وراء كرسي أبـي، وتسألني: "لقد عقدت العزم، أليس كذلك؟".

وقبل أن أتمكن من الرد، أومأ أبـي برأسه إيجاباً: وقال باقتضاب: "إنه مغادر".

دلكت أمي كتفيْ أبـي كما لو كانا مصنوعين من العجين، وهي تقول: ستغدو غريباً عن هذا المكان يا تومي".

"أمي، سنكون على الدوام غرباء في ولاية ماين، بغضّ النظر عن المدة التي عشناها هنا".

"ما قصدته هو أنك وجدت سببا للمغادرة".

"هذا ليس عدلاً يا أمي! سأعود إلى الديار، مثلما فعل جدي. لقد قاتل في الحرب، ورأى العالم، ثم عاد واستقر هنا".

قرعت الأرض بإصبعي للتأكيد وكررت: "تماماً ها هنا".

"لقد عاد رجلاً آخر. لم يتحدث أبداً عن الحرب، لقد غيرته، كيف يمكن ألا تفعل؟ لم يعد هو الشخص نفسه أبداً. اسأل والدك إذا كنت لا تصدقني".

أجبتها بعناد: "أنا لن أتغير".

فجأة، نهضت آني وانطلقت خارج الغرفة، وسمعنا صفعة باب غرفتها. فغادرت أمي الغرفة لتلحق بها، وطفقنا أنا وأبـي نتبادل النظرات.

إلى أن قال لي: "أستطيع الاستمرار لمدة خمس سنوات أخرى، ربما ست سنوات. لكنني لا أعرف ما إذا كان بإمكاني الاستمرار بعد ذلك".

تراجعت إلى الوراء دون أن أجد جواباً.

التقط كتاب آني وراح يتصفحه بذهن شارد، ثم سألني بغتة: "هل تعلم لِينْسي بخططك؟".

"كنت سوف... لا، هي لا تعلم".

"ماذا ستقول لها؟".

أخذني سؤاله على حين غرة، إذ لم أكن أتوقعه، وشعرْتُ بوجهي يزداد حرارة وأنا أجيبه بجفاف: "سأقول ما سأقول".

فرد: "هذا الكلام ليس جيداً بما فيه الكفاية. بوب وماغي هما بمثابة أهلنا، ولن نقبل منك أن تسيء التصرف مع ابنتهما".

"أبـي، أنا لن أؤذيها. في الواقع، كنت ذاهباً لأقول لها ذلك".

"تقول ماذا؟".

"كنت سأقول لها أن تنتظرني".

حدق إلى وجهي دونما مواربة وقال: "أنت ولدي الذي أهتم لأمره يا تومي. لكني أعلم أيضاً أنك لا تزال في مقتبل العمر، ولا يسعك التفكير ملياً في هذه المسائل بوضوح".

شيء ما في صوته صدمني. شعرت وكأنه يأتي من مكان بعيد.

تحول للنظر إلى الخليج، وفعلت الشيء نفسه. سألته: "هل ستخرج بالقارب غداً؟".

"بالطبع، ولم لا أفعل؟".

"في أي ساعة تريدني أن أستيقظ؟".

"لا تقلق بشأن هذا. يمكنك أن تغط في النوم غداً".

نظرت إلى أسفل، وأدركت أنني في وقت ما أثناء محادثتنا قد لويت كتلة من السجاد الصوفي وانتزعتها من مكانها. حدقت إليها للحظة محتاراً، ثم أعدتها مرة أخرى إلى مكانها آملاً ألا تلاحظ أمي ما حدث، أو ربما تلوم القط وانابـي إن هي فعلت.

نهض أبـي قائلاً: "سأخلد للنوم. لقد كان يوماً طويلاً وأنا مرهق. ليلة سعيدة يا توم".

"تمنَّ لأمي ليلة سعيدة، هلاّ فعلت؟".

"حسناً سأفعل".

شاهدته وهو يلقي نظرة أخيرة على الخليج. كان القمر قد اختفى وراء كتلة عملاقة من الغيوم، وغرق الحقل في الظلال، واستحالت الغابات بقعة مظلمة.

في وقت لاحق من تلك الليلة كنت أنظر إلى الخليج، ولكن هذه المرة من خلال الصورة الباهتة المعلقة على الحائط أمام سريري، والتي كانت هدية من أحد الرسامين الذين تعلقوا بجدتي، كما تروي الحكاية. بالنظر إلى أسفل اللوحة تجد الكلمات: خليج بينوبسكوت، حيث المياه نقية والعيش سهل.

لم أفهم قط كيف يمكن للمرء أن يحمل مثل هذه المشاعر، وقد استنتجت منذ زمن أنه وحده شخص من الخارج من يمكنه أن يكتب شيئاً مماثلاً. العمل في صيد الكركند أحد أصعب أنواع التجارة، وحتى المياه في الخليج باتت هي الأخرى ملوثة على نحو متزايد في هذه الأيام.

هذه كانت أفكاري حين خرجت من المنزل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، جاداً في أعقاب والدي الذي كان في طريقه إلى القارب. إنها الساعة قبل شروق الشمس، والضباب كثيف. انتظرت أبـي على الشرفة كي يعبر الحقل الغارق بالندى ويدخل الغابة، ومن ثم أخذت طريقي إلى الأسفل، متوارياً في الطريق المكسو بالنباتات الضخمة والملتف بين أشجار الصنوبر والتنوب وماراً بثلاث بتولات فضية كان أبـي قد زرعها عندما وُلِدنا أندي، آني، وأنا. توقفت عند الكوخ المهدم، جهة المنحدر، الذي يطل على الخليج، وشاهدته وهو يفتح البوابة الخشبية المفضية إلى الرصيف، ومن ثم الباب المؤدي إلى المخزن حيث يحفظ فخاخ الكركند. كان يعمل بسرعة وكفاءة، وقد تأصلت عادات العمل لسنوات طويلة في حركاته. لكنه كان يبدو متعباً مما دعاني للتساؤل عن ليلته

كيف أمضاها البارحة. حمل الفخاخ في القارب، ثم فرز العوامات البرتقالية، ومع شدّه للمحرك، انطلق خارجاً إلى الخليج.

أردت أن أناديه لأطلب منه أن يعود ليأخذني معه، ولكني لم أفعل. بدلاً من ذلك، نزلت السلم إلى الرصيف، وجلست عند حافة المياه حيث راحت الأمواج الناجمة عن حركة القارب تغسل المكان حولي. لم أعد أستطيع رؤيته، بالرغم من أنني قادر على سماع صوت هدير المحرك عبر الظلام. بدا خط خافت مظلم من خلال الضباب عند التلال على الجانب الآخر من الخليج، ولكن كل شيء آخر تماهى في الضباب الحليبي اللون، مع عدد قليل من النوارس السوداء التي تطير بانسيابية مقبلة ومدبرة. تنفستُ الهواء المالح، وتركتُ الضباب يستقر ببطء على كتفي، ولكني بعد فترة من الوقت، نهضت وعدت أدراجي إلى المنزل. ربما سأقضي الصباح في جز العشب...

"ملازم إليسون...".

نظرت أسفل الهيسكو. كان والن يقف هناك، مظلّلاً عينيه من الشمس. إنها أكثر سخونة من الجحيم. مرّرت لساني على شفتيّ المشقوقتين، وقد تجمع اللعاب في فمي.

"ما الأمر أيها الرقيب أول؟".

"حان وقت استراحتك يا ملازم".

نظرت إلى ساعتي، مشوشاً وسألته: "كم الساعة الآن؟".

قال: "لقد حان الوقت"، في تلك الأثناء كان الرقيب سكوت قادماً؛ ثم سمعت والن يقول: "أوه".

سألته: "ما الأمر؟".

فقال: "يبدو أنها عائدة".

التفت لأنظر إلى الحقل، وقد أعمى بصري وهج الشمس. شعرت وكأن شريطاً أبيض من الحرارة يمتطي صهوة الأرض. كان الجو حاراً لدرجة كدت معها أصاب بالدوار، فظللت عيني بانتظار أن تتضح الرؤية لدي. والن على حق، العربة تعود باتجاهنا بلا ريب.

تسلق والن إلى جانبي.

سمعت سكوت يصرخ للرجال مشيراً إلى فريق المدفع الرشاش M-240 B لاتخاذ أماكنهم لتغطية المنحدرات. مع أقصى مدى فعال لرشاش الـ M-240 B البالغ 1,100 متر فبمقدورهم تمزيق المنحدرات لو استلزم الأمر. عندما استقروا في موقعهم، تحرك الفريق القتالي

الثاني ليأخذ مواقع إطلاق النار ومعه M-4s ومدفعاً رشاشاً عيار 50، ثم أعلموا سكوت أنها تحت أنظارهم.

راقب والن العربة معي وهي تتوقف بالقرب من علامة خمسة وسبعين متراً. كانت هبات من الرياح تكتسح الحقل مثيرة الغبار على صورة زوابع. هززت رأسي غير مصدق: "هذا جنون. ماذا تريد منا؟".

قال والن مقراً الواقع: "جثة شقيقها"، ثم تحول إليّ مضيفاً: "هل كنت لتتصرف بشكل مختلف لو كنت مكانها؟".

لاح طيف آني أمام عيني، وسرت بي القشعريرة للحظات قبل أن أشيح بوجهي لأصرفه عني قائلاً باقتضاب: "بالكاد أجد الموقف متماثلاً أيها الرقيب أول".

فسألني: "لِمَ؟".

أنقذني وصول كونولي من الاضطرار إلى الإجابة. إذ مشى إلى نقطة مراقبة الدخول ثم توقف هناك متحضراً. قفزت أرضاً من الهيسكو وتوجهت نحوه. وبالكاد نظر في وجهي قبل أن يتحول إلى التحديق في العربة مرة أخرى.

"ماذا يجري بحق الجحيم أيها الملازم؟".

أجبته بهدوء: "لقد دفنت الرجال، سيدي".

"كان يفترض بكم إعلامي في اللحظة التي أنهى فيها العمل".

"أنهى هو، يا سيدي؟".

"حسناً، بالطبع. هل تتوقع مني حقاً أن أصدق بأن امرأة - وهي كسيحة على ما يبدو - قد دفنتْ ثلاثة رجال ذوي أحجام كبيرة في قبور حفرتها لتوها في الأرض الجرداء؟ بواسطة مجرفة لعينة؟ وفي هذا الحر؟".

"لقد استغرق ذلك منها بعض الوقت...".

استدار كونولي بجذعه نحوي وراح يقيسني بنظراته. ثم قال: "فقط أي درجة من السذاجة تظنني أستحق؟".

"عفواً سيدي؟".

"إن كانت تلك امرأة سافلة، فسأكون أنا حينها جملاً لعيناً".

"النساء هنا ذوات صلابة عالية جداً سيدي".

"أنت لست متزوجاً أيها الملازم، أليس كذلك؟".

"لا، لست متزوجاً"، أجبته بجمود.

"يبدو أنك على علم جيد جداً بالفتيات المحليات".

"حسنا، لدينا أدلة على ذلك، الدليل أمام أعيننا...".

تحقق من ساعته قبل أن يقول: "لقد تأخر الوقت كثيراً الآن، ولكن إذا كان لا يزال في هذه الأنحاء غداً، فسنقوم بتسوية هذا الأمر مرة واحدة وإلى الأبد، هل تفهمني؟".

"أجل يا سيدي. بشكل مطلق". ثم تمهلت وسعلت سعلة مكتومة قبل أن أقول: "ولكن كيف؟".

"كيف ماذا؟".

"كيف سنقوم بتسويته؟".

"سنفكر بشيء ما. في غضون ذلك، أعلمني بالمستجدات باستمرار، اتفقنا".

"أجل، سيدي"، تمالكت نفسي كي لا يظهر في ملامحي الغضب العارم الذي يعتمل داخلي لمعاملته لي كصبي المهمات. هممت بتذكيره بأنني ملازم، ولست مراسلاً سخيفاً، ولكنني تمكنت من كبح جماح نفسي.

سأل كونولي والن: "دور من في المراقبة يا رقيب أول؟".

تقدم سكوت قائلاً: "دوري، سيدي".

فخاطبه قائلاً: "أبق عينيك مفتوحتين. لدي شعور بأنها ستكون ليلة طويلة".

غادر كونولي، وقمت أنا بالتقاط أشيائي من على جدار الهيسكو وأومأت برأسي محيياً كلاً من والن وسكوت وأنا أسير مغادراً. أشعل والن سيجارة ورمقني بنظرة متعاطفة.

عدت إلى كوخي، وببطء خلعت الحذاء والجوارب. أضحت قدماي بيضاوين متجعدتن، وكأنهما سُلقتا في الماء، وأخذت شرائط من الجلد تتقشر مع الجوارب. ارتميت على سريري مرهقاً. شعرت بيدي ووجهي قد احترقا إثر تعرضي طيلة اليوم لأشعة الشمس، وشعرت بعقدة في معدتي تهدد بأن تتحول إلى تقلص، فانتبهت إلى أنني لم أكل طوال اليوم. تمددت في مكاني مهيئاً نفسي للنهوض والتوجه إلى خيمة الطعام.

"لقد قاموا بتغذيتكم جيداً يا تومي"، قالت أمي، ثم أردفت: "لقد امتلأ جسدك".

راحت آني تتحسس العضلة الأمامية من ساعدي، وتقول: "هذا غير ممكن!".

سألت أمي: "هل أنت سعيدة بابنك، سيدتي؟".

لكمتني أمي على ذراعي ممازحة: "سيدتي! لا تخاطبني بسيدتي أيها الشاب. قل لي أمي، لا مكان لسلوكياتكم الجنوبية هنا".

"حسناً، حسناً، إنما ما رأيك بـي في هذا الزي العسكري؟".

استرقت أمي النظر إلى أبـي، ثم نظرت إليّ مرة أخرى وأمارات الحزن بادية على وجهها وهي تقول: "هل تعتقد حقا بأنك سوف تحدث فرقاً يا تومي؟".

"أجل، أعتقد أنني سأفعل. هل تذكرين ما قلته عندما كنا جالسين أمام التلفزيون نشاهد البرجين يتهاويان؟".

"أنت مهووس بتلك الأبراج يا ولدي! موقفك هذا ليس صحياً. وكلا، لا أتذكر. ماذا قلت؟".

أجبتها: "يومها تحولْتَ إلينا وقلت إنّه سيكون علينا الاتحاد معاً، على كل منّا أن يقوم بواجبه، وأنا ذاهب لأقوم بما علي. هذا كل شيء".

ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت: "أرى أنه ينبغي أن لا أترك لساني يتحرك على هواه أمامك. لو كنت أعلم ما ستكون نتيجة كلامي، لكنت قلت كلاماً آخر تماماً".

كان ثلاثتهم قد أتوا من ماين ليشهدوا تخرجي. ومحاولين توفير بعض المال فقد، استقلوا الرحلة الليلية من بانجور إلى مطار لوغان بوسطن، ثم عبروا فيلادلفيا إلى أتلانتا، ثم ركبوا السيارة نزولاً إلى فورت بينينغ.

علقت: "رحلة كثيرة المحطات كهذه غاية في المشقة".

فردت أمي ضاحكة: "كان والدك ينوي أن يقود بنا السيارة جنوباً، وكانت الرحلة بمجملها ستستغرق ثلاثة أيام".

قال أبـي: "وهكذا توجهت آني إلى الإنترنت ووجدت هذه التذاكر الرخيصة على بعض مواقع السفر. لقد كلفتنا أقل من نصف ما كنا سندفعه فيما لو تمت الرحلة بالسيارة". وهزّ رأسه غير مصدق.

قالت أمي: "وسيكون طريق عودتنا أفضل، إذ لا بد من تغيرٍ واحد في الإديلف، وبالمسارين، فإن الطائرات هي أكبر، وليست مثل تلك المروحيات التوربينية الصغيرة".

سألتهم: "إيلاديلف؟ أين ذلك المكان؟".

ردّ أبـي: "هذه فيلادلفيا بالنسبة إليك أيها الصبـي الأبيض".

بردّة فعل متأخرة حدقت إليهما: "أمي؟ أبـي؟".

أخذت أمي تضحك وتقول: "إن فريق الروتس الغنائي موجود عندنا. ما الذي يثيرك، يا صاحبـي؟".

كأن ماءً بارداً فاجأني، وظللت مستلقياً بلا حراك تكتنفي الحيرة.

ثم أدركت أن ما تناهى إلى سمعي كان صوت وونك غاينز يتحدث بسرعة ميل في الدقيقة على الجانب الآخر من حاجز الخشب الرقيق الذي يفصل كوخي عن أكواخهم. لا بدّ وأنّ النعاس قد غلبني فور استلقائي على السرير. قطبت ورحت أبحث عن سدادات أذني، ولكنني لم أستطع إيجادها في الظلام، وبقيت مستلقياً هناك في حالة ما بين الصحو والنوم، مع ما يصل من المحادثة التي ترشح من خلال الحاجز.

يقول وونك: "لقد كنت إذاً في ذاك القبو في نورث فيلي، ربما كانت مساحته عشرة أقدام بعشرة أقدام، وهناك أربعون منا في الداخل، والجميع عقولهم مخدرة. وقام كويستلوف بضرب إيقاعه على علبة للأحذية... يا رجل... راح الحشد كله يتمايل معه، أنت تعرف ما أقول. وأخذ أحد الإخوة يغني الراب (إتس بلاك ثوت)، ويقول: هيب هوب، أنت حب حياتي -".

أتى صوت براد إيفرهارت، النصرانية المدّعي في السرية، بنغمته العالية ليقاطع الحديث قائلاً: "من حرّك حذائي اللعين؟".

فيجيبه المجند سيرانو بقوله: "إنه هناك تماماً، يا أخي".

"لا ليس تماماً! لقد وضعته هكذا... بزاوية مع السرير، أترى؟ والآن هو هنا، وهذا ليس الشيء نفسه...".

فتدخل المجند لوسون قائلاً: "اللعنة، ما الذي تتحدث عنه بالضبط؟".

"يجب أن يكون في هذه الزاوية، انظر؟ إنها دقيقة جداً. ما الذي يصعب فهمه؟".

يستمر مات لوسون: "اللعنة، لماذا لا بد من أن يكون في تلك الزاوية؟ أهذا ما يقوله كتابك المقدس؟".

فيرد إيفرهارت: "هيا يا مات! هذا تلميح رخيص منك".

أجابه لوسون: "أنت تفقد أعصابك يا براد، أنا قلق عليك".

"لا، أنا لا أفقدها. أنا أنقذ الأرواح".

تذمر سيرانو قائلاً: "ما المفترض أن يعنيه هذا السخف؟".

استطرد إيفرهارت: "استمعوا إليّ يا رفاق. في الليلة التي سبقت القتال، كنت متعباً جداً، فلم أضعه في هذه الزاوية، وبعد فترةٍ وجيزة رأيتهم كيف تفجر الجحيم كله. وقبل ذلك، منذ أربعة أسابيع مضت، كنت قد رميته تحت سريري كيفما اتفق، في اليوم التالي، ودون سابق إنذار قُتل الملازم هندريكس والرقيب كاسترو. لذا يتوجب عليّ أن أكون في غاية الحذر، حسناً؟ فأنا الآن لن أجازف، وهذا يسري علينا جميعاً".

"تباً لهذا!" قال وونك بعصبية: "يا رجال، لديه وجهة نظر فيما يقول".

قال لوسون متململاً: "براد إيفرهارت، يا صديق أنت بحاجة إلى أن تقصد البيت وتمارس الجنس".

"الجنس؟".

"نعم. وبشدة".

"هل هذا كل ما يمكنك التفكير به؟".

"وماذا يوجد سواه لنعيش من أجله؟ الممارسة، فالإنجاب، فالانقراض".

"يا أخي، أنت بحاجة إلى دزينة من حبوب الفاليوم، ملحقة بحقنة من العفة".

عاكسه لوسون: "هذا مستحيل. في الواقع، يمكنني الاستفادة من بعض النيمفيتامين الآن".

"أتحنّ إلى معلفك في الوطن؟".

"اغرب عن وجهي أيها الأحمق".

"بارك الله بوجه النحس"، قال إيفرهارت متكرماً، ثم تابع: "أنت تماماً مثل سبونج بوب السخيف، هل تعرف لماذا؟".

"لا،... لماذا؟".

"لأنك تعيش في قعر الشعَبِ المرجانية، هذا هو السبب".

يرد لوسون ضاحكاً: "هذا مناسب لي تماماً، أيها المغفل. أنا أفضّل الشعب المرجانية على كتابك المقدس في أي وقت كان".

قاطعهما سيرانو قائلاً: "بالحديث عن الأحذية والقرف، يا أصحاب، يصعب عليّ الانتظار طويلاً للحصول على حمام ساخن في مركز الكتيبة، فرائحة جسدي المتسخ صارت كرائحة الخنزير. ولقد سئمت من تنظيف جسمي بمناديل الأطفال السخيفة".

"ولِمَ يا رجل؟" سأل وونك ساخراً، "ألا تحب الاغتسال بالمناديل وبقوارير المياه المتروكة لتدفأ في الشمس؟".

أجابه سيرانو بدماثة: "أنا لست من فيلادلفيا، يا أخي. أنا أحب الاستحمام واستخدام غسالات الثياب".

فجأة يقول لوسون: "ما هذا الضجيج؟".

يقول سيرانو: "يبدو وكأنه شخص يعزف على الغيتار...".

فيرد لوسون: "يا صاح، هذا ليس بالغيتار، الصوت قادم من مكان ما خارج القاعدة. استمع...".

فينبري إيفرهارت: "احملوا بنادقكم ودعونا نذهب للتحقق من الأمر...".

سمعت وقع الخطوات خارج الخيم فجلست مستقيماً على سريري وأصخت السمع. وبعد لحظات، ألفيت نفسي خارجاً أيضاً، يدي على بندقيتي عيار 9 ملم، منضماً إلى موجة من جنود المشاة في ألوان وأشكال مختلفة من الملابس، يتجهون جميعهم نحو مصدر الموسيقى. استطعت تمييز صف من الرجال على طول جدار الهيسكو، مستبيناً خيالاتهم السوداء على خلفية النجوم. باستثناء أولئك الذين كانوا في مناوبة الحراسة، عملياً كان جميع من في السرية موجوداً هنا. وران الصمت على الجميع، وخيّم الهدوء للمرة الأولى. الصوت الوحيد الذي لف هذا التجمع السريالي هو ذاك الصوت المنبعث من النقر على الأوتار، تحمله إلينا نسائم الليل.

مررت بالرقيب ترايب الذي أسند ظهره إلى كومة من أكياس الرمل. ولما رآني بادر غاضباً: "لم يبق أمامنا إلاّ القضاء عليها، كنت على وشك أن أنام...".

أفسح برادفورد لي مكاناً بجواره على قمة جدار الهيسكو. كان والن إلى جانبه يحدق إلى الحقل المظلم. ميزت في الظلام كلاً من دوك، وتانر، وبيتراك، وآشوورث، وفلينت ومسعود، فضلاً عن السجائر المتوهجة التي راحت تلتمع بين الفينة والأخرى في الظلام كاليراعات المضيئة.

أما الهواء فكان مفعماً برائحة الجبال.

الرقيب لأول

عندما تكون صغيراً، تكون كالنائم.

سبحت إلى نهاية البركة الصغيرة، ثم استدرت عائداً مرة أخرى. إنها اللفة العشرون، والفجر الوردي يخترق ضياؤه الماء. تنتابني الرغبة في الضحك بصوت عال مستمتعاً. ولعلي فعلت ذلك في وقت سابق ولكني الآن أشعر بالرضا لمجرد استمتاعي بشعور الرفاه الذي يغمرني. كم هو لطيف أن تشعر بتيار المياه يجري أسفل وجهك في حين يحتضن جسمك ليطفو عليه برفق. بدت غيوم الفجر وكأنها منسوجة من الحلم: إذ تتحول إلى القرمزي، ثم البرتقالي، قبل أن يرتفع المدار الأحمر من الشمس فوق الأفق. أما ظل الليل المديد فأخذ ينسحب عن بركة السباحة، يزيحه شعاع بارد شاحب يرشح من خلال فروع الأشجار المتدلية. أما زهر المانيوليا فقد أطل عبر الضوء الخافت، فانعكست ظلاله على وجه الماء الرقراق وقد غمرتني وأنا أتسلق خارجاً من حمام السباحة.

كانت العمة ثيلما قد جلست على الشرفة الخلفية مأخوذة بعملها الدائم في الحياكة، ابتسمت لي وهي تخبرني بأن جدي قد استيقظ. بالكاد أستطيع أن أحصي المرات التي رأيتها فيها دون هاتين السنارتين وكرة الصوف المستقرة في حضنها. لقد ربتني العمة ثيلما بمساعدة جدي وجدتي عندما مات والدي. كنت في الثانية عشرة من العمر حين قالوا لنا إنه قد وقع حادث أثناء أحد العروض الجوية في ألمانيا. كان أبـي واحداً من المتفرجين، وقد ذهب إلى هناك مع رفاقه من القاعدة القريبة في لاندشتول. أذكر رد فعل أمي الغريب على المكالمة الهاتفية التي أخطرونا فيها بما حدث، إذ امتقع وجهها، ثم ابتسمت. حاولت أن تخفي ابتسامتها بالعضّ على شفتها، لكني كنت قد لاحظت ذلك بالفعل، وحين استلقيت في سريري في تلك الليلة، لم أستطع تمييز أيهما كان الأسوأ بالنسبة لي: خبر وفاة أبـي أم ردة فعل أمي!؟؟

وبعد أسبوع، رحلت. لقد غادرت مع ألفين جونز الصغير، أحد العاملين في مرأب إصلاح السيارات حيث كان والدي يصلح سيارته كلما إذا زار هذه المدينة. وتُركت لجدي وجدتي مهمة استقبال الرجال الذين جاؤوا بحاجات أبـي الشخصية من وحدة عمله. وسمعنا أن المطاف انتهى بأمي وآل في أبيلين، حيث افتتح متجراً للسيارات خاصاً به. ولم أرها بعد ذلك، إنما سمعنا شائعة أنها قد رزقت بطفل وفارق الحياة.

جلس جدي إلى طاولة المطبخ كما يفعل كل صباح، كعثرة في طريق جدتي وهي تحضر الإفطار. وعندما مررت بهما في طريقي إلى غرفتي، طلب من إحضار بذلتي العسكرية عند عودتي لتناول الإفطار.

فاحتجت الجدة على طلبه قائلة: "ليس مرة أخرى يا جيمس! دع الصبـي وشأنه".

الأمر الذي استفز جدي فرد: "أنت *دعينا* وحدنا! أنت لا تفهمين الأمر".

"أوه، أنا أفهم كل الفهم، يا جيمي والن. لقد كنت زوجة لعسكري مدة تسعة وثلاثين عاماً، فإذا كنت أنا لا أفهم في هذه الأمور فلست أدري من سيفهم".

"تسعة وثلاثون عاماً؟ لا بد من أنك تعنين تسعة و*خمسين* عاماً! أرى أنك على استعداد لإيصالي إلى قبري قبل الأوان".

"لقد تقاعدْتَ قبل عشرين عاماً يا رجل، هل لي أن أذكّرك؟".

ردّ عليها صائحاً: "أستطيع القيام بهذه الحسبة! لقد أحالوني على التقاعد قبل بلوغي سنّ التقاعد. فأنا ما كنت لأترك السلك العسكري أبداً من تلقاء نفسي، أنت تعرفين هذا".

"أعلم، أعلم"، تناهى إليّ صوت جدتي الصابر وقد وصلتُ غرفتي. وما إن دخلتُ حتى كدتُ أن أتعثر عندما علقت قدمي بمزق في السجادة، ولكني تلافيت السقوط ومضيت قدماً.

جلس جدي في غرفة المعيشة منتظراً عودتي. وكنت قد ارتديت ملابس عادية، وأقبلت عليه حاملاً بذلتي العسكرية وقد غدا قماشها قاسياً نتيجة التنظيف الجاف، وتفوح منه رائحة الغلاف البلاستيكي الذي حللته قبل أن يتناولها مني.

صاح: "لويز، أين هي نظارتي؟".

حملتها إليه، وسحبتني جدتي وراءها وهي عائدة إلى المطبخ. اختلستُ النظر إلى جدي وهو يمرر يده على شرائط المعركة، ورتبة الرقيب المعلقة عليها. كان يجلس منتصباً مستقيم الظهر شارد النظرات. وأنا أعرف سرّ تلك النظرات: جدّي يستعيد شريط ذكرياته العسكرية المجيدة.

جعلتني جدتي أعدها بحضور قداس الأحد في كنيستها الجديدة، كنيسة الملك الأعظم داود المعمدان، والتي واظبت على الذهاب إليها منذ احترقت أقرب كنيسة إلى منزلها.

قالت بحماس: "لديهم الموسيقى الإنجيلية الأجمل بصوتها الحلو كالسكر والذي يدفعك إذا سمعته أن تقترب من الرب. بالرغم من أنني لم أكن قادرة على إقناع جدك، ذلك الرجل العجوز العنيد، بأن يأتي معي ولو لمرة، فأنا أخطط للتحدث مع القس حول إعداد موعد الزفاف الخاص بك

عندما تنتهي من جولتك. لذا أحضر كاميل معك، فسوف تحتاج إلى التعرف عليه وعلى كافة الترتيبات".

"جدتي -".

لا، لا يا ماركوس، ولا كلمة. إنني أهرم باطراد، وبإمكانك رؤية حالة جدك. أريد أن تقر عيني باستقرارك قبل أن أغادر الحياة. أنت في السابعة والثلاثين من العمر. لقد آن الأوان".

شبكت يدها في يدي، ثم سألتني وهي تنظر مباشرة إلى عيني: "هل تسمعني؟".

"نعم، سيدتي".

"حسناً. الآن اغطس في الفطائر والبيض التي حضرتها لك، إنها تماماً على الطريقة التي تحبها. أترى، أنا لا أنسى، بغض النظر عما قد يخبرك به جدك عن ذاكرتي المتراجعة وغير ذلك من السخافات".

"نعم، سيدتي".

عندما انتهيت من تناول الطعام، جلست معها فترة من الوقت نتجاذب أطراف الحديث. رحت أحدثها عن أفغانستان وعن مسار الحرب هناك، فتسألني عن تارسندان، ومن ثم تخبرني بدورها عن الكتاب الذي استعارته من المكتبة العامة، والذي يتحدث عن امرأة في مثل عمرها في كابول، فيحين دوري لأبدي اهتمامي. ولا عجب والحال هذه، أنه في الوقت الذي أغادر فيه المنزل أجد أن الساعة قد بلغت التاسعة، وأني قد تأخرت بالفعل عن أداء مهامي.

في طريقي للخروج، سألني جدي عن المدة التي سأغيبها، فأجبته: "لا أعرف حتى الآن، اليوم هو الأحد، لذلك أتوقع يوم الجمعة أو نحو ذلك".

"ستأخذ سيارة والدك أم ماذا؟".

"أجل سيدي، كنت أعتزم ذلك".

"لقد قامت الجدة بالصيانة اللازمة لها في الأسبوع الماضي استعداداً لمجيئك، أو على الأقل هذا ما تقول إنها فعلته. لذلك أرجو أن تكون أمورك على ما يرام. وأتمنّى عليك القيادة بحذر، هل تسمعني؟ إنها سيارة قديمة، وأولئك الحمقى في سيارات الدفع الرباعي الكبيرة ثم مصدر الخوف الدائم لكل سائق يتبع القانون".

وقبل أن أتمكن من الإجابة، تعالى صوت الجدة تسأل من المطبخ: "جيمس، هل تشتم مرة أخرى؟".

"ما الذي تتحدثين عنه يا امرأة؟ أنا أتحدث مع حفيدي، هذا كل شيء. ألا يمكن للرجل الحصول على أي خصوصية هنا؟". ويهز رأسه باشمئزاز مكملاً: يا ***للنساء***، أنت تعرف ما أعنيه، أليس كذلك؟".

أحاول كتم ابتسامتي وأنا أقول مؤيداً: "نعم سيدي".

رافقتني العمة ثيلما إلى الباب، وأوصتني: "أحضر كاميل معك إلى المنزل، لقد مضى بعض الوقت مذ رأيناها يا بوو، ويسرني أن أرى حلوتك مرة أخرى. أذكر أنها ذات شعر جميل، وذات عينين زرقاوين كزرقة السماء في الصباح".

ترجع أصول العمة ثيلما إلى نيو أورليانز، حيث تطغى عليها لهذا السبب اللهجة العامية المحلية في بعض الأحيان، وذلك باستخدام مفردات مثل (بوو) للطفل، (الحلوة) للصديقة، وهلم جرا. كان ذلك يسبب لي إزعاجاً لا حدود له عندما كنت في سن المراهقة، ولكنني الآن أجده محبباً ويدفعني لعناقها بدل الانزعاج منها.

طلبت مني أن أقف ساكناً وهي تأخذ مقاس السترة التي تحيكها لي بوضعها على كتفيّ وظهري. وتسألني: كيف البرد هناك على أي حال؟".

أجيبها: "أفغانستان؟ إنها باردة. أعني، هناك أجزاء كاملة من البلاد تغلق لمدة ستة إلى سبعة أشهر من السنة بسبب تراكم الثلوج".

"من حسن الحظ إذاً أنك هنا الآن. لا جدوى من المعاناة في الصقيع. على كل حال، سأبذل جهدي لإنجازها قبل أن تعود. ربما يكون بمقدورك ارتداؤها في العام المقبل".

"عمتي ثيلما، سيكون الطقس شتاء أيضاً حينما أعود، ثقي بـي. المكان الذي فرزنا إليه، يستمر البرد فيه حتى نهاية شهر حزيران/مايو".

"بحق مريم المقدسة، أنا سعيدة لأنك أخبرتني! لم يكن لديّ فكرة. عليّ أن أشتري لك الملابس الداخلية التي تحفظك من البرد، يا ولدي". ثم نظرت إليّ من فوق نظاراتها متفكرة: "لقد استخدمت خيطاً صوفياً رقيقاً. لعلها ليست سميكة بما فيه الكفاية. ما رأيك؟".

"تبدو على ما يرام بالنسبة إلي".

"ينبغي على الأرجح أن أستخدم خيطاً صوفياً ممشطاً وأن أبدأ من جديد".

"حقاً، لا حاجة للقيام بذلك! سوف تكون جيدة".

"لست أدري أيّها الجرو الصغير، دعني أفكر بالأمر. امضِ في طريقك بسرعة الآن".

أزحت قماش القنب عن السيارة في المرآب، وبدت سيارة الشيفروليه أمام ناظري وكأنها ولدت بالأمس: طلاء غوغين الأحمر، شبكة كروم متألقة، فرشها الداخلي حنطي اللون ونظيف. فتحت الباب، وانزلقت إلى المقعد الأمامي، وأرحت يدي على عجلة القيادة المغطاة بالجلد المشعّ بما تركه والدي عليه من أثر. أدرت مفتاح التشغيل، ولم أتبين أن شيئاً قد حدث، ثم ضحكت مدركاً أنني قد اعتدت على هدير سيارات الهامرز والسترايكرز لدرجة أنني نسيت كيف يكون عليه الحال عند قيادة سيارة أميركية حقيقية.

انسابت بسلاسة كالحرير من المرآب المفضي إلى الشارع. أصبحت الشمس حارة منذ الآن، فشعرت بالرضى لأني ارتديت قميصاً من القطن مفتوح الياقة وبنطالاً فضفاضاً. اندمجت مع حركة المرور متوجهاً إلى شارع الحكومة... محطتي الأولى هي فيل برادي، والتي تعتبر واحدة من أفضل المنشآت الخاصة بموسيقى البلوز في باتون روج، حيث تدير كميل الحانة أربع ليال في الأسبوع.

استخدمت المدخل الخلفي، وتوقفت قبل لوحة إعلانات الموظفين للتحقق من جدول كميل الزمني لهذا الأسبوع. لقد أخذت إجازة حتى نهاية الأسبوع المقبل، أي إلى حين نهاية إجازتي. شعرت بالدم يندفع في عروقي من الترقب حين وقعت عيني على اسمها: كاميل ثيبودو. وحين استدرت هامّاً بالانصراف، رآني دوني المدير النهاري للحانة، وأقبل نحوي مسرعاً.

وقال شاداً على يدي: "مرحبا بعودتك! أين أراضيك يا رجل؟ سررت برؤيتك مجدداً! كم من الوقت ستبقى هذه المرة؟".

"سبعة أيام. كميل قالت لي أن آتي لأخذ بعض الأشياء...".

"كل شيء جاهز وبانتظارك أيها الفتى الكبير. كل ما تطمح إليه أو تطلبه شفتك ولسانك، قد أعد تماماً وفقاً للطلب. فتاتك تلك لا تبخل بشيء، أنا أقر بهذا لك. هيا تعال الآن".

"دوني، يرجى عدم تسميتي الفتى الكبير".

التفت لينظر إليّ ويضحك قبل أن يستدرك: "أنت محقّ، أيها الريّس. أنت بطل، عمَّن أتحدث أنا الآن؟ أنت بطل أميركي حقيقي كالذهب من عيار أربعة وعشرين قيراطاً. الجميع يتطلّع إليك هنا. لا أستطيع أن أصف لك مدى شعوري الغامر بالسعادة لوجودك هنا مرة أخرى".

"شكراً لك، ولكن أنا لست بطلاً. أنا ببساطة أقوم بعملي، مثلما تقومون أنتم بأعمالكم".

جعله كلامي يتمهل وينظر إلى وجهي بريبة، ثم غمز بعينه وقال: "هيا يا رجل. أنا أميز الشجاعة عندما أراها، أتفهم ما أعنيه؟" ثم مال مقترباً مني وخفّض صوته وهو يقول: "كان بودي أن ألتحق أنا أيضا، ولكن أنا لدي أسرة أعيلها، وهذا يصعّب الأمور. ولكن يا إلهي كم كنت لأحب

أن أفعل ما تفعلونه جميعكم. إذ أتصور أني ألاحق هؤلاء الإرهابيين! رأيت تقريراً في برنامج تلفزيوني وكان جميلاً يا ماركوس، جميلاً. كل هذا الحماس!".

سحب سلتين كبيرتين من الثلاجة وعلبة كرتونية من المشروبات الكحولية وأشار إلى أحد المساعدين قائلاً: "كن حذراً وأنت تحملها. ففي أسفلها قطع من الثلج لتحفظها باردة من أجل الرحلة".

عاينت السلال وصحتُ بدهشة: "يا إلهي، دوني، ماذا يوجد بداخلها؟".

وضع النظارة ليجري مسحاً بعينيه على قطعة من الورق قبل أن يقول: "دعني أرَ الآن: لديكم الفاصولياء الحمراء والأرز، كرات اللحم بصلصة الطماطم، فيتوتشيني بالقريدس، النقانق الساخنة الخاصة بنا، الأجنحة، وبو - بويس للغداء، السمك الأحمر بتوابل الكاجون للشواء في المساء، وميرليتونس طازجة لتناولها مع صلصة الروبيان بالزبدة، جراد البحر ومينيز، الأفوكادو، الفراولة، وبورسين كعكة الجبن. وبالنسبة إلى المشروب لديكم الشمبانيا، والنبيذ، ومشروب البورت لأجلك على ما أتصور، البيرة، سكوتش، بوربون... يا للعجب لقد فكرت الفتاة بكل شيء...". ثم نظر إليّ مع ابتسامة خبيثة، فانفجرت ضاحكاً.

وفي طريقنا إلى السيارة سألني: "هل ستقصدنا في نهاية هذا الأسبوع أم ماذا؟ فرق العزف هنا كثيرة".

"أيّ منها الأفضل؟".

"الأفضل هي التي تعزف عندنا، كما هو الحال دائماً. يوم الخميس، هناك أتلانتا آل تتصدر موسيقى البلوز، يوم الجمعة لدينا دكستر لي، ويوم السبت هناك مدي كريك تعزف حتى منتصف الليل".

"ربما نأتي يوم السبت إذاً، الأمر متروك لكميل".

"أنت رجل محظوظ! لقد حصلت على أعظم فتاة وأعظم وظيفة في العالم أيها الماكر، اعذرني على تلميحي".

ثم ربت على ظهري وأنا أدخل السيارة، وقال: "أراك في عطلة نهاية الأسبوع، ربما...؟".

"ربما..." ولوّحت له وأنا أغادر.

كان عليّ القيام بأمرٍ ما قبل عبور النهر. قدت السيارة مجارياً شارع الحكومة مروراً بمدرستي الثانوية القديمة، ثم انعطفت عند زاوية جيفرسون، ووقفت أمام متجر للأسطوانات الموسيقية تزيّنه نوافذ زجاجية واسعة عليها ملصقات عن الفرق الموسيقية وحفلاتها، أمامه هذا

المتجر ساحة لركن السيارات ركنت فيها شاحنة بنية معزولة، طُبع على أحد جانبيها بالحروف المجسمة "رولينغز وأبناؤه وابنته"، وعلى الجانب الآخر "نحن نشتري الأقراص المدمجة المستعملة والتسجيلات". وفوق المتجر علقت لافتة كتب عليها: "الرجل العجوز والقرص المضغوط". توقفت أمام واجهة المتجر ونظرت داخله. خلف الصندوق قبع رجل أبيض أصلع، عريض المنكبين، يرتدي قميص هارلي ديفيدسون، وباندانا أحمر مشرقا. كانت الابتسامة مرتسمة على وجهي سلفاً وأنا أفتح الباب، ووقفت هناك لحظة، حتى تعتاد عيناي نور النيون، ثم قلت: "الرقيب رولينغز، أين أنت؟".

رفع نظره عن المجلة التي كان يقرأها وصاح بصوت عال جعل جميع الزبائن يديرون رؤوسهم باتجاهنا: "الرقيب الأول ماركوس والن! حسنا، أطلق النار واجعلني أقف إلى الجدار!".

وبزوج من العكازات التي يتكئ عليها استطاع أن يناور ببراعة ليشق طريقه إليّ من بين الصناديق المتراصة المعبأة بالأقراص المدمجة والتسجيلات. التقيته في منتصف الطريق، وكانت ضحكته العريضة تملأ وجهه وقال: "هيا تعال هنا أيها العظيم، تعال لأضمك إليّ! كيف حالك؟ تبدو بحالة جيدة، يا أخي. لقد فقدت أخيراً بعضاً من الدهون التي بدأت تكسوك".

وجهت إليه لكمة مداعبةً في وجهه قبل أن أجيل بصري في أنحاء المكان محاولاً ملاحظة التغييرات التي أحدثت: "أراك أجريت توسيعات، لقد هدمت الجدار الخلفي وما شابه... وما هذا الاسم الفاخر الجديد؟ ما كان عيب اسم "مخزن الأقراص المدمجة"؟ سهل وبسيط، تماماً بالطريقة التي أحب. منذ متى أصبحت الرجل العجوز؟".

قطب وجهه محرجاً، ثم قال بامتعاض: "هذا التغيير وسيلة تحايل من وسائل التسويق يا أخي. لقد كانت هذه الفكرة فكرة ابنتي، لقد أدخلتُ أولادي إلى العمل، وهم - كما ترى - لديهم طرائق جديدة في إدارة الأعمال".

فأشرت باستخفاف إلى أقرب رف للأقراص المدمجة: "تبيع أقراص مدمجة لفرق الراب وما شابهها.. يا له من ذوق رديء! لقد كنت فيما مضى مخلصاً لموسيقى البلوز يا جين".

"عليك أن تماشي التيار يا أخي. المبيعات تنخفض، الأولاد ما عادوا يستمعون إلى البلوز المؤثر. الحقيقة هي أننا أنا وأنت ربما نكون الوحيدين الذين بقينا من جيلنا...".

"تحدث عن نفسك، أيها الجندي! ربما تكون أنت من تقدمت بالسن، أما أنا فلا أزال في السابعة والثلاثين من العمر، لذا لا تسمني بالعجوز".

"ولكن جدياً، من تعرف غيرنا في هذه الأيام، ممن هم من غير جيلنا، وهم من المعجبين بالبلوز؟ لديّ أفواه عليّ إطعامها، يا ماركوس. الفن الرديء مطلوب ومرغوب".

"حسناً، حسناً، لا حاجة لمزيد الحجج".

"كما أنني لم أتخلّ عن كل شيء تماماً"، أضاف مدافعاً، "فأنا أساعد في إقامة مهرجان البلوز هذا العام".

"أحقاً؟ متى سيكون؟ في نيسان/أبريل مرة أخرى؟".

"شيء مؤكد. كان عليك أن تؤجّل إجازتك إلى ذلك الوقت يا أخي. سنفتقد وجودك. أتذكر تلك الرحلة التي قمنا بها إلى أكسفورد، إلى براود لاري؟".

"بالتأكيد يا أخي. لقد كان هناك الكثير من دخان السجائر في ذلك اللقاء حتى أن تلك الموسيقى اصطبغت بنكهته".

"والدراجات النارية أيضا. الدراجات والمشروب. آلات الجيتار وأسماك السلور، والموسيقى تتصاعد من أعماق تراب مقاطعة مارشال. هذا أفضل ما يمكن أن تسمعه من موسيقى البلوز يا أخي. لم يحقق الهيب هوب شيئاً يشبهه".

علقت وأنا أطالعه بنظرات حانية: "هذا هو الكلام. كيف حالك بالعموم؟ كيف حال العائلة؟".

"أنا بخير، الجميع بخير. ميلي جيدة، كريسي وترافيس يساعدانني في المخزن، وحصل جين على وظيفة...".

"جين جونيور؟ اعتقدت أنه لا يزال في المدرسة...".

"لقد أنهى المدرسة. الوقت يمضي. نعم يا سيدي، إنه يكاد يصبح بطولك الآن. لقد أنهى امتحانات الـ GDE وهو الآن يعمل كمنقب عن النفط في الخليج. لقد قلت له، لا تدخل في المشاكل، لأن ذاك عمل محفوف بالمخاطر. لكنه تعامل مع نصحتي بتعالٍ، - أنت تعرف كيف هم الأولاد في هذه الأيام - وقال لي لديهم أنظمة مضمونة، يا أبـي، مضمونة. تك - نو - لوجيا ذات مستوى عالمي، هذا ما يعملون عليه. لقد قالها بهذه الطريقة: تك - نو - لوجيا. إنه يكسب المال الوفير الآن".

عانق ذراعي ثم استطرد: "أفتقدكم جميعاً! ماذا يفعل الشبان؟ ينظفون البلاد من الطالبان؟ ألا يزال كونولي يشعر بالدونية أمام فروبنيوس؟ وماذا عن براندون إسبينوسا؟ أين هو؟".

تتالت أسئلته بسرعة إلى حد استوجب مني أن أطلب منه أن يتمهل كي أجيبه: "كونولي بخير، وبقية الشباب بحال جيدة".

"ألا يزال الملازم يمارس التاي تشي الصينية الدفاعية في الصباح؟".

غلبتني الابتسامة وأنا أتذكر، وأجبت: "نعم، بالتأكيد".

"فريقنا هو المتفوق يا أخي!" قالها بصوت ينضح فخراً واعتزازاً، "أنا أحبكم جميعا. أتابع الأخبار كل يوم، ولا يمر يوم دون أن أقول: اللعنة، كان يجب أن أكون هناك! لذلك أقول لجميع الشبان الذين يأتون إلى هنا: أنت تريد أن يكون لحياتك معنى، تريد أن تشعر بوجود هدف فيها، حسناً يجدر بك أن تلتحق بالجيش".

أنا لا أعرف إذا كان الأمر بهذه البساطة يا جين". وأوليت ساقه المبتورة نظرة ذات معنى، لكنه لم ينتبه. لذلك سألته: "حسناً أخبرني، كيف حال جو؟".

أظلم وجهه وقال: "أعتقد أنك لم تسمع بالأمر. لقد مات يا صاحبـي".

"جو وودز؟ ما الذي تقوله؟".

"أكنت تعلم أنه أراد أن يشتري قارباً لصيد الجمبري بعد تسريحه وما إلى هنالك؟ لقد طفق يتحدث عن الأمر دون انقطاع، ووضع الكثير من المخططات. ولكنه طوال تلك الفترة كان يتناول الحبوب المخدرة، أتفهم ما أعنيه؟ على أي حال، وكنا تحادثنا بهذا الخصوص. وقد دعوته لتناول العشاء بضع مرات، وعلى الرغم من أن ميلي كانت تتذمر من الأمر لكونه لا يملك آداب المائدة على الإطلاق كما تعلم، إلا أنني ثبت على موقفي وقلت لها: إنه قادم إلى بيتي وهذا نهائي، ولا يهمني إن كان يملك أسلوباً راقياً لعيناً أم لا، إنه أخي! ثم سمعت أنه كان يقلّب التاكو في أحد مطاعم الوجبات السريعة متقاضياً خمس دولارات ونصف في الساعة، فعقدت العزم على الذهاب والتحدث معه مرة أخرى. وإذ بـي أقرأ في الصحف الخبر (المجند المحترف جوزيف وودز، أحد قدامى المحاربين في عملية عاصفة الصحراء، أطلق النار على رأسه بعد صراع مع الاكتئاب)".

استغرق الأمر مني بعض الوقت لأستوعب هذا الخبر. وودز "السعيد" كان آخر شخص يمكن لي أن أفكر بأنه قد ينتحر. فخرجت مني الكلمات بصورة آلية: "كان رجلا طيباً".

"تبّاً، لقد كان كذلك حقاً. أتذكر كيف كان يضحكنا حين كنا متمركزين وراء حافة الحاجز بالقرب من بغداد؟ أو تلك المرة حين هرّب الدجاجة إلى خيمة فولسوم؟ كان دائماً بارد الأعصاب في الأزمة، وكانت الابتسامة لا تفارق وجهه وكان حاضر النكتة دائماً. لكنه تغير كثيراً عندما ترك الجيش. وهذا ما جال ذهني وأردت أن أقوله له. كنت سأقترح عليه أن يعاود التحاقه بالجيش. كنت سأقول: أيها السعيد، بالنسبة إلى الرجال أمثالك، الحياة في الجيش هي أفضل ما يمكن للإنسان أن يحصل عليه. سترى العالم، وتنال الاحترام، وتحصل على راتب نظامي. يمكنك أن تؤمن ما يكفي لبناء حمام سباحة في فناء منزلك كما فعل الرقيب أول والن. ولكن قبل أن أتمكن من الوصول إليه، غادر الدنيا. كانت القوات المسلحة منزله، وقف مع إخوته فيها كتفاً إلى كتف. ولكنه حين عاد إلى هنا عاد كمشرد بلا مأوى، أتفهم ما أعنيه؟ لم يكن يملك من يقف إلى جانبه عندما حلت به الأزمة. وأعتقد أنه قد استسلم في النهاية. يا له من منحدر حاد انزلق فيه دون هوادة".

ضرب على المنضدة أمامه بإحباط قبل أن يتابع: "الأمر يقتلني يا ماركوس! نحن نخدم في الجيش حباً في بلدنا، ونحن نخدم كذلك حتى لا يضطر إخواننا للذهاب، ونحن نخدم حتى لا يضطر الفتيان الأغنياء للالتحاق بتلك المواقع، ولكن عندما نعود إلى الوطن..."، ونظر إلى الأمام مباشرة، وتهدلت خطوط فمه.

"على أي حال، لا تدعني أبدأ. إميلي تقول إنني أصبحت رجلاً عجوزاً مملاً. كل ما أستطيع قوله هو، أن السيد السعيد كان ولا بد قد وصل إلى الحضيض فلم يبق أمامه سوى الانتحار. لقد خذله قسم شؤون المحاربين القدماء إلى حد بعيد، يا رجل. أي شخص يعرّض حياته بإرادته للخطر يستحق أن يعامل بشكل أفضل من ذلك. إنها مسألة الاحترام، أتفهم ما أعنيه؟ إن أنت قاتلت يوماً ونزفت الدماء إلى جانب زملائك الجنود فإنك ستعيش تجربة لا يمكن لك شرح أثرها لشخص لم يكن هناك. إنهم ببساطة لا يفهمون".

ثم أخذ يرفع كمه، متأرجحاً بشكل كبير على عكازيه، وعلى ذراعه اليمنى، أراني الوشم الجديد: **جندي لمرة جنديٌ دائماً.**

وفي تلك اللحظة، قرر زبون شاب أبيض بضفائر مجدولة، يبدو أنه قد سمع أكثر مما يمكن أن يحتمل سماعه من حديثنا، فخرج مهتاجاً من المتجر، وبعد أن ودّعنا بنظرة احتقار.

فنظرت إلى جين معتذراً وقلت: "أعتقد أنني جعلتك للتو تفقد زبوناً".

هز كتفيه بلامبالاة وقال: ومن يكون هذا؟ إنه فتى غرّ يا أخي. إنه لا يشبهنا البتة أنت وأنا".

ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يتابع: "لا بد أنك رجل صعب المراس كي تحب موسيقى البلوز".

فقلت: "بالحديث عن البلوز، ماذا لديك لأجلي هذه المرة؟".

رد: "أفضل الأشياء يا صديقي، أفضل الأشياء". ثم انتقل بخفة على عكازيه إلى رف منخفض خلف صندوق المحاسبة وهو يقول: "لقد احتفظت بهذه من أجلك. ألق نظرة على هذه الكنوز، جميعها نادرة. لقد كلفتني ثروة، ولكن بحق الجحيم: إن الحصول عليها لذة تعادل عندي قيمتها المادية".

نزل إلى الأسفل وأحضر معه مجموعة من الأقراص المدمجة واثنين من أسطوانات الغراموفون القديمة الهشة، وقال: "انظر إلى ما حصلت عليه. هذا الذي أمامك هو قلب الإنسان الأميركي النابض".

وكمن يستحضر أرواحاً علوية سلمني الأقراص المدمجة واحداً تلو الآخر.

"هنا لايتنينغ هوبكنز وفري لويس، وبليند ليمون جيفرسون، والمفضل لديك، مسيسيبـي جون هرت المخضرم، ثم جوني لي هوكر في معزوفة هنري سوينغ كلاب، سليبـي جون استيس، بيج جو ويليامز، هونيبوي إدواردز، سون هاوس، تشارلي باتون".

فحصت غنائمه بتقدير بالغ.

"إنها لصفقة رابحة، إن هذه المحفوظات تبعث فيك حالة من النشوة الدائمة".

نقر على القرص المدمج الخاص بسليبـي جون وراح يقول: "انظر إلى هذه القطعة النادرة. إنه طبيب، أتعرف ما أعنيه؟ إنه يستخدم البلوز في العلاج...".

فعلقت: "جميعها مجموعة ثمينة ونادرة يا جين. أعني، لقد حصلت لي على جون ليي هوكر في نادي سوينغ هنري! كم من الناس حصلوا على ذلك؟ لقد فعلت خيراً يا أخي. أنت عظيم. والآن ماذا عن أسطوانات الغراموفون تلك؟".

ضحك ضحكة خافتة وقال: "آه يا ماركوس، في المرة الأولى التي وقعت عيني عليها، شعرت بقشعريرة تسري - كالكهرباء - صعوداً ونزولاً في ظهري".

فحصت الأسطوانات، وصفرت بهدوء. كانت إحداها قد صدرت عام 1930، من شركة بارامونت لبليند ليمون جيفرسون وهو يغني "بلوز الحصان الأسود - Black Horse Blues". وكانت أسطوانة أخرى أكثر قدماً: المقطعان الأول والثاني من الملك سليمان هيل "أنا أجثو على ركبتي - Down on my bended knee".

وضعتهما على منضدة المحاسبة بعناية، وقلت بمهابة: "يا للعنة، أنا لا أعرف ماذا أقول". ثم وقعت عيني على ساعتي وأشرت إليها بأسف: "عليّ المغادرة يا جين. بكم أدين لك؟".

"دعني أتحقق من حسابك من آخر مرة"، رطّب إبهامه وتصفح سجل الحسابات، ثم قال: "يبدو أنني أنا من يدين لك بثلاثة وتسعين سنتاً".

هززت رأسي نافياً وقلت: "هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً...".

أجاب وهو يعد الفكة: "هذا ما تقوله الدفاتر يا أخي".

"حسناً، إذا كان هذا ما تريد، ولكن ماذا عن هذه التحف العزيزة هنا؟".

"إنها لك مجانا. عربون ود من المتجر".

"عفواً؟".

"خذها أو اتركها يا ماركوس، الأمر تابع لك". وراح يضع الأقراص المدمجة وأسطوانات الغراموفون في صندوق من الورق المقوى.

فقلت له: "وقتي ضيق حالياً، ولكني سأعود لأدفع لك ما أنا مدين لك به، وينبغي أن تكون أكثر عقلانية حينها. لأني لا أقبل أي شيء دون مقابل".

"إلى أين أنت منطلق بهذه السرعة؟".

"أين تعتقد؟".

ابتسم قائلاً: "ذاهب إلى أتشافالايا، هاه؟ كيف هو حال المركب؟".

قلت: "أعتقد أنني سوف أعرف قريباً. إذ لم أره منذ أعادت كاميل طلاءه، لذلك أنا أرغب في ذلك".

همهم بالموافقة: "البنات الأكاديميات هؤلاء! يعملن بجد ويلعبن بجد. أنت محظوظ يا أخي. إنها فاتنة، لا تخرب هذه العلاقة".

رافقني خارجاً إلى السيارة وسألني: "ألا تزال تقود غريسي؟".

"بلا ريب، إنها جزء مني".

أصرّ على إغلاق الباب بعد أن ركبت السيارة وقال: "أبلغ كاميل سلامي، ميلي تسأل عنها باستمرار. سأخبرها بأنك مررت. إنها تصلي من أجلكم كل يوم أحد في الكنيسة".

ثم قال لي وأنا أضع نظارتي الشمسية بنبرة يشوبها الحزن: "إذا لم أتمكن من رؤيتكم مرة أخرى، بلّغ سلامي للشباب".

ابتسمت له وأنا أقول: "بالتأكيد سأفعل ذلك"،... وانطلقْت بعيداً...

في طريقي إلى الجسر مررت تحت لوحة إعلانية كبيرة اتخذت شكل غيتار عملاق كتب عليها: "بادي غاي، ابن باتون روج، موطن دلتا البلوز". عند إشارة المرور توقفت خلف سيارة هوندا سيفيك زرقاء اللون، والملصقات تغطي خلفيتها. وبينما كنت أنتظر تحول الإشارة، مررت ناظري على شعاراتها: *وثنية من الويكا وصاحبة موقف؛ الحرب ليست الحل؛ راكلة مؤخرة القديسين. أبقوا الكوكب أخضر؛ لماذا نفطنا تحت رمالهم؟ أم فخورة لطفل متوحد. كن نباتياً، احفظ حياة الحيوانات؛ تراجع إلى الوراء، إنني إلهة. حافظوا على بايو. لإراقة الدماء من أجل النفط؛ أعانق الشجر وأعبد التراب.* وأخيراً، *ادعموا قواتنا: أعيدوهم إلى الوطن!*".

على الجسر فوق المسيسيبـي، كانت هناك شاحنة بيك أب بيضاء مع رف بندقية في النافذة الخلفية وعلم الكونفدرالية يغطي لوحات الترخيص الخاصة بألاباما، راحت تغير بين المسارات دون سابق إنذار وتقطع طريقي. للحظة تخيلت أنني أضع رأس السائق تحت ذراعي وأنني أفصل رقبته عن عموده الفقري. لكني أخذت نفساً عميقاً، شغلت الراديو، واستندت إلى الوراء في مقعد من الجلد الناعم. بعد ذلك بقليل، قطع صوت متميز غريب ضوضاء المرور على المحطة I-10. إنه دي جي راديو كلت الذي يبث في باتون روج، وسفير البلوز الخاص بها، ضياء تمامي، الذي ولد في العراق، وعزف البلوز وكان مسؤولاً عن برامج موسيقى الجاز على المحطات المحلية أميركا لأكثر من ثلاثين عاماً. في الواقع، كان برنامج ضياء الأسطوري ***الاحتراق التلقائي*** - *Spontaneous Combustion* هو أول ما جعلني مدمناً على البلوز عندما كنت مراهقاً، وحيداً، وراغباً في الابتعاد عن مجموعة الهيب هوب. منذ ذلك الحين، تابعت عرضه صباح يوم الأحد، الذي استمر أربع ساعات، وشمل دائماً ساعة مخصصة لموسيقى البلوز في فقرة سماها "ركن القط الظريف". الاستماع إليه الآن يجعلني أشعر بأنني في حضن وطني مرة أخرى من نواحٍ متعددة. رفعت درجة الصوت مبتسماً وأنا أتحول إلى الخط السريع ورحت أدندن مع بليند ليمون وهو يغني: "حافظ على قبري نظيفاً - See that my grave’s kept clean".

بعد أربعين دقيقة، انعطفت تاركاً الشارع المزفّت ومتجهاً إلى طريق ترابية ضيقة تحفّ خميلة تنمو بغير انتظام على جانبيها. أطفأت المحرك واكتفيت بالجلوس هناك لبضع دقائق، لأخلي رأسي من ضجة وضوضاء المدينة. كان الجو حاراً حتى في الظل. وكنت قريباً بما فيه الكفاية من نهر جانبـي رافد لأشعر بوجود كاميل. أعدت تشغيل السيارة من جديد وقدْتُها ببطء طوال الطريق المألوف المتعرج نزولاً حتى حافة المياه، على بعد ميل باتجاه منبع النهر من مركب كاميل. وعندما وصلت منتصف الطريق، كان علي أن أبطئ السيارة إلى حد التوقف لأفسح المجال لشخص كاجوني مسن عائد من جولته الصباحية لصيد الضفادع، كي يمرّ بصعوبة بجوار السيارة. أخذ يحدق بشيء من الحذر بالرجل الأسود الذي يقود سيارة فاخرة، ولكنه فجأة ولسبب ما، تخلى عن حذره، وراح يحذرني من بعض ما صادفه في جولته من أخطار.

لم أستطع رؤية الأفعى السامة التي حذرني منها، ولكني مررت باثنين من الخنازير البرية وثعابين الماء غير المؤذية التي كانت تتشمّس في منتصف الطريق، والتي انزلقت تحت الشجيرات عند اقتراب السيارة.

أوقفت السيارة تحت صفصافة المستنقع العملاقة، جذعها وفروعها المتمايلة مغطاة بالطحالب الإسبانية. لم يعد هناك الكثير من الطحالب الإسبانية في باتون روج أو المناطق المحيطة بها بسبب الطاعون الذي ضرب المنطقة منذ سنوات، وأتساءل كم من الوقت سيمضي قبل أن يمسح ما تبقى منها في المستنقعات. أمرّر يديّ على الخيوط الرطبة، الناعمة وأقارن في فكري كم يختلف المكان هنا من عن المكان الذي أمضيت فيه بقية السنة، في قارة مختلفة على الجانب الآخر من

العالم. غلبني شعور مفاجئ من الانفصال عن المحيط، فنزلت لأفرّغ السيارة ببطء من أحمالها، وسحبت غطاء قماش القنب فوقها، ثم شققت طريقي مع السلال إلى حافة المياه. ما أن وصلت هناك حتى رميت لوحين خشبيين صغيرين باتجاه الزورق، فأبعد اصطدامهما بسرعة حفنة من الضفادع وخنزيراً صغيراً كان في غفوة. في الداخل، في مزيج مميز من الرومانسية والنظرة العملية للأمور، وجدت أن كميل قد دسّت علبة لرش الحشرات تحت باقة عملاقة من المانيوليا، وإلى جانبها بطاقة تقول: "لا أستطيع الانتظار!" مما جعلني أبتسم وأخرج من رومانسيتي لأعود إلى الواقع.

أخذت وقتي في نقل السلتين إلى القارب، مع المشروب والأقراص المدمجة. وتركت الأسطوانات في السيارة.

فككت الزورق، ووجهته نحو التيار. الوحل المحاذي للضفة شبيه بمستنقع أتشافالايا، فلا هو بالماء ولا هو بالأرض اليابسة. أشجار التوبيلوس عانقت ضفتي الجدول، في حين امتد الصفصاف الذي أوشك على أن يكون أفقياً، مداعباً وجه المياه بفروعه الدانية. أحاطت بـي زنابق الماء ممتدة مع الطحلب الطري الذي خفت كثافته كلما انتقلت إلى المياه العميقة. أقلع طائر البلشون الأبيض حين انزلقت بجواره ليحط على قمة شعثاء لشجرة سرو هائلة الحجم. في مكان آخر، أخذ طائر مالك الحزين أزرق اللون كبير الحجم ينظر إليّ بحذر من الظلال. حيثما التفتُّ حولي طالعتني النباتاتُ خضراءَ تضج بالحياة. رائحة المكان التي تزكم أنفي كانت عصية على التمييز بدقة: إنها تملأ رئتي. مرة أخرى أدرك كم أحب هذا المكان، كم أحب هذه الزاوية البرية والسرية من العالم التي أدخلتني إليها فتاتي!!

تماماً قبل أن أصل إلى المنعطف الذي سوف يظهر عنده مركبنا، تناهى إلى سمعي صوت عزف كاميل على غيتارها ذي الاثني عشر وتراً. أوقفت التجذيف وجلست هناك مطرق الرأس، وأنا أستمع إلى الإيقاعات الطويلة. إنه أعذب لحن سمعته في حياتي، وهو يملأ روحي. شعرت بثقل الحرب يسقط عن كاهلي، وبأن جميع الاشتباكات والموتى قد باتوا بعيدين جداً. حاولت التشبث بهذه اللحظات ما استطعت. وعلى الرغم من أن الموسيقى قد توقفت في نهاية المطاف، إلا أنني بقيت جالساً في مكاني، مستكيناً تائهاً في سحرها.

لا شيء يتحرك، ولا أحد يبدو راغباً في كسر الصمت. طيلة سنواتي مع السرية، لم أر الرجال يوماً قد التزموا الهدوء بهذا الشكل ولمثل هذه الفترة الطويلة من الزمن. لحظات طويلة مرت قبل أن يبدأوا في الانسحاب بعيداً واحداً تلو الآخر دونما صوت، إلى أن رفعت رأسي فأدركت أنني الوحيد المتبقي هناك. بدت لي مجموعة النجوم اللامعة المكونة لدرب التبانة كنهر مضيء يعبر السماء. الليل بارد، ورياح باردة راحت تهب من الجبال. ارتجفت من البرد وضممت إلى جسمي الكنزة التي حاكتها لي العمة ثيلما. أرسلت بصري عبر السهول القاحلة الشبيهة بسطح القمر، والتي خلت تماماً من المعالم، فيما عدا العربة المتوقفة هناك. وتساءلت مرة أخرى، كما فعلت مراتٍ لا حصر لها هذه الليلة، حول الشخص الذي يشغلها. شخصياً، أنا مقتنع أنها امرأة تحت البرقع، ولكن من يدري، ربما أكون مخطئاً. هذه الأرض المسكونة بالجن مختلفة تماماً عن المكان الذي أنتمي له،

حتى بعد أدائي الواجب مرات متعددة في هذه البقاع، فأنا لا أزال لا أعلم بوضوح من هم هؤلاء الناس وما يريدون حقاً.

ألقيت نظرة أخرى على العربة قبل أن أقفز نزولاً من جدار الهيسكو. باستثناء الرياح الشديدة، فالمكان هادئ جداً لدرجة شعرت معها وكأني وحدي في العالم. ألقيت نظرة حولي ورأيت الحراس يقفون على مسافات منتظمة على طول الهيسكو. وقررت أن الوقت قد حان للقيام بجولة على ما يحيط بموقعنا. عدلت الأشرطة اللاصقة على درعي الواقي وانطلقت.

برات وباريلا هما الأوّلان في جولتي. كانا يحصّنان حفرة الهاون ويمسحان المنحدرات بشكل دوري بمناظير للرؤية الليلية. سمعني برات وأنا أقترب فتحول باتجاهي كي يتيح لي فرصة رؤية التوهج الأخضر الصامت الخاص بنظارة الرؤية الليلية الواقية الخاصة به وأستدل على مكانه. أخذت الرياح تشتد ودرجة الحرارة التي تقشعر لها الأبدان سلفاً كانت آخذة بالانخفاض.

"مرحباً، رقيب أول"، قال باريلا، في حين أن برات، وكعادته، لم يقل شيئاً. عادا إلى مسح الحقل والخلفية الضبابية للجبال.

قلت لافتاً نظرهما: "شباب أنتم هادئون بشكل مهول هذه الليلة. هل كل شيء على ما يرام؟".

تنحنح باريلا ثم قال: "تلك الموسيقى لا تزال في رأسي يا رقيب أول. كانت مثيرة للمشاعر لدرجة أني شعرت معها وكأنها تنبع من الأرض وتنبثق من الهواء في آن واحد. هل تعرف ماذا كانت تعزف؟".

أجبته: "إنه نوع من الغيتار". ثم ضحكت ضحكة خافتة قبل أن أكمل: "في وقت سابق من اليوم، أخطأ الرقيب برادفورد إذ ظنه مدفعاً رشاشاً مكسوراً".

ارتجف برات فجأة، وأخذ يفرك يديه معاً وهو يقول: "سيكون من اللطيف لو نشعل ناراً لنتدفأ".

فأجبته: "ستكون حينها صيداً ثميناً ولقمة سائغة لكل متمرد يتربص حولنا ولو على مسافة أميال من هنا".

قال: "أعرف يا رقيب أول. أنا فقط أتخيل...".

قال له باريلا: "داوم النظر إلى تلك النجوم يا أخي وهي ستبقيك دافئاً. فأنت لا تراها في لوس أنجلوس".

رد بارت ساخراً: "النجوم! في مسقط رأسي أحصل على الدزينة منها بسنت. يمكنك حتى التقاطها في محل البقالة المحلي".

ابتسم باريلا وقال: "صحيح، لقد نسيت أنك من ألاسكا، أيها الدب الكبير".

استدرت للذهاب، ولكن باريلا أوقفني إذ قال: "رقيب أول، لدي سؤال".

"ما هو؟".

"هل تعتقد أن فتيات البلاي بوي يبدوْن أفضل بالملابس منهن عاريات؟".

ابتسمت، وضحك برات وقال: "أراهن على أن آل موسلمان سيشعرون بالغبطة".

قلت لهما: "هذا مضحك جداً. أستطيع أن أرى ما الذي يشغل بالكما. فقط حافظا على تركيزكما على العمل أو سيتسنى لكما قريباً تحية عذراوات السماء الاثنتين والسبعين بنفسيكما".

قال باريلا: "لا أستطيع الانتظار، ذاك يوم المنى".

فهتف به برات ممازحاً: "باستثناء أنك ذاهب على الأغلب إلى الجحيم".

"ليس في حياتك، أيها الشاب. أستطيع أن أرى نفسي من الآن ملاكاً محلقاً حول رأسك وأعزف القيثارة".

محطتي التالية كانت عند الرجال الذين يحرسون نقطة مراقبة الدخول. استطعت تمييز دوغال وليي، في حين كان جاكسون نائماً في المخبأ الأرضي. كل شيء يسير بانتظام، مع اثنين من الرجال يقومان بالمراقبة وواحد يستريح ليتولى بعدهما المهمة في وقت لاحق. اصطفت بدقة على حاجز الرمل أمامهم كشافات الليزر، بنادق مع مناظير الرؤية الليلية، وأجهزة مراقبة ليلية.

رآني دوغال فأقبل نحوي قائلاً: "مرحبا يا رقيب أول، ما رأيك بعزفها؟ كان ذلك شيئاً جيداً، أليس كذلك؟ ومن المؤكد أنها جعلت من التركيز على العمل أمراً صعباً. ذكرتني بالموسيقى التي عزفها الناس قديماً".

"في كاليفورنيا؟".

تردد، ثم ابتسم وأجاب: "لا أبداً، في البنجاب".

سألته: "أتعرف ما الآلة التي كانت تعزف عليها؟".

قال: "سألت مسعود، وقد قال لي إنها أداة ذات اثني عشر وتراً، مثل العود. تنقر وترها فتعطي ذلك الصوت الذي سمعناه الليلة... مثل قطرات المطر على سطح الماء".

"اثنا عشر وتراً، هاه؟ هذا يفسر الأمر".

"رقيب أول...؟".

"لا تهتم. أنا فقط أتحدث إلى نفسي. هل تعرف إذا كان له اسم؟".

"مسعود يطلق عليه اسم الرباب".

هجأته محاولاً استطلاع آلية اللفظ في فمي: "ر - با - ب... شكراً، سأحاول أن أتذكر ذلك".

ثم التقطت واحداً من مناظير الرؤية الليلية ودققت في العربة. لم أستطع رؤية الكثير، وبعد فترة وضعت المنظار جانباً مرة أخرى: "والآن كيف هي الأمور مع مسعود؟ هل بدأتم تتكيّفون معه؟".

نظر إلى وجهي محرجاً وأخذ يعبث بمسدسه متململاً، ثم قال: "الأمور معقدة يا رقيب أول. هل لديك لحظة للحديث عن ذلك؟".

"شيء مؤكد. ما الأمر؟".

قال بصوت منخفض: "أود أن أبقي صوتي منخفضاً لأنني لا أريد أن أوقظ آش. في واقع الأمر أيها الرقيب أول، يجب أن تتكلم مع مسعود. أعني، منذ اليوم الأول لانتقاله إلى مهجعنا بدأ يزعجنا بأسئلته حول مهمتنا. وهو لا يصغي إلينا - بل ولا يتقبل إجاباتنا. نحن نحرص على أن نقول له: أيها الشاب، نحن لم نتطوع في الجيش كي نحمي بلدك. معظمنا تطوع للحصول على راتب منتظم وتجنب العمل في السوبرماركات المحلية لبقية حياتنا. نحن جنود مشاة، ونحن مجرد شبان أميركيين عاديين متوسطي الحال نقوم بوظيفتنا. ونحن لا نصنع القرارات. حتى القائد كونولي لا يمكنه اتخاذ تلك القرارات. الرئيس هو الذي يتولى اتخاذ تلك القرارات؛ هو، والجنرالات. نحن ننفذ أوامرهم ونفعل ما يطلبون منا القيام به. إذا أمرونا أن نبحر بالسفينة إلى إيران غداً، سنفعل. المشكلة هي أن مسعود هذا فعلاً لا يستوعب ويستمر ويستمر. ويقول دائماً: نعم، ولكن أنتم أميركيون! أنتم وصلتم إلى القمر! يمكنكم فعل أي شيء! إذا استمر لمدة أطول أيها الرقيب أول، فإن أحدنا قد يقدم على عمل مفاجئ أحمق".

نظر إليّ وملامح الرجاء على وجهه جعلتني أشعر بالغضب فجأة على المترجم، وبالتالي على المهمة الملعونة بأكملها من جهة أخرى. سيطرت على نفسي، وربّتُّ على كتفه، وبصوت هادئ وقوي، قلت له: "أنا سعيد لأنك أخبرتني، يا صاحبي. سأرى ما يمكنني فعله. أولا، سأتحدث مع مسعود. قد يساعد انتقاله من سكنكم على تهدئة النفوس. أعرف أن لدى دارن سيمونيس مساحة في كوخه. دعني أفكر في الأمر".

كان امتنانه واضحاً؛ فقد أشرق وجهه على الفور: "مليون شكر يا رقيب أول. أنا فعلاً ممتن لذلك".

"أهلاً وسهلاً أيها الجندي. هل من شيء آخر؟".

"لا شيء البتة، رقيب أول. هذا كل شيء".

"حسناً، سأخبرك بمجريات الأمور لاحقاً".

نظرت إلى السماء وأنا أسير مبتعداً. هناك في الأعلى، تراءى في البعيد متقاطعاً مع درب التبانة، خلفته طائرة غريبة وراءها من آثار احتراق الوقود أثر رمادي. ثم طارت ورقة أمام وجهي وتقلبت على الأرض مندفعة نحو الأمام. انحنيت وتناولتها: كانت تفوح برائحة الجبال. شعور غريب غمرني فجأة وأنا أنظر إلى الحقل. فبدلاً من الأرض الصلبة كانت هناك طبقة رقيقة من المياه بين جدران الهيسكو والجبال. لمحت القصب الأسود، وعشب الأهوار، وجذوع السرو المتضخمة. الرياح تهب فتثير تموجات فيها. شعرت بنصل خنجر يمزق أحشائي وكدت ألهث بصوت عال. ظلال الهواء تميل إلى الرمادي. وهناك طنين في أذنيّ. أغلق عينيّ وأفتحهما مرة أخرى ولكن لا تغيير: لا يزال بإمكاني رؤية المياه ترتطم بجدار الهيسكو وتكاد تغمر الأسلاك الشائكة تحتها. راقبت السماء حيث أصبح أثر الطائرة أقل وضوحاً. وصفعت نفسي بقوة على الخدين قبل النظر إلى الأسفل مرة أخرى. بدأ الماء بالتلاشي؛ فقد انزلق هنا وهناك، وتقلص مستحيلاً إلى برك، ومتسرباً في شقوق الأرض. إنه يلمع وأنا أعبّ روائح الأرض الحلوة، الرطبة.

ثم انتهى.

من الظلام ورائي، سمعت باريلا يصيح: "أأنت بخير يا رقيب أول؟".

أجبت: "أنا بخير".

كنت أرتجف من البرد. أفلتّ الورقة من يدي وشاهدتها ترفرف نزولاً إلى الأرض.

فكرتّ كم أنا بحاجة إلى بعض القهوة، فالتعب قد استنفد قوّتي. أدركت أنني لم أتناول العشاء، وعلى الأرجح أن جسمي سيخدمني على نحو أفضل إذا ما اعتنيت بتغذية نفسي. انعطفت مبتعداً عن جدار الهيسكو وتوجهت إلى خيمة الطعام. كانت رياح عاصفة تضرب الخيمة وأنا أخفض رأسي لأدخل. أمسكت وجبة جاهزة باردة، فتحت العلبة، وصببت الماء في البطانة للسماح للمواد الكيميائية بتسخين الطعام. وعندما يغدو ساخناً أبتلعه في عجالة محاولاً عدم مقارنته بوجباتي في المركب مع كاميل. مددت يدي إلى قميصي لألمس القلادة الصغيرة التي أعطتني إياها لأضعها في سلسلة حول عنقي. إنها فضية من روائع المغرب مخرمة وتمثل كف فاطمة. كانت قد وجدتها في السوق الشعبي في نيو أورليانز، وعرفت في اللحظة التي وقعت عينها عليها أنها يجب أن تقتنيها من أجلي. أرحْتُ يدي عليها للحظة قبل أن أدسها في الداخل مرة أخرى.

كنت على وشك الخروج حين سمعت جلبةً وراء الخيمة حدا بي الأمر إلى الاستنفار والتبديل فوراً إلى وضع القتال. دونما أي صوت وضعت قدح القهوة فوق علبة كرتونية، وسحبت

مسدسي 9 ملم وتسللت منحنياً حول زاوية الخيمة. هناك في مساحة ضيقة بين منصتين كدست عليهما عبوات قوارير الماء البلاستيكية، قبع جندي على الأرض، رأسه إلى الأسفل ويداه حول ركبتيه. رفع وجهه عندما خفضت مسدسي، فعرفت فيه غارسيا من الفرقة الأولى، وقد غمرت وجهه الدموع. تنحنح ومسح وجهه بيده بسرعة.

حدّق كل منا إلى الآخر، بشيء من الضياع.

بادرته برد الفعل الأول فقلت: "ماذا يحدث يا ريك؟ هل أنت بخير؟".

"أنا آسف أيها الرقيب أول... كنت بحاجة إلى بعض الخصوصية، ولا يمكنني الحصول عليها في المهجع الذي أنا فيه"، وتنحنح ثانية. فركعت قربه سائلاً بلطف: "هل تريد التحدث؟".

اختنق صوته بنشيج ما لبث أن تحول إلى بكاء مرير جعله غير قادر على التعبير عما يعتلج في داخله، فاستحال عليَّ فهم ما يقوله. فوضعت يدي على كتفه، وقد بدا لي أن هذا يساعده على التماسك.

"خذ وقتك يا بنيّ، لسنا في عجلة من أمرنا".

"أنا آسف جداً، رقيب أول، لا بد وأنك تفكر الآن أنه لا فائدة ترجى مني...".

"لست أفكر على هذا النحو على الإطلاق. فقط أخبرني ما الذي يجري، ودعنا نعرف ما إذا كنا نستطيع إصلاحه".

"لا أدري إذا كان الإصلاح ممكناً، ليس من هنا على الأقل". رنت كلماته الأخيرة في أذني مألوفةً. فقد سمعتها من قبل من رجالٍ آخرين، وهي عادة ما تعني شيئاً واحداً. بصوتٍ حانٍ ينضح تعاطفاً سألته: "هل مشكلتك مع امرأة، هاه؟".

أومأ إيجاباً قبل أن يقول: "حسناً، نعم ولا. ما أقصده هو أن هذا مجرد جزء من الأمر".

"حسناً، ضعني بالصورة".

تردد للحظة، ثم تهدل كتفاه إلى أسفل.

"حياتي تنهار من حولي أيها الرقيب أول. لقد خسرت بيتي. وستيس - أي ستيسي زوجتي - لم تستطع مواكبة الفواتير. حدث ذلك منذ فترة، لكنها أخفت الأمر عني، لذلك لم أكن على دراية بما كان يحدث. لقد اكتشفت ذلك للتو. لقد تركت منزلنا وانتقلت لتعيش مع رجل آخر... وهي الآن تريد الطلاق. لذلك أنا محطم. حياتي قد انتهت، وليس بمقدوري فعل أي شيء حيال ذلك لأنني لم أعلم بما يجري حتى الآن. وهي لم تعطني حتى فرصة لتصحيح الأمور. قالت إنها لم تعد مهتمة بالرجل البعيد عنها، وأن لديها احتياجاتها الخاصة وأنا لم أعد قادراً أن أفي بها".

"ألديكم أطفال؟".

"لا، الحمد لله".

"حسنا، هذا أحد الأمور التي في صالحك. الآن: هل تعتقد أنه يمكن إقناعها بالموافقة على تهدئة الأمر لمدة عام ريما تعود وترتب الأمور بينكما؟".

"لا أعتقد يا رقيب أول. إن عقلها مشغول بهذا الرجل الجديد وقالت إنها تريد إنهاء العلاقة معي دون ترك أمور عالقة. وهذا ما يثير جنوني أكثر: ليس فقط معرفة أنها تتهافت على رجل آخر، بل إنها حطمت مشاريعنا في سبيل غايتها. أعني، ماذا كان يضيرها لو أنها على الأقل التزمت بتسديد دفعات الرهن العقاري؟ ليس الأمر أنني لم أكن أرسل المال لها. يا للجحيم، أنا أعيش كالخنزير هنا وأرسل لها كل شيء!".

"إذاً أين ذهب المال، هل لديك فكرة عن الأمر؟".

تردد، ثم قال على مضض: "غالباً على الحبوب يا رقيب أول".

"الحبوب؟ هل لديها تاريخ في تعاطي المخدرات؟".

"كانت قد فعلت ذلك، قبل لقائي بها. كانت مدمنة على تناول العقاقير الدوائية - لكنها تخلصت من إدمانها عندما كنا معا. لقد جعلتها تعدني. ووثقت بها لأنني كنت مجنوناً بها. أعتقد أن هذا كان خطأ مني. كل ما أعرفه هو أنها منذ لحظة مغادرتي، تحولت من كونها ستيسي الحبيبة إلى ستيسي الدراكولا بسرعة كبيرة، والحبوب هي على الأغلب ما التهم المال كله".

"وماذا ستفعل الآن؟".

ضرب جبهته براحة يده.

"ليس لديّ فكرة يا رقيب أول. كأنني إنسان وقعت عليه اللعنة..." ثم دفن رأسه فجأة في يديه وقال: "المشكلة هي أني لا أزال مجنوناً بها!".

بعد أن عرفت مؤشرات الحالة، قررت التركيز على التفاصيل العملية لإخراجه من مأزقه. سألته إذا ما كان قد تحدث إلى أي شخص آخر عن حالته.

"أوه، الرجال من الفرقة يعلمون بأمر المنزل، ولكني لم أستطع إخبارهم بأمر ستيسي. فالوضع مهين جداً".

"هوّن عليك يا ريك، لا شيء مهين في الأمر. كثير من الناس يمرون بما تواجهه الآن".

قال وهو يهز رأسه نفياً: "لا أعتقد ذلك يا رقيب أول. لا أقصد أن أختلف معك، ولكن حقيقة الأمر أنني خدعت إلى أبعد الحدود. أولاً، أنا أعلم أنه ليس بمقدوري العودة، لذلك لا أستطيع أن أحضر جلسات الاستماع في المحكمة. ثانياً، ليس لدي أي أموال في البنك لأنها أخذت كل شيء كي لا أتمكن من تحمل نفاقات تعين محامٍ. ثالثاً، حتى لو كان لدي المال، لا أستطيع الذهاب للبحث عن محامٍ دون أن أكون موجوداً هناك. ومما سمعت، فإن الوضع في محكمة الأسرة مثير للجنون. لذلك أنا مدمر كلياً كيفما توجهت. إذا قامت زوجتك بطلب الطلاق وكنت أنت على الجبهات، فأنت كرجل ميت يسير على قدمين".

أخبرته: "في هذه النقطة بالذات أنت مخطئ".

نظر إليّ وقد تملكته المفاجأة قليلاً، بينما واصلت كلامي: "سنحمي ظهرك، يا أخي، جميعنا المتواجدون هنا في القاعدة. هناك مجموعة من الناس الذين سوف يفهمون ما تمر به، لأن كثيرين منا مرّوا بتجربة مماثلة. أعتقد أنك ستكون على ما يرام، وسنجد طريقة تضمن لك أن لا تشعر بالضياع. أتريد التحدث إلى شخص آخر فقط لتصفي ذهنك؟ ماذا عن القسيس، أو المتخصصين بمعالجة إجهاد القتال لدى المقاتلين؟".

"أوه، أنا لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً يا رقيب أول".

ربّتّ على كتفه، وللمرة الأولى أشعر بأنه قد استرخى وابتسم على مضض مما فتح لي المجال لأجد مدخلاً لإقناعه باتخاذ الخطوة التالية، والتي هي طلب المشورة. أصغى إليّ بصبر حتى النهاية، ولكنّه بعد ذلك قال: "أنا أسمع ما تقول يا رقيب أول، إلا أنه قد تمّ تدريبنا لنكون أقوياء، مثل آلات الحرب أو شيء من هذا القبيل. ثم، عندما يواجهنا مثل هذا القرف، من المفترض أن نتحول على الفور إلى من يطلبون الاستشارة، كمن يمارس لعبة العقل، وهذا يجعلني أهتاج. أنا لا أريد أن ينظر إليّ على أنّني شخص ضعيف. ما الأثر الذي سيبقى مني حينئذ - من كياني الحقيقي، أياً كان ذاك - عندما ينتهي كل شيء؟ أعني حسب ما أراه فسينتهي بـي المطاف بأن أغدو شخصاً مشوشاً ومحطماً".

بدلاً من الإجابة، سحبت سيجارة، وأشعلتها فأحسست بدفئها على الفور. استندت إلى الخلف، ورحت أرقب دخان السيجارة يتلاشى في الهواء. ثم قلت: "هل تعتقد أني محطم ومشوش يا بني؟".

اتسعت عيناه دهشة وقال: "***أنت*** أيها الرقيب أول؟ بالطبع لا! أنت الشخص الأكثر ثباتاً الذي أعرفه. أنت مثل جلمود صخر".

وسحبت نفساً آخر من سيجارتي.

"هل تدخن يا ريك؟".

"لا يا رقيب أول. في الواقع لم يسبق وأن دخنت، لأني لم أستطع تحمل تكاليف هذه العادة".

تأملت في وجهه، هناك شيء نقي وحاد في ملامحه.

بلهجة عادية، قلت له: "هل هذا يعني أنك تعتقد أنني لست من نوع الأشخاص الذين لجأوا إلى استشارة أهل الخبرات يوماً؟".

بدا وكأن الفكرة قد سببت له الغصة. ثم بدأ بالسعال، الأمر الذي استغرق منه بعض الوقت حتى توقف.

في النهاية، تمكن من القول: "*أنت* ذهبت إلى مركز الاستشارات؟".

"بالطبع فعلت، ومرات كثيرة في واقع الأمر. على مدى فترتين مختلفتين في حياتي تحديداً، لأن ذلك هو عدد حالات الطلاق التي مررت بها خلال سنواتي في الخدمة".

"لا تقل هذا! أنا لا أصدق!".

"إنها الحقيقة، أيها الجندي".

بدا لي أنه قد فقد القدرة على الكلام لأنه اكتفى بالتحديق إلى وجهي. لذلك نهضت واقفاً ومددت يدي لمساعدته على النهوض. كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع هذه النهاية المفاجئة لمحادثتنا، ولكني كنت بالفعل قد بدأت بنفض التراب عن سروالي. بقي هادئاً تماماً، وشعرت بأني أوشك أن أسمع ما يدور في خلده. وأخيرا، اعتدلت في وقفتي، واتخذت خطوة نحوه وأوقفته بشكل منتصب تماماً وقلت له: "لا توجد حلول سهلة لمشاكلك يا ريك. إذا احتجت المساعدة، فتوجه إلى من يستطيع تقديمها لك واطلبها. تواصل مع أصدقائك، تعال وتحدث معي أكثر عند بواكير الصباح. قد نقوم بإعداد جلسات لك مع مستشار في الكتيبة. سيكون لديهم أفكار لمساعدتك على الخروج مما أنت فيه. ما رأيك بهذا؟".

"لا أستطيع شكركم بما فيه الكفاية يا رقيب أول...".

"لا تشكرني، أيها الجندي. أحكم السيطرة على مشاكلك الخاصة بحيث تكون حاضراً لتقديم العون لشخصٍ آخر عندما يحتاج إلى مساعدتك. هكذا يكون العدل، ألا توافقني؟".

"بلى يا رقيب أول، بالتأكيد".

"نحن فرقة من الإخوة، أليس كذلك؟".

أومأ بحماس.

"حسناً. الآن اذهب وامنح نفسك قسطاً من الراحة. إنه لأمر مدهش ما يمكن للنوم العميق ليلاً أن يصنعه للجسم والعقل. ولا تنس أن تقدم لي تقريراً في الصباح. سيكون يوم غدٍ يوماً جديداً تماماً في حياتك".

"شكراً لك مرة أخرى يا رقيب أول".

وضع خوذة الحماية، وراقبته حين تحرك باتجاه مهجعه. كانت كتفاه متهدلتين قليلاً، ولكنّي آمل بأن يساعده شبابه على العودة إلى توازنه سريعاً. أما بالنسبة إلى سوزي روتن كروتش وأمثالها من النساء في العالم، فليذهبن إلى الجحيم. إنهن غير جديرات حتى بظفر الرجال الذين يعملون بصمت في الخدمة العسكرية، والذين تقرر هؤلاء النساء التخلي عنهم وخيانتهم.

عند تلك الملاحظة المريرة التي خطرت في بالي، تناولت قدحي من شراب غريس - غريس واستأنفت جولتي الليلية. عدت إلى جدران الهيسكو، وشرعت في استكمال جولتي. قمت بها ببطء، ووقفت عند كل موضع للدردشة مع الرجال. في نهاية المطاف، قفلت عائداً مرة أخرى إلى مركز نقطة الدخول التي يقوم على حراستها دوغال وليي، فألفيت جاكسون قد حل محل دوغال الذي رقد نائماً في المخبأ الأرضي.

"مرحبا، رقيب أول"، قال جاكسون محيياً. في حين نظر ليي نحوي من فوق منظاره وارتعش: "إن الجو بارد جداً إلى حد يجعلني أتمنى لو أنني في مهجعي".

ابتسمتُ والتقطتُ جهاز المراقبة الليلي الخاص بدوغال النائم ومسحت الحقل في الخارج. فرأيت أن ما كان يبدو للعين المجردة على أنه سهل شاحب، دون سمة مميزة، أضحى الآن كفسحة خضراء، تقف العربة كبقعة سوداء معزولة في وسطه. وضعت جهاز المراقبة من يدي ونظرت مرة أخرى إلى الحقل في ضوء النجوم الفضي، فألفيته كما لو أنه مغطى بالثلوج.

تنهد جاكسون بصوت مسموع قبل أن يقول: "هناك شيء ما في هذا المكان يخيفني في الليل"، ثم أشار إلى العربة وتابع: "أنا لا أعرف كيف يمكنها أن تتحمل أن تكون هناك وحدها، مع الجبال المهيمنة فوقها بهذا الشكل. أنا متأكد بأنني سأعجز عن القيام بذلك".

عقّب ليي: "وفقاً لمسعود، إنها تسمى الجبال الحمر".

أضاف جاكسون: "مسعود يقول إن الباشتون مجانين بكل معنى الكلمة".

أصدر ليي صوتاً كالنخير وقال: "مسعود!" ولكن قبل أن يكمل قاطعته سارداً ملاحظتي الشخصية: "إن اسم الجبال مثير للاهتمام بالنسبة إليّ، بالنظر إلى أنني من باتون روج، والذي معناه العصا الحمراء".

ابتسم ليي فجأة وقال: "بلا مزاح! أنا وُلدت في مراكش، في المغرب، والتي تعرف أيضا باسم المدينة الحمراء".

أتى ردُّ جاكسون على هذا الخبر المفاجئ عنيفاً بشكل مثير للانتباه: "اعتقدت أنك كوري يا رجل".

أجابه ليي باعتزاز: "أنا أميركي، يا وجه النحس".

"حسناً يا أميركي. ما الذي كنت تفعله في الجزيرة العربية؟".

"الجزيرة العربية؟ من أين أتيت بهذا؟ المغرب في شمال أفريقيا، يا ذا الرأس الأجوف".

"لا بأس، أفريقيا. ماذا كنت تفعل في أفريقيا؟".

"لم أكن أفعل شيئاً، أيها المعتوه، ألم تسمع ما أقول؟ لقد ولدت هناك، ولا يد لي بالأمر".

ولكن جاكسون لم يكن ممن يتراجعون بسهولة فما انفك يلح عليه: "حسناً، ماذا كان يعمل والداك في أفريقيا؟"، ثم ضحك ساخراً قبل أن يكمل: "أعني إلى جانب العمل على إنجابك".

قال ليي بحنق مهدداً: "الأفضل لك أن تراقب ما تتفوه به، أيها السافل".

"فإذاً...؟" سأله جاكسون، مصمماً على الوصول إلى لب هذا الموضوع الغامض، "ماذا كانا يفعلان؟".

"كانا من الرحالة يا رجل. كانا يعشقان نمط المعيشة البديل كله بما فيه من تدخين الحشيش ورؤية العالم، وفي مراكش يزعمون أن الحشيش قوي جداً".

صاح جاكسون غير مصدق: "كوريون هيبيّون إذاً؟".

"يا رجل، أنت بحاجة حقاً لأن تعيد النظر في موقفك"، قال ليي بامتعاض. "أقصد أنك تجنح لإعطاء تعميمات واسعة".

"أياً كان"، قال جاكسون، ثم ضحك مستزيداً: "فما الذي حدث إذاً؟ كانوا يدخنون الحشيش وانبثقت أنت ببساطة مثل الجني؟".

"اللعنة عليك!" ردّ ليي، ثم قال ناظراً إلي: "اعذرنا يا رقيب أول".

ثم انثنى على جاكسون مرة أخرى، وقال: "لقد ولدت خديجاً سابقاً للأوان بشهر، حسناً؟ في وسط ساحة شهيرة حقاً في مراكش تسمى جامع الفنا. يمكنك البحث عنها في خريطة ما إذا أردت

معرفة أين تقع. يا إلهي، وأنت ظننت أنه كان في الجزيرة العربية! أنت تحتاج إلى شيء من التثقيف، يا رجل".

"يا للسخف! الساحة الشهيرة"، قال جاكسون ساخراً.

فأتاه رد ليي لاذعاً: "على الأقل ولدت في مكان ما مختلف عن المألوف. أعني، أنت حتى لم تغادر أمبراس، مينيسوتا، إلى أن انضممت إلى الجيش. إذا قارنت المكانين على مقياس سي دي آي، فإن مكان ولادتي سيعطي عشرة على عشرة، في حين أن مكان ولادتك ربما لن يتجاوز حتى الصفر".

أحس جاكسون بالهزيمة التامة أمام هذه الضربة القوية، فتراجع ولاذ بالصمت.

سألتهما: "ما هو مقياس سي دي آي؟".

أجابني ليي: "إنه مقياس متعلق بما يعجب الفتيات أيها الرقيب أول"، في حين التزم جاكسون الصمت بحزن.

مستشعراً النصر، استعد ليي لتوجيه الضربة القاضية لجاكسون: "جاكسون ما كان ليفهم الأمر أيها الرقيب أول، لأنه لم يعرف يوماً معنى أن يكون شخصاً جذاباً".

انتصب جاكسون واقفاً وراح يتمطى، ثم نظر من علٍ إلى ليي القصير والبدين متعمّداً التثاؤب.

وقال: "اللعنة ومن يهتم يا جاستين؟ أعني، كم عدد الفتيات اللواتي أقمت علاقة معهن؟ وحتى إن كان عدد أولئك الحبيبات أكثر بكثير مما أتوقع، فما أهمية ذلك في نهاية الأمر؟ لعل ارتفاع مؤشر نقاطك على مقياس سي دي آي سوف يساعدك على الحصول على فتاة، ولكن هل هذا يعني أن علاقتكما ستكون أفضل بسبب ذلك؟ وإذا حدث في يوم ما أن هذه الفتاة قد أصبحت زوجتك أو حبيبتك فإنها ستلازمك على الدوام. تحياتي عندها لمقياس سي دي آي الخاص بكم". وأشار جاكسون إليَّ ثانية: "أعذرنا أيها الرقيب أول".

علقتُ: "من جهتي، فأنا لا أعتقد بأنني سمعت مثل هذا من قبل".

فأجاب متفاخراً: لقد اخترعته للتو"، ثم التفت ليصب انتباهه على ليي ثانيةً: "وهذا يرينا فقط أين تكمن ثقافتك. إنها تظهر عندما يتعلق الأمر بالأشياء المهمة في الحياة، يا أيها السمين. قد لا أكون متعلماً، هذا صحيح، ولكن على الأقل فإن جهلي يبقى سطحياً، في حين يصل الغباء عندك إلى العظام".

رد ليي: "لا تتطرق إلى تلك النواحي يا جاكسون. إنك غبـي إلى درجة لو أن الرقيب أول كان ليضع ثمناً مقابل الهواء لكنت سأحصل على مالك كله".

أجابه جاكسون بفتور: "أنا أفضل ممارسة الجنس على المال، يا رجل. لكنك طبعاً ما كنت لتعرف الفرق".

سألته: "هل نلْتَ من فتاة ما في الوطن يا جاكسون؟".

ظهر عليه الارتباك بوضوح وقال بصوت أكثر ليونة: "آه... نعم يا رقيب أول. اسمها كيمبرلي. إنها تدرس الأدب الإنكليزي"، وأضاف بشيء من الرهبة: "إنها ترتاد كلية مرموقة وما إلى ذلك. وهي تريد أن تصبح صحافية".

غمغم ليي: "أدب إنكليزي. كالشواذ".

فرد جاكسون بصوت حاسم: "أياً كان أيها المعاق. لا تتحدث كما لو أنك حصلت على براءة اختراع على الذكاء أو شيء من هذا القبيل".

لسبب ما، يبدو أن تعليقه هذا أثار حفيظة ليي الذي وجد أن جاكسون قد تجاوز حدود المسموح به. فوضع بندقيته أرضاً وهبّ واقفاً على قدميه. وقف الاثنان وجهاً لوجه، وأخذا يحدجان بعضهما بنظرات مشتعلة، إلى أن تدخلت، فقلت بصرامة: "هذا يكفي، يا شباب. أوقفا هذا النقاش".

وبالنظر إلى المنعطف الذي أخذته المحادثة، قررت أنه من الحكمة عدم ذكر قلادتي التي على شكل يد والتحدث عن أصولها المغربية. بدلاً من ذلك، عدت إلى المنظار الليلي أمسح به الحقل. هناك ضباب قادم من الجبال وقد غطى المنحدرات سريعاً. وهو يتدحرج نحونا في موجات شفافة. وسرعان ما بات متعذراً عليّ رؤية العربة أو أي شيء من حولها".

حدق جاكسون إلى الجدار المتقدم والتقط بندقيته.

"هذا يثير حفيظتي أيها الرقيب أول"، قال فجأة. "الوضع يشبه إلى حد ما عندما ضربت العاصفة الرملية، ولكن بصورة مختلفة".

"الجو أشد برودة"، قال ليي، مقراً ما هو بديهي. ثم، أعرب عما يجول في أذهاننا جميعاً، إذ سألني: "هل تعتقد أنهم سوف يهاجموننا مرة أخرى يا رقيب أول؟".

قبل أن أتمكن من الرد، قال جاكسون: "أتمنى لو أنهم يفعلون ذلك وننتهي من الموضوع. أن نبقى معلقين هكذا دون أن نفعل شيئاً أمر يثير أعصابـي للغاية. أنا أفضل أن أقوم بالقتل بدل الراحة، إن كنت تعرف ما أعنيه".

أومأ ليي متفهماً: "في القتال شفاء، يا رجل".

ردّ جاكسون بصوت جليدي: "غير أنه ليس شفاء وحسب هذه المرة بالنسبة لي. هذه المرة المسألة شخصية. أنا لا أطيق صبراً حتى عودة أولئك الأوباش لأنتقم منهم لما فعلوه لسبيتي". ثم انحنى منخفضاً ليبصق شيئاً من عصير كوبنهاغن قبل أن يكمل: "أنا أتوق للقضاء على بعض منهم يا رقيب أول. أشعر بنيران تحرقني".

نظرت إليهما وقد أدركت أننا جميعا بدأنا بإظهار ما في أنفسنا: إنه اندفاع الأدرينالين الذي يصاحب ترقب الاشتباك.

أجبته بهدوء: "حسناً، إن وعينا لظرفنا الآن هو أفضل مما كان عليه قبل العاصفة الرملية. إذا ظهروا هذه الليلة، فسوف يبرزون كأجسام دافئة في أجهزة تقصي المعالم الحرارية لديكم، بوجود الضباب أو عدمه. ثم يمكنكم جميعاً أن تعملوا على القضاء عليهم. سوف يكون الأمر أمامكم مثل التدرب على إصابة الأهداف".

من الأفضل أن يكون الأمر كذلك"، قال جاكسون باقتضاب.

علق ليي: "رغم ذلك أنا لا أريد أن أصيب الفتاة عن طريق الخطأ. تلك الألحان التي عزفتها كانت عذبة".

رد جاكسون دونما تأثر: "سيكون ذلك من سوء حظها. ما كان لها أن تبقى في منطقة حربية أصلاً، فإن أصيبت فسيكون ذلك من الأضرار الجانبية".

ران صمت مفاجئ إثر عبارة جاكسون. فصوته الذي لم يرفعه بدا غير مكترث وبارداً. مما دفع ليي إلى التحديق به كمن ينتظر تفسيراً، ولكنه عندما لم يتلق أي شيء بالمقابل، انفجر قائلاً: "جاكسون، أنت ليس لديك تقدير للأشياء الجميلة في الحياة. لا شيء على الإطلاق، بتاتاً ونهائياً. ترى بحراً من الضباب الدوّار وكل ما يمكن أن يخطر ببالك هو ساحة للقتل. أنا أرى الشيء نفسه فأفكر كيف أنه يشبه حلماً أو أي شيء من هذا القبيل. هذا هو الفرق بيني وبينك".

رد جاكسون بهدوء: "ذاك يجعل مني جندياً أفضل". ثم، بمزيد من الزخم، سفّه نظرة ليي للأمور: "حلم ملعون إذاً، فليذهب إلى الجحيم...".

لكنه لم ينه كلامه لأن ليي توتر فجأة وصاح: "حركة في الميدان!".

تناولت منظار الأسلحة الحرارية بسرعة وبحثت في الضباب.

همس جاكسون: "أنا لا أرى شيئاً. أمتأكد أنت أنك لم تكن مركزاً على نبات ما أو شيء من هذا القبيل؟".

"بالطبع لا! كان في مكان ما إلى يميننا. جهة الساعة الواحدة".

مررت بنظري على الضباب، شاعراً بالصمت المشؤوم يهدر في أذنيّ. برزت العربة وسط الضباب كلطخة مظلمة. اتكأت على الهيسكو وقمت بمسح بطيء 180 درجة. هدأ الهدير في أذنيّ ولم أعد أستطيع أن أسمع سوى نفَسي المحموم. للضباب رائحة رطبة تجعلني أريد أن أتقيأ.

قال جاكسون بصوت أجش: "لا شيء. لا يوجد شيء في الحقل اللعين". ثم لاذ بالصمت ثانية، فعدت إلى سماع صوت أنفاسي المتلاحقة.

مدَّ ليي جسده إلى الأمام قاطعاً مجال رؤيتي. خفضت المنظار الحراري من يدي فرأيته يدرس العربة. التوهج الأخضر من منظاره يضيء وجهه. كان يزفر بشكل ثقيل، ثم عاد فانسحب إلى الظلام مغمغماً: "أنا لا أفهم، إنه يغمغم. كان بإمكاني أن... أقسم أنه... انتظر دقيقة! ما هذا؟".

"ما الذي تنظر إليه، ليي؟".

"عند الساعة الثانية، رقيب أول...".

أطلق جاكسون ضحكة خافتة: "هذا كرسي، يا رجل. يقف رأساً على عقب. لا بد أن الرياح السخيفة قد هبت على كومة الخردة فرمته بعيداً عنها".

قال ليي وقد بدا مغتماً للغاية: "اللعنة، إنك على حق. يجب أن ننظف تلك الكومة".

شخر جاكسون وقال: "أعتقد في بعض الأحيان أننا في فيلم سينمائي. نحن نعرف القليل جداً عن هذا المكان، إنه غير واقعي. قد نكون أيضاً الرجال المكفوفين الذين يقود بعضهم البعض عبر أرض المكفوفين. ألا تسير الأمور على هذه الشاكلة يا رقيب أول؟".

"إن جاز التعبير يا جاكسون".

"في أحد الأفلام، كان هناك مدينة كاملة من المكفوفين: رجال الشرطة، والسياسيين، والمحامين، والأطباء، والجميع. وكانت كل مجموعة كفيفة البصر لأسبابها الخاصة.

قال ليي: "أأنت متوتر يا جاكسون؟".

"بالطبع لا. لماذا؟".

"لأنك لا تتوقف عن الكلام. وأنا أجد هذا الأمر مشوشاً".

"أنت أحمق، هل تعرف ذلك؟".

قال ليي متفاجئاً: "أتريد أن نتشاجر مرة أخرى؟".

فصمت جاكسون، ثم قال: "أنا متعب فقط. أي شيء هو أفضل من هذا الانتظار. أنا فقط أحاول أن أجد طريقة تبقيني مستيقظاً".

استفزه ليي بقوله: "حاول أن تفكر، من باب التغيير".

رد جاكسون مربتاً على سلاحه الـ M-4: "على أي حال، أن ترافقني أداة القتل هذه في مثل هذا الوقت فهذا يمنحني بالتأكيد دفئاً وشعوراً غامضاً. إنه شبيه بشعور المرء الذي لا يُقهر. ووقف وثنى ذراعه على نحو مبالغ فيه: "أنا مصنوع من الصخور الصلبة، وبندقيتي الـ M-4واللانهائية".

تصدى له ليي بقوله: "لا يمكنك أن تكون مصنوعاً من اللانهائية يا رجل. إنها شيء غير ملموس".

"أيا كان يا ميكي ماوس. أميركا هي بلد العجائب".

ابتسمت بدوري وقلت له محذراً: "إذا كنت قد وصلت إلى هذا الحد من القناعات، فقد أحسنت صنعاً أيها البركان. ولكن لا تدع الفكرة تسيطر على تفكيرك؛ فأنت من المحتمل أن تموت في اللحظة التي تتخلى فيها عن حذرك".

ضحك ليي في فتور معلقاً: "لا شك في أنها ستكون نهاية وحشية لحياة قصيرة ووحشية".

صاح جاكسون بنزق: "يمكنك إغلاق فمك، أيها السافل. لقد نجوتَ حتى الآن لأنني أنا دائماً من يحمي ظهرك. معظم الناس مكانك كانوا الآن يتشاركون أجهزة الإنعاش مع أشخاص آخرين بعد إصاباتهم".

"معظم الناس لن يبقوا على قيد الحياة وأنت إلى جانبهم، يا رجل"، قال ليي بهدوء. "إنها طريقة أخرى للنظر في الكأس، أنصفه فارغ أم نصفه ممتلئ؟، وهذا هو ما أقوله. إنهم لن يكونوا قادرين على التعامل مع ملحمة الـ أنا اللامتناهية العظمة الخاصة بك".

"الأمر لا يتعلق بالأنا، أيها المتذاكي، إنه يتعلق بالـ M-4 الخاص بـي، المسبب الأسرع للموت الذي سيقف في وجه من يحاول القضاء علي. آخر رجل قد حاول ذلك شطر إلى قطعتين متناظرتين تماماً. وقد شهدت حدوث ذلك، يجب أن تقره كحقيقة علمية".

"لقد فهمت كل شيء خطأً يا رجل. سبب انفجار الرجل كان التعرض لشخصية جاكسون القاتلة. لهذا السبب ظل يهز رأسه بجنون كما لو كان في حفلة ميتاليكا".

"حسناً، المسألة تتعلق بـي أنا وسلاحي. غاية الحديث هي أنني أصير معه كالإله...".

لم تكد الكلمات تغادر شفتي جاكسون حتى بدأ ليي يلعن هامساً: "تباً، إني أراه مجدداً! إنه كلب..."، وصاح وهو يستطلع من خلال نظاراته الحرارية: "اللعنة، إنه على الأغلب شورتي!".

قال جاكسون: "لا يمكن، أنا أعرف أن تشاك تركه مع القائد كونولي لأنه طلبه منه".

أخذت استطلع الوضع من خلال نظام التحذير الحساس العسكري الخاص بـي.

ثم قال ليي: هناك أكثر من واحد! يا إلهي، ما تلك الأشياء؟

إلى يساري، أسمع باريلا يصرخ من حفرة الهاون: "تباً لهذا! ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟".

ما زلت لا أرى ما يتحدثون عنه. كل ما أستطيع رؤيته هو الضباب الملعون! كان منظاري ذو التقنية العالية مملوءاً بالضباب. ومرة أخرى رحت أبحث في الحقل، متمنياً ألا تخرج الليلة عن سيطرتنا.

ظهر دوغال مترنحاً من الملجأ الأرضي: "أيها الرفاق، ما هذه الضجة كلها؟" والتقط بندقيته بحركات غير متوازنة.

نهضت واقفاً فلمحت عيوناً تلمع في وجوه رمادية. تتراءى ثم تغيب داخل الضباب وخارجه واحد... اثنان... ثلاثة ضباع، أكبرها يمشي في المقدمة، ويليه اثنان أصغر قليلاً على كل جناح، وهي تحكم الحصار حول العربة.

همس ليي: "اللعنة عليها، فقط انظر إليها! إنها حيوانات قبيحة، انظر إلى تلك الفكوك الضخمة".

سألني جاكسون: "أتريد منا أن نصيح بصوت عال وأن نحدث ضجيجاً يا رقيب أول؟".

"انتظر لحظة أيها الجندي، دعني أفكر"، ثم أجبت: "لا. ليس لدينا أي فكرة عن كيفية رد فعلها. أنا لا أريد أن استفزها فأدفعها لمهاجمة المرأة، ونحن بعيدون جداً مما يحول دون تدخلنا إذا حدث ذلك".

"يمكننا أن نطلق عليها النار"، اقترح دوغال.

"لا يمكن الإقدام على هذه المغامرة أيضاً. من الممكن أن نصيبها. فالضباب قد جعل الرؤية صعبة لدينا".

فقال جاكسون بصبر نافد: "ماذا إذاً؟".

رفعت يدي اليسرى، وهمست: "هدوء". فكرت ثم نهضت وقلت: "التزموا الهدوء لحظة، اتفقنا؟".

ركضت إلى حفرة الهاون، برات وباريلا ينظران إليّ بترقب.

طلبت منهما: "أشعلا ضوء الكشاف وركزاه على العربة. هذا من شأنه أن يوجد حلقة من الضوء حولها ينبغي أن تخيف الحيوانات وتبعدها. فإن لم يتحقق ذلك، فسيكون من الأسهل بالنسبة إلينا إطلاق النار عليها".

انصاع برات للأمر على الفور. وانطلق شعاع قوي من الضوء ليغمر العربة.

"آمل أن لا يوقظ الأخت"، قال باريلا.

رددت عليه: "ليس بمقدورنا تلافي ذلك".

نظرت من خلال منظاري وشاهدت كيف تتحرك داخل العربة.

قال برات وهو يراقب من خلال منظار بندقيته: "الحيوانات تغادر، كان ذلك تفكيراً جيداً يا رقيب أول".

كبرت الصورة عند المكان الذي رأيتها فيه، فلمحت ظهورها وهي تتراجع في الاتجاه المعاكس. راحت تنزلق جنباً إلى جنب، وفي أعقابها ظلالها المتطاولة تختلط بالضباب. ظللت أنظر إليها من منظاري حتى شاهدتها تنحسر إلى نقاط متباعدة إلى أن اختفت.

شعرت بالاسترخاء وأنزلت الجهاز. كان برات يتطلع إلي بانتباه. فأعلنت: "لقد ذهبت الحيوانات في الوقت الراهن، ولكن لا يمكننا الاسترخاء لأنها قد تعود. اتركوا هذا الضوء مناراً قليلاً، ومن ثم أطفئوه".

سأل برات: "ألا يمكن أن نتركه مضاءً خلال الليل من أجل الفتاة يا رقيب أول؟".

"ونعطي الفرصة لقناصي طالبان للانقضاض علينا؟ استخدم عقلك، أيها الجندي". ونقرت بأصابعي على خوذته. ثم تابعت: "ولكن الزم مراقبتها إذا كان هذا يريحك. أشعلوا الإضاءة بشكل دوري في حال خطر لتلك المخلوقات أن تعاود زيارتنا"؟

قال باريلا مبتسماً: "اتفقنا يا رقيب أول. سنقوم بالعمل بشكل صحيح، يمكنك الاعتماد علينا. يا للضباع السافلة!؟".

"لقد ذكرتني بالتندرا"، قال برات فجأة: "ولكن هناك زارتنا ذات الفراء". حدقنا فيه أنا وباريلا ننتظر توضيحاً، فقال ناشراً يديه: "هذه التسمية التي نطلقها على الذئاب في المكان الذي

كنت فيه. لقد نسيت أين كنت للحظة، لست أدري ما أصابني"، وابتسم ابتسامة محرجة.

علق باريلا: "لحظة من الجنون".

"لا"، رد برات مميلاً كشافه الضوئي ومرسلاً نوره عبر الحقل وإلى المنحدرات السفلى، ومن ثم عاد به إلى العربة. ثم استطرد: "لا، أنا لم أُصَب بالجنون. ولكن أود ذلك أحياناً. لأنني لست متأكداً من أنني أفهم على الدوام الطريقة التي يتم فيها إنجاز الأمور".

فاجأني ما قال، إذ لا أعتقد أنني سمعته في أي وقت مضى يتحدث بهذا القدر من الكلام.

سألته: "أي الأمور تعني؟".

"مثل تلك الفتاة في العربة يا رقيب أول. أود أن أغطي تلك الفتاة ببطانية مناسبة وأن أضع وسادة تحت رأسها. ليس من السليم بالنسبة لها أن تكون هناك على هذا الشكل. لقد اعتقدتُ أننا هنا لمساعدة هؤلاء الناس".

"لقد أصابك مسٌّ فعلاً"، قال باريلا بسرعة، مميلاً خوذته قليلاً إلى الوراء.

رد برات: "هذا هو رأيي، لذلك أتمنى أن تتوقفوا عن ربطه بالجنون".

قلت معقباً: "لا يمكنك أن تطلق أي حكم من خلال هذا الوضع. إذ لم يسبق لنا وأن واجهنا شيئاً من هذا القبيل. نحن ما زلنا نعمل على إيجاد الطريق الأمثل لمعالجته".

"نحن نقلل من احترامها أيها الرقيب أول"، قال برات بصوتٍ منخفض. "لا أقصد الإساءة، لكن هناك خطوط لا يمكن تجاوزها. حتى هنا".

قال باريلا: "يستحسن أن يصل راميريز إلى هنا. فأنت تحتاج إلى بعض النوم".

أصر برات: "إذاً أنت لا توافقني بأني محق في هذه النقطة؟".

صاح باريلا: "يا للجحيم، كنت لأفعل ذلك لو أن الرقيب أول قرر بأن هذا ما يجب فعله! كنت سأحضر لها بطانية ورزمة الرعاية المملوءة بالأشياء المبهجة، وربما أرمي لها بعض أسطوانات TLC مجاناً أيضاً".

قلت لهما مبتسماً: "أعتقد أنه من الأفضل لكما أن تحتميا وتعودا للتركيز على أداء واجباتكما".

التزما الصمت إثر كلامي، فتركتهما لأعود إلى حيث دوغال، جاكسون، وليي ينتظرونني. وقلت لهم: "سأقوم بتفقد سريع للمحيط، ثم سأعود".

عدت للسير بمحاذاة جدران الهيسكو، ثم قطعت القاعدة ذهاباً وإياباً، وكان لخطاي صدى يتردد بين جنبات الضباب الصامت. اجتزت الأكواخ، ومركز القيادة وهو مكتب كونولي، ثم خيمة الطعام والساحة المفتوحة حيث تم ركن المركبات. حثثت الخطى عند أطلال أكواخ الجيش الوطني الأفغاني ولفتت نظري اللطخات البنية على الجدران البيضاء حيث قام بعض الجنود الأفغان بفرك الأفيون من أصابعهم. أردت تناول سيجارة، ولكني وجدت أنه ليس لدي. حاولت التركيز، ولكن هناك فكرة واحدة فقط تجول في رأسي: وهي النوم، والراحة، وإطباق عيني والاستيقاظ بعد ثماني ساعات على الأقل. عدت إلى رشدي فقط عندما ألفيت نفسي قد وصلت إلى بقايا برج المراقبة، حيث سحبت براندون إسبينوسا من النيران في وقت متأخر جداً لإنقاذه.

"لمَ يخيم الظلام هنا إلى هذا الحد؟" همس لي حينها. ثم قال: "أنا آسف، آسف جداً..." قبل أن يغمض عينيه.

أرحت رأسي إلى الدعامة الوحيدة المتبقية والتي ترتفع عمودياً ملتحمة مع الضباب. ضغطت نفسي إليها بكل ما أملك من قوة حتى بدأ ذراعاي بالاهتزاز واشتد الضغط على صدري. شعرت بأن صرخة ستنفلت مني ولكني ابتلعتها واستدرت مبتعداً بدلاً من ذلك. الضباب سميك جداً، شعرت بأن كل شيء يذوي مضمحلاً من حولي. بدأت بالركض، متخبطاً على أرض غير مستوية. مررت مسرعاً بالقرب من حبال إحدى الخيم وصناديق ذخيرة مكدسة. حاولت تجنبها ولكني تعثرت بحفرة فترنحت بتثاقل وارتطمت على أثرها بالجدار مما دفع بحيوان صغيرٍ، فأراً على الأرجح، إلى الهرب بعيداً. جثمت في مكاني بلا حراك والضباب يغلّف رأسي، وصدري، ويدي. سرت قشعريرة من البرد في جسدي. فتحاملت على نفسي رغم أنّني منهك، وتوجهت إلى نقطة مراقبة الدخول، تسلقت على جدار الهيسكو، وأخذت مكاني قرب جاكسون.

نظر إليّ ثم أومأ إلى يمينه قائلاً: "دوك في الخارج هناك".

أدرت رأسي فلمحت وميض سيجارة، ناديته: "تايلور؟".

أجابني من قلب الظلام: "أنا هنا". ضيقْتُ عينيّ ورأيته مستنداً إلى الهيسكو، يحدقُ في الحقل. قررت الذهاب إليه لنتشارك بسيجارة. فأخرج علبة أميريكان سبيريت حتى قبل أن أطلب منه. سحبت واحدة وأنا أقول متعجباً: "أميريكان سبيريت... الآن هذه سجائر فعلاً. من أين حصلت عليها؟".

قال: "رزمة وصلتني من الأحبة".

أشعلتها، وشعرت برأسي ثقيلاً، سألته إلام ينظر.

أجاب: ماذا تعتقد؟ أسلحة الدمار الشامل الخاصة بنا موجودة هناك. ما أسوأ كومة القذارة التي نقف عليها! إنها تسبب لي المرض".

قلت له: "عليك أن تسترخي، يا رجل. لا فائدة من أن تخسر نفسك متحسّراً على ما يجري. فلا شيء يمكننا أنا وأنت القيام به بشأن هذا الوضع. إنه خارج عن إرادتنا".

"منذ كم من الوقت يعرف أحدنا الآخر يا رقيب أول؟".

أجبته منهكاً: "منذ وقت طويل جداً، لماذا تسأل؟".

"لأنني أحسدك على قدرتك على الإمساك بزمام الأمور".

وتساءلت عما إذا كان ينبغي أن أخبره عن نوبة الذعر التي أصابتني منذ لحظات، ولكن قررت ألا أفعل.

وفجأة قال: "لقد قررت المغادرة. هذه هي رحلتي الأخيرة - إذا ما بقيت على قيد الحياة طبعاً".

شعرت بأني قد أُخذت على حين غرة، فكان كل ما أمكنني القيام به هو الحملقة في وجهه. سألته بعد برهة: "هل قررت ما تريد القيام به عند العودة؟".

"سأحاول دخول مدرسة الطب. سأكون أكبر سناً من معظم المتقدمين، ولكن هذا ما أريد القيام به. لدي فقط مسألة تسوية المصاريف، وأن أرى ما إذا كان بإمكاني التعامل مع الديون".

"لا أريد أن أضع لك العصي في العجلات، ولكن هذه "إذا" ضخمة عليك حلها، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد هي كذلك، ولكن لا فوز بلا مغامرة... تخافت صوته مع نهاية عبارته، ثم ضيق عينيه ونظر في وجهي متسائلاً: "إذاً ألهذا تحرص على تجديد دوراتك في الخدمة؟ وهل السبب هو يقينك بأن لا مكان لنا - نحن قدامى المحاربين - في الحياة المدنية؟".

أزعجني سؤاله، لذلك تهرّبت منه. وبدلاً من أن أجيبه، أشرتُ بيد ممدودة نحو ظلام الحقل أمامنا، وقلت بلهجة مشبعة بالسخرية: "ما الذي يمكن أن نجده في أحضان الوطن مقارنة بهذا؟".

لكنه عاود الكلام مرة أخرى: "ربما سأقيم متجراً في الأراضي الوعرة من يونغستون بعد حصولي على الدرجة الجامعية. تعويضاً عن كل القتل الذي شاهدته".

أشرت: "لا بد وأن حوادث القتل قد وقعت هناك تماماً مثلما وقعت هنا".

ابتسم بحزن وقال: "رغم كل شيء، إنها أرض وطني".

سألته: "هل أنت متأكد من هذا؟ أنا لا أريدك أن تسير بقدميك نحو الهاوية".

أجاب: "بالطبع لست متأكداً، ولكنّي أعرف شيئاً واحداً وهو أن هذه الحرب لا تستحق التضحية بأي روح أخرى. هذا ما أنا *متأكد* منه لأبعد الحدود".

تأملته كيف وقف هناك، وقد استراحت يداه على الهيسكو، وتصلب جسمه، ونسيم طفيف يحرّك شعره. شعرت بأنني أنظر إلى شخص مختلف عن ذاك الشخص الذي عرفته كل هذه السنوات.

غمغمت بصوت منخفض: "تهانينا. في هذه الحالة، لديك مخطط جيد لتمضي به".

دقق النظر في وجهي، ثم عاود النظر إلى الحقل. وبصوت هادئ قال: "لا أستطيع أن أستمر في القيام بهذا الأمر يا رقيب أول. إن تلك الفتاة هناك هي رسمياً نقطة انهياري. أنا لا أريد أن أكون جزءاً من تقرير الحالة الذي يدرجها على أنها مجرد أضرار جانبية".

قلت معترضاً: "أنت تفترض أنها بريئة. لكنك تجهل حقيقة أنه قد يكون لها علاقة مع وسائل التحايل الدينية خاصتهم".

صار صوته حاداً، وتغيّرت نظرته: "لا، أنا لا أفترض براءتها، في الواقع. ولكنني أعرف جيداً أنه إذا تبين أنها انتحارية، فهي لن تكون كذلك لأنها تكره ديننا. أعني، شخصياً ليس لدي دين. ستكون كذلك لأننا قتلنا شقيقها ولأننا في بلدهم. ما مدى صعوبة فهم ذلك؟ عندما تقتل الناس وتبيد أسرهم، وتشوه منازلهم وتحرق قراهم، وتبعثر حقولهم بالقنابل المتشظية وتقتل ماشيتهم، فإنك تفقد معركة كسب القلوب والعقول. أعني، من نحاول أن نخدع؟ أنفسنا؟ أمن المستغرب أنهم يقاتلون؟ نحن لن نكسب هذه الحرب، نحن نخلق أعداء لمدى الحياة. لقد حان الوقت للاعتراف بأن قيادتنا الخاصة تحيطنا بالأكاذيب".

لم أردّ. بالمجمل، لا أستطيع أن أنفي بأني أرى مآل ما يجري. ومع هذا شعرت بمزيج من التفهم والندم. وأكثر من أي شيء آخر فإن خطبته العنيفة الموجزة تلك أغرقتني بالإنهاك أكثر حتى ذي قبل.

سألني، دون أن ينظر إلي: "أما من جواب؟".

كان كل ما استطعت أن أجمع من كلمات لتشكل جوابـي له هو: "يبدو لي أنك كنت بحاجة للتنفيس عما يثقل كاهلك".

رد بحرقة: "وأنا لم أنته بعد. لقد تعبت من ممارسة ألعاب الصبيان تلك. يؤلمني أن أكون محاطاً بشباب من ذوي تسعة عشر أو عشرين ربيعاً، والذين خدعوهم ليعتقدوا بأنهم يخوضون معركة لأسباب شريفة. لقد تجاوزت العمر الذي أستطيع فيه أن أقوم بهذه الحيل - حيلاً مع شبان يافعين يفتقرون إلى النضج الكافي لفهم عواقب أعمالهم، على أنفسهم وعلى الأشخاص الذين يريدون أن يقتلوهم. يؤلمني تأمين مجموعة لا حصر لها من حبوب الوصفات الطبية لمساعدة هؤلاء

الأطفال على التعامل مع مخاوفهم وارتباكهم وشعورهم بالذنب. أنت تعرف ما أعنيه: أنا حارس بوابة سافل تفضي إلى وادي الدمى. وأنا لم أعد قادراً على التحمل أكثر من ذلك. لقد فقدت قدرتي على الادعاء".

توقف بغتة واستدار نحوي مكملاً: "أنا لا أعرف ما هو موقفك. ولكن لم أعد أستطيع النظر إلى نفسي في المرآة. لقد فقدت إيماني - هل تعلم لماذا؟" أشار نحو الحقل قبل أن يكمل: "**هذا هو** السبب. إن الجيوش لا تكسب الحروب، إنما الناس هم من يكسبونها. الناس يشعرون بمجريات الأحداث بالتضحية، بالخسارة، وبالحزن. الباشتون في هذه الحرب هم الشعب. وهذه الفتاة بدون ساقين في عربتها هي جزء منه. إنهم يعلمون لماذا يقاتلون - إنهم يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة، من أجل بيوتهم وفي سبيل معتقداتهم. حسناً، ولنفرض جدلاً أن هذه المعتقدات فاسدة، فإذاً من أجل ماذا نحارب نحن؟ لدينا أولاد هنا، خيارهم الوحيد في الحياة إما الجيش أو العيش على طريقة ميثلاند*. لا ريب أننا قد حُزنا وسائل حرب عالية التقنية، وكل استراتيجية مدرسية أشرقت عليها الشمس. لكن ذلك لا يهم، فمقاليعهم وحجارتهم أقوى من أسلحتنا، وأمتهم أقوى من جيشنا".

ترك سيجارته تقع على الأرض وداسها بحذائه.

"في اللحظة التي ظهرت فيها الفتاة، عرفت أن أمرنا قد انتهى. إذا كان موت الملازم فروبنيوس بداية النهاية لنا، فهي تجسد خاتمتها. أعني، فكّر بكل أولئك الذين بدأوا معنا في العراق - ديف هندريكس، بريان كاسترو، براندون إسبينوسا، برادلي فولسوم - ذهبوا جميعاً. لماذا؟ لأجل ماذا؟

إذاً هذا هو الأمر. لقد اكتفيت الآن. وقد بحْتُ لك بما يعتلج في نفسي".

أطفأتُ سيجارتي. كنت أشعر بالتعب ينهشني على نحو لا يصدق، وبطريقة ما، فإن الصمت المشحون الذي أتبع خطبة دوك المسهبة جعل الأمر أسوأ. استدرت مبتعداً عنه بغتة، وقلت: "حظاً طيباً". أومأت بضع مرات ونزلت من على الهيسكو. أوضحت له: "يجب أن أذهب، لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر أقوله الآن". ربما كان يتوقع مني المزيد، لكنه لن يحصل عليه. ببساطة لا رغبة لي بأن أستفيض، ليس في هذا الوقت من الليل، على الأقل. وليس عندما أعرف أن رفاقي ينتظرونني بصبر مع بنادقهم. قد يكونون شباباً، ولكن الإنهاك الذي يشعرون به قديم قدم الزمن. وفي الحين ذاته، كنت أشعر بعيني دوك اللتين تكادان تخترقانني وأنا أسير ببطء عائداً إلى نقطة مراقبة الدخول، والليل يلفني مختلطاً بالضباب.

على الساعة 03:00 انتهت مناوبتي وتوجهت إلى كوخ ضباط الصف. جثمت الغيوم الداكنة فوق السهل؛ وكان الضباب أكثر سمكاً من أي وقت مضى. القدرة على الرؤية تقترب من الصفر، وكل شيء غدا ظلالاً سوداً ورمادية. ارتعشت من البرد، وتعثرت على الأرض المغطاة بالصقيع. إن التأرجح بين الحرارة العالية والبرد الشديد قد بدأ يرهقني. الجغرافيا ليست نقطة قوتي،

ولكني أعتقد أن المناخ يجب أن يتطابق مع الارتفاع والموقع: نحن في صحراء غير ساحلية على ارتفاع 3.600 قدم فوق مستوى سطح البحر. أحاول عدم إجراء مقارنة غير مواتية مع أتشافالايا وأخفق بشكل محزن كالعادة.

دخلت الكوخ وأيقظتُ بديلي في العمل، تانر، الذي كان نائماً.

"حان وقتك يا تان. انهض وتنشط".

جلس على سريره، وفرك يديه معاً ليبعث فيهما الدفء بينما أعطيه موجزاً بالمستجدات. استغرق بعض الوقت بينما لبس ثيابه وحزم معداته، ولكن بعد أن غادر ارتميت على السرير ورحت في نوم يشبه الغيبوبة على الفور.

انطلق جرس المنبه على الساعة 06:00، رفعت بصري إلى غارسيا ومسعود اللذين ينتظران خارج الكوخ اجتماعي بهما. بدأت بغارسيا أولاً: كان يبدو أكثر تماسكاً مما كان عليه الليلة الماضية، وأخبرته بأنني كخطوة مبدئية سأرتب له لقاء مع مستشار في الكتيبة.

المحادثة مع مسعود بدورها كانت أكثر تعقيداً. في البداية أخبرته أني قررت نقله مع المجند المتخصص سيمونيس. بدا متفاجئاً وغير سعيد تماماً، وهذا أمر مفهوم، لأنه بالكاد كان قد وصل إلى القاعدة، والآن أنقله من جهة إلى أخرى. وحين سأل لماذا أنقله أخبرته بشكوى دوغال دون أن أسمي أسماء، وختمت بأنني اتخذت قراراً بأن هذا هو الحل الأفضل لجميع الأطراف.

قلت له: "سوف أقدمك للمجند سيمونيس. إنه قناص. امرؤ هادئ، على عكس الشباب المشاكسين الذين كنتَ معهم. سوف أدعه يجول معك في الأنحاء ويوجهك كيف نقوم بعملنا. أنا متأكد من أنكما ستنسجمان معاً".

عض شفته. وقال: "لقد التقيته"، ثم صمت.

فقلت له مبتسماً: "في هذه الحالة، أنت قد استبقتَ الأحداث، وهو أمر جيد، لأنه يوفر علي عملاً. هذا كل شيء، إلا إذا كان لديك أي أسئلة أخرى...".

بدا مكتئباً.

سألني: "هل لي ببعض الوقت للتفكير في هذا، ثم أعود لمقابلتك مرة أخرى؟".

"شيء مؤكد".

غادر، وكان التالي بعده هو برات، الأمر الذي فاجأني قليلاً نظراً لكمية الوقت الذي قضيته معه على الجدار الليلة الماضية. وقف أمامي غارزاً قدميه في الأرض متباعدتين بشكل لافت للنظر،

ولكن شيئاً ما في تعبيره يفتقر إلى البلادة المعتادة منه. راقبته وقد غزاني شعور غامض من عدم الارتياح، وأنا غير واثق مما سيحدث.

"مرحباً أيها المجند المحترف. ما الأخبار؟".

فكر للحظة، ثم قال: "لست أدري إن كانت لدي أي مشاكل أيها الرقيب أول، ولكن هناك بعض الأشياء التي أود أن أتحدث عنها".

"حسنا، انطلق".

ما يحمله في جعبته حوّلَ ما كان ينبغي أن يكون اجتماعاً مباشراً تماماً إلى شيء أكثر تعقيداً.

"هل لديك أي معلومات حول الغربان يا رقيب أول؟".

أجبته: "الغربان؟ لا. الكلاب والقطط ربما، ولكن ليس الغربان".

تلفتَ يمنة ويسرة قبل أن يعاود النظر في وجهي. وقال: قبل بضع سنوات، كنت أعمل في مزرعة في مونتانا، في رعاية الأغنام. رباه ماذا يمكن أن أقول لك يا رقيب أول، بدأت أحب تلك الحيوانات. أحببت لطفها ونعومتها، لكنني كرهت الغربان البلدية التي جعلتها بائسة. في كل عام في موسم الولادة، كانت الغربان تنزلق في أسراب سوداء كبيرة على الحملان الحديثة الولادة. كانت تنقرها وتقتلع عيونها، في حين هي لا تزال على قيد الحياة. الغربان مخلوقات سيئة. على الأقل النسور تنتظرك حتى تموت.

توقف لحظة محدقاً في وجهي، بينما انتظرت وصوله إلى الغاية من حديثه. كنت أدرك أنه لا يجدر بـي أن أعجله. إذ أخذ ينقل وزنه من ساق إلى أخرى ويستمر في النظر إلي. وأخيراً، بعد أن تلقى إشارة غامضة ما للاستئناف في الحديث، قال: "إن ما أنا على وشك أن أخبر به حدث الليلة الماضية. بعد أن أنهيت نوبتي في العمل، بعد فترة وجيزة من مغادرتك، ظللت حول المخبأ الأرضي بصحبة باريلا وراميريز. لا بد من أنني قد غفوت رغم أنني كنت لا أزال واقفاً على قدمي لأنني ما لبثت أن حلمت الحلم الذي سأخبرك به".

"حلم؟".

"نعم، الأشياء التي تأتيك في نومك".

"حسناً، تابع"، قلت مع التزام الهدوء.

"أتعلم في هذا الحلم، كنت أنظر إلى طيور لم أر مثلها من قبل، الغربان وما شابهها، ولكنها أكبر، وبمناقير أكبر. كانت تهاجم تلك الفتاة في العربة - أنا أعلم أنها كانت فتاة لأن حجابها قد أزيح

عن رأسها واستطعت أن أرى وجهها أيضاً، وقد كانت تبكي بحرقة - وظلت الطيور تحاول نقرها بينما ظلت هي تحاول دفن شقيقها. كانت قد حفرت حفرة في الأرض مثل تلك الحفر التي حفرتها في وقت سابق، ولكن في كل مرة حاولت أن تريح الجسم داخلها، فإن تلك الطيور هاجمتها وصاحت كأنها غاضبة أو شيء من هذا القبيل، وكان الوضع سيئاً، سيئاً فعلاً، كان المشهد رهيباً".

وتوقف عن الكلام مرة أخرى. فرحت أفتش في جيوبـي عن سيجارة، فقد كان لدي شعور بأني سأحتاجها.

سألني: "هل أتحدث ببطء في نظرك أيها الرقيب أول؟".

في داخلي كنت أستعر من نفاد صبري، وأتوق لإنجاز المليون مهمة التي هي في انتظاري، ولكنني كنت أعلم أيضاً أنني إذا لم أسمعه إلى النهاية الآن فإنه سوف يذهب ببساطة إلى مكان آخر. لذلك ضغطت على أسناني وقلت: "فقط تابع الحديث".

"شكراً يا رقيب أول. إني أقدر هذا جداً".

غرق في صمت مزاجي، كما لو كان يتذكر التفاصيل. ثم أخيراً قال: "كان هناك بقع من الدم في جميع الأنحاء تغطي الأرض، ومزيد من الدم كان يقطر من الطيور وينتشر في جميع أنحاء القاعدة".

"لماذا باعتقادك كانت الطيور هائجة؟".

أجاب بهدوء: "كنت سآتي على هذه النقطة. معنى الحلم واضح بالنسبة إليّ. فالأمور هي على النحو التالي: الغربان هم نحن، والأرض حيث نحن موجودون، الفتاة هي الفتاة، والدم سينزف من كل واحد منا. وإذا استمرينا في منعها من دفنه، فستكون هناك مشكلة، بل أطنان من المشاكل، لأن هذا هو الذي كان يدور حوله الحلم".

ختم كلماته بنظرة تفيض ثقة، قابلتها بابتسامة صغيرة مشدودة، لا بد أنها أتت أشبه بتكشيرة، بينما كنت أسائل نفسي لماذا نحتاج إلى الاستخبارات العسكرية عندما يكون لدينا جندي يمكنه تفسير الأحلام.

"هذا مثير جداً للاهتمام، برات".

"أعلم أن هذا الحديث كله قد يبدو لك ضرباً من الجنون يا رقيب أول، ولكن من بين أبناء قومي، من يأخذ هذا الحلم على محمل الجد".

زممت شفتي وقلت: "أنت من فيربانكس، أليس كذلك؟".

أجاب من الطريق شمال فيربانكس يا رقيب أول. من مستوطنة صغيرة تسمى ألاكاكيت، مباشرة على حدود الدائرة القطبية الشمالية. هذا هو موطني في السجل. بارد، ومظلم، ومعزول. شيء شبيه بهذا المكان في الليل".

"أردت التأكد منك لأن بعض الناس الآخرين يدّعون أنك عندما تحلم وأنت واقف، فهذه تسمى أحلام اليقظة".

احمرّ وجهه، فظهر أثر الشمس سمرةً منتشرةً على ملامحه.

أجابني: "لا يا رقيب أول، لم أكن أحلم. أنا أعرف حلم اليقظة. كان هذا الحلم حقيقياً، لقد كان مختلفاً بما فيه الكفاية إلى حد يمكنني معه تمييز ماهيته".

"إذا ماذا تريد مني أن أفعل، يا برات؟".

"إقناع القائد بالسماح لها باستعادة أخيها. نحن نقتل الميت مرة ثانية، وهذا ليس تصرفاً سليماً. إنه جثة بالنسبة لنا، لكنه يعنى كل شيء بالنسبة لها، ونحن نمنعهما كليهما من أن يجدا السلام، هو في الأرض، حيث ينتمي الآن، وهي سلامها الداخلي، وهو أمر مهم على حد سواء. ليس هذا هو السبب في وجودنا هنا. نحن نقترف خطأ كبيراً".

قررت أنني أعطيته وقتاً أكثر من كافٍ للتعبير عن رأيه.

"حسناً، أيها المجند"، قلت بحدة: "يمكنك الذهاب الآن. شكراً لعرضك هذه المسألة عليّ".

أصرّ على السؤال: "هل ستكلم القائد؟".

"سأرى ما يمكنني القيام به يا برات - ولكنني لا أعدك بشيء".

"شكرا أيها الرقيب أول. هذا عبء ثقيل انزاح عن كاهلي. كنت أعلم أنك ستحسن الاستماع إلي".

أومأ إليّ برأسه ثم غادر.

وقفت هناك برهة أحدق وراءه، ثم عزمت على الذهاب والحصول على بعض القهوة لأصفي ذهني. وفي طريقي إلى خيمة الطعام، حاولت إخماد شعور بعدم الارتياح بدأ يتسلل إلى نفسي، ولكني ما إن وصلت إلى هناك وأعددت القهوة حتى بت أكثر تشتتاً من ذي قبل، واستغرق مني وقتاً طويلاً بشكل محرج لأن أدرك أن الملازم إليسون كان يحاول جذب انتباهي.

"هل لديك دقيقة من الوقت أيها الرقيب أول؟".

"نعم، طبعاً"، تمتمت بشرود، وأنا أحاول استعادة تركيزي.

هدر بغضب: "لن تصدق ما توجب عليّ التعامل معه هذا الصباح".

"أوه حقاً؟ قلتها وأنا أحرّك السكر في قهوتي، ثم نظرت إليه متسائلاً: "أتريد قهوة؟".

"أممم.. أجل بالتأكيد. أعتقد أنني بحاجة إليها".

قلت في نفسي: كلانا في نفس الحال يا أخي، ثم خاطبته بصوت عال سائلاً: "كيف تريدها؟".

أجاب: "ساده، دون سكر، من فضلك".

ثم قال فوراً: "أحتاج نصيحتك. لقد وصل الهراء منتهاه حقاً هذا الصباح. حفنة من الرجال من فرقتي يريدون أن نعيد الجسد الذي في عهدتنا إلى تلك المخلوقة التي في الخارج".

لو أن الملازم إليسون صفعني على وجهي، ما كان ليحوز على انتباهي بأسرع مما فعلت كلماته تلك. وبحجم الدهشة التي تملكتني التفت إليه مسرعاً لنصبح وجهاً لوجه، وكادت قهوتي تنسكب أثناء هذه الالتفاتة السريعة. وللمرة الأولى، لاحظت أن شحوبه بات أكثر وضوحا من المعتاد. ناولته كوبه دون أن أنطق بكلمة.

تنحنح ثم بدأ القصة من أولها: "في الساعة 06:30 من صباح اليوم، اقترب مني مجموعة رجال من فصيلتي. وطلبوا إعادة جثة قائد الطالبان إلى المرأة في الخارج. وادعوا بأنهم بعد ما حدث ليلة أمس، لم يعد بمقدورهم رؤيتها كعدو، وأن رفضنا تسليم جثمان أخيها للدفن قد صدمهم، وهم يعدونه "تصرفاً غير عادل". وأنهوا كلامهم بإخباري أنني إن لم أفعل شيئاً بهذا الصدد، فسوف يرسلون مندوبَين يمثلانهم للتحدث بأنفسهم إلى القائد ومحاولة إقناعه - وأقتبس مرة أخرى - "للقيام بالعمل الصحيح".

بعد أن قال هذا، نظر إلى الأرض وأضاف: "لا يسعني إلا أن أقول لك، إنني لم يسبق أن واجهت مثل هذا الموقف من قبل. وأشعر أني مدين لك بالاعتذار لمشاركتي هذا الموضوع معك. إنه لأمر سخيف وشنيع!".

"ماذا قررت أن تفعل بشأن طلبهم؟".

رفع بصره وحملق بـي بدهشة وقال: "أفعل؟ لكن لا شيء على الإطلاق".

نظرت إلى وجهه الجاد والساخط، وتساءلت عما إذا كان ينبغي لي أن أحسده على وضوحه أو أن أوبخه بدلاً من ذلك لتجاهله الأمور التي تقلق رجاله دونما عناء، مهما وجدها تافهة برأيه.

في تلك اللحظة سمعت سعالاً خلفي، فالتفت. إنه هيوود، المسؤول عن تشغيل الراديو اللاسلكي. ألقى التحية علينا، مبتدئاً بإليسون، ثم أنا. وتوجه إليّ بالقول: "القائد يريد أن يراك أيها الرقيب أول".

التفت إلى إليسون واعتذرت منه، ثم انطلقت مع هيوود إلى مكتب كونولي.

كان القائد قد رفع قدميه على طاولة قابلة للطي استخدمها مكتباً له. بدا مرهقاً تماماً، كما لو أنه لم ينم لأيام، الأمر الذي كان يقارب الحقيقة على الأرجح. نظر إلي وعيناه تقطران تعباً وأنا أدخل، وقال: "كيف حالك يا رقيب أول؟".

"لا أستطيع أن أتذمر، سيدي".

"جيد". أزاح قدميه عن المكتب ومال إلى الأمام.

قال: "لقد تحدثت إلى الكتيبة عن مشكلتنا القابعة في الخارج. لحسن الحظ أنهم في الميناء الجوي في قندهار لديهم طائرة بدون طيار في المنطقة، وقد تم توجيهها إلى المنحدرات لمعرفة ما إذا كان أي من المتمردين يختبئ هناك. لذا سنعرف ذلك عاجلاً أو آجلاً، وإذا عادوا ليخبرونا بأن المكان خال من المتمردين، يمكننا عندئذٍ الخروج والاهتمام بمسألة كالاميتي جين".

قلت مستفهماً: "سيدي...؟".

فشرح لي: "أعني المواطنة الأفغانية التي في الخارج".

"هل وصلك شي من الكتيبة حول الجثة؟".

دلّك جبينه بتعب قبل أن يقول: "أوه، سيحلقون بها غداً بعيداً كما هو مخطط، مما سيزيح عبئاً ثقيلاً عن كاهلنا فالجثة بدأت بنشر رائحة كريهة في القاعدة بأكملها، وأنا متأكد من أنك قد لاحظت ذلك. ولم يكن لدى الفريق الطبـي أي خيار سوى الصبر وتحمل وجودها عندهم".

انتظرت بقية كلامه، فاستطرد قائلاً: "إذا حصلنا على خبر يفيد أن هناك متمردين على المنحدرات، فسنهاجم العربة، ببساطة. ولكن إذا كانت المنحدرات مهجورة، وأعلم أن هذا احتمال ضعيف، فسيكون علينا استبعاد سيناريو الانتحاري، ومحاولة الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات ما أمكننا، ثم التخلص منها... أو منه. إنها عثرة في طريقنا".

"التخلص منها، يا سيدي؟".

عيناه لم تفارقا وجهي وهو يجيب: "علينا أن نفكّر بشيء ما".

سألته ما إذا كان من الأكثر حكمة أن ننتظر وصول الدفعة الجديدة من جنود الجيش الأفغاني فنسلّمهم مهمة التعامل مع هذا الوضع، قاطعني قائلاً: "لن تصل تلك الدفعة حتى يوم غد، وأنا لن أنتظر أربعاً وعشرين ساعة أخرى في حين تحول مواطنةٌ أفغانية قاعدةً في الجيش الأميركي بأكملها إلى رهائن. هذا الوضع اللعين يستحيل تقبله. أنا في انتظار الأخبار من الطائرة بدون طيار ثم سنقوم بحل المسألة بأنفسنا".

"لست متأكدا من أنني أتابع خط تفكيرك يا سيدي".

"هذ مسألة شخصية يا رقيب أول".

فكرت بالوضع للحظات دون أن أتفوه بشيء، ثم قلت: "ماذا لو لم نسمع من الكتيبة حول الطائرة بدون طيار اليوم؟".

"حسناً... أعتقد أنه سيكون عليك أن ترسل شخصاً ما للتأكد من أنها لا ترتدي أحزمة ناسفة".

"وإذا كانت خالية منها؟".

"عذراً.. ماذا قلت؟" بدا لي مشتت التركيز، وهو يفتح جهاز الحاسوب المحمول.

"ماذا ينبغي أن نفعل إذا تبين أنها ليست انتحارية؟".

"عندئذ سيبقى من واجبنا العثور على وسيلة للتخلص منها يا رقيب أول بعد استجوابها بدقة كبيرة لأهداف استخباراتية".

وهنا قمت بسؤاله: "ألا يمكن لنا أن نسلمها الجثة وينتهي الأمر يا سيدي؟".

قوبلتُ بتعجب غاضب من كونولي، الذي حملق في وجهي وهو يقول: "وماذا تقترح أن أقول للكتيبة؟ وماذا عن اللواء، وباجرام، والمهرجين في كابول؟ هل تريد الهرم التسلسلي في القيادة أن يأتي ليحطم رؤوسنا؟".

"ألا يمكننا إرسال الصور فقط؟ لماذا يحتاجون إلى الجثة؟".

قدحت عينا كونولي شرراً وأخذ يحدق بـي برهة وكأنه يستحضر الجواب المناسب، وقال أخيراً: "إن ممثلي القوى في كابول يقيمون أهمية لعرض الجثة على شاشة التلفزيون. إنهم لا يريدون أن يشكك الناس في صحتها. كما أنهم لا يريدون التعامل مع الأسئلة التي واجهتهم في الماضي فيما يتعلق بمصداقية ادعاءاتهم بشأن مقتل المتمردين الرئيسيين، والذين ظهروا أحياء فما بعد. الحكومة ضعيفة، وهم يفعلون كل ما في وسعهم لتعزيز قوتها".

قلت لافتاً نظره: "لكنه بدأ بالفعل بالتعفن، سيدي. وأشك في أنه سيكون من الممكن عرضه على شاشة التلفزيون بعد يوم واحد".

رد بحزم: "هذا الأمر ليس عائداً إلينا لنبدي فيه وجهة نظرنا لدينا أوامر وسننفذها". وعاد يتصفّح أوراقه، ثم توقف فجأة وأطبق الحاسوب المحمول بشدة قبل أن يهدر: "ما هذه الأسئلة السخيفة كلها يا ماركوس؟ أنت لست مبتدئا، أنت تعرف كيف تسير هذه الأمور؛ هناك أشياء نقدر أو لا نقدر على القيام بها. وحرية التصرف لدينا، في مثل هذه الحالات، مقيدة تماماً".

حدّق كلّ منا بالآخر دونما حراك.

ثم جلس مستقيماً جداً مع رأسه الذي أماله إلى الوراء كي يراني، بينما كنت أنظر إليه من عل. فجأة، قال: "يبدو أنك مرهق إلى حد يجعل أعصابك مستنفرة. الأمر الذي يؤثر بشكل واضح على سلامة حكمك. لماذا لا تأخذ قسطاً من النوم؟".

أومأت برأسي موافقاً.

فاستحثني بقوله: "إذاً افعل ذلك فقط".

مذكرات الملازم

واحد

اثنان

ثلاث

أربع... خلال خمس ثوان سأصبح في الرابعة والعشرين من عمري. أُضيفَ الآن عام آخر إلى حياتي. رفعت المرآة إلى وجهي أتمعّن فيه، فطالعتني جبهة واسعة كالجدار، تربض العينان تحتها بحذر، وتنبعث منهما نظرة باهتة. الجفنان مؤطران بالأحمر، الرموش ابيضّت بفعل الغبار، الفم أحاطته الأوساخ، الشفاه رقيقة، والنظرة عميقة وبعيدة المدى. يا رب الذاكرة، يا إله الشوق: امنحني الراحة والسكينة.

الليل أرخى سدوله في الخارج، وانتشر ظلام ضبابي ممزوج بالغبار. الريح تضرب الأرض بسياط الظلال، والصحراء تختفي تحت هذه الظلال. وهناك الغبار، الغبار في كل مكان.

غيوم من الغبار، قمر من الغبار، حتى الحواس غبار.

في البداية، أردت أن أحدث فرقاً. حلمت أننا قوة للخير. اعتقدت أنه يمكننا أن نغير هذا العالم: نغيره من خلال قوة النية، والإرادة الخيّرة، واللغة. كان ذلك قبل أن يصبح البقاء على قيد الحياة أمراً بالغ الأهمية. مجرد السعي للبقاء على قيد الحياة. أن تكون حياً: هي من أشد الكلمات خطورةً. إنها خطيرة، أجل. نحن لا نظل أبداً كما كنا تماماً حتى نتعامل مع طول الليل، وواقع سرمديته، ظلاله المتلونة المتميزة، ثم نهايته التي لا مفر منها.

غابت النجوم. عندما أنظر إلى نفسي في ضوء النهار، أبدو - حتى لنفسي - مختلفاً جداً. ولكن في ظلام الليل، هذا ما أنا عليه.

وهكذا مرت اللحظات، الغبار حرّك السهول، الجبال ترسل همهماتها في الهواء. أربعة وعشرون عاماً.، تشكل نافذة إلى منظر لم يعد موجوداً. منظر هادئ ومسالم. جدول مشمس يتعرج في سيره بين هضاب برلينغتون الخضراء. طريق المركبات المفروش بالحصى، والسيارات الواقفة

أمام البيت. أبـي بأكمامه المشمّرة، في طريقه إلى ملعب التنس، ينظر إلي مرة أخرى من فوق كتفه ويلوّح لي مودعاً.

لقد تغيرْتُ كثيراً، من كان يعتقد أن هذا سيكون ممكناً؟ أنا، الذي كنتُ أعتقد أنني لن أتغير أبداً. انظر إلي الآن: أنا شخص غريب عن نفسي، حاملٌ للموت. عيناي مغمضتان، ولكن النوم لا يأتي.

النهار

إنه الفجر. الصمت مطلق. للحظة، ينقشع الضباب ليكشف عن تشابك الأكواخ والخيام المتراكمة بين النور والظلمة. وعدا ذلك، كل شيء من حولي، وهذا الضباب الخفيف الشفاف والدَّوار يتماهى في تدرجات اللون البنفسجي. حتى المناظر الطبيعية القاحلة تعكس الظلال القرمزية. لم أفقد أبداً حب المناظر الطبيعية الذي زرعته في نفسي، يا أبـي. لقد ظل معي في الحالات والأماكن الأكثر تطرفاً. يوماً ما أود أن أنقل ذلك لأطفالي.

لذلك بدأت كتابة هذه المذكرات لك يا أبـي. قلتَ لي بأنني سأحتاج إلى مقبرة لندفن فيها كل أمجاد الحرب. أتذكر بوضوح عندما قلت لي ذلك. كنا نسير بمحاذاة الرصيف الخشبـي الممتد في خاصرة البحيرة ومياهها الساكنة تحفنا على الجانبين. بدا الرصيف ممتداً إلى البعيد، وكان الماء أزرق هادئاً، البحيرة بلون السماء وعلى شكلها. قلتَ لي: أنا لم أفهم أبداً التزامك، ولكني أحترمك، لذا وافقت. قلتُ لك: شكرا يا أبـي. وأنت قلت: الوقت هو ما سيتبقى عندما نقرر أن نبدأ بالعيش يا نيك. أريدك أن تعود إلينا حياً".

أتذكر أني رفعت نظري إليك فجأة عندما قلت ذلك.

شيء ما أفزعني، ولم يكن ما قلته أنت، وفي البداية لم أتمكن من معرفة ماذا كان. ثم لاحظت في الضوء الساطع أن السماء بدت لا بداية لها، والبحيرة لا نهاية لها. لم يكن هناك خط في الأفق.

قبل أن نستدير ونعود أدراجنا سألتني: ما أهم شيء بالنسبة لي في مهمتي هذه.

جوابـي، كان هو نفسه كما كان في أي وقت مضى: الفوز بالحرب والعودة برجالي سالمين مرة أخرى.

قلتَ لي: تذكر دائماً أن الخبرة هي قوس. هذا القول لتنيسون، بالمناسبة.

أتذكر ابتسامتي حين أجبت: في الجيش نسميها منحنى التعلم الحاد. تنتقل من البراءة إلى الخبرة. ثم من الخبرة إلى مزيد من الخبرة. وبعبارة أخرى، من حفرة القرف إلى حفرة القرف في موكب لا نهاية له، اعذر لغتي. أعني من...

من وضع ذي إشكالية إلى آخر؟

تماماً. أجل.

ضحكنا معاً للطريقة التي أحبطتَ فيها إمكانية استخدامي لمزيد من الألفاظ النابية من خلال إتمامك فكرتي. ولكن عندما وصلنا إلى نهاية الرصيف، أمسكتني بجدية من كتفيّ وقلت: هذا البلد مكسور يا نيك. لقد كذبوا علينا، وسرقونا وتُركنا تحت رحمة الأشرار. لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة شعرت فيها بالاكتئاب بهذا الشكل. لا، ولا حتى خلال سنوات حرب فيتنام. نحن في حاجة ماسة إلى الأبطال يا نيك، نحن بحاجة إلى القادة الجيدين، الصادقين، المتفانين. نحن بحاجة إلى الرجال أمثالك لأن يعودوا فيعيدوا بناء ما تم تدميره.

أتذكر الصمت الطويل حين نظرت إليك بحزن.

أتنتظر عودتنا لإنقاذ البلاد يا أبـي؟

أجل، فأنا لا أعتقد أن الحرب تحل أي شيء يا نيك، وهذه الحروب على وجه الخصوص مثل الجروح المتلاحقة. إنها تجفف شريان الحياة لدينا.

ليل

إذاً هذه المذكرات هي المكان الذي أضع فيه أفكاري الأكثر خصوصية يا أبـي. إنها مثل المقصورة الصغيرة التي يحملها الآخرون في رؤوسهم حيث يخزنون كل أفكارهم وعواطفهم حتى يحين الوقت الذي يستطيعون فيه استخراجها بأمان وتأمل الكوابيس والأحزان التي فيها. يقول ديف هندريكس أن أول شيء يفعله عندما سيعود إلى الولاية، حتى قبل أن يلتقي بالأسرة، هو أن يقفل على نفسه في غرفة مظلمة ويترك نفسه على سجيتها... إنه يفتح الصندوق.

ماذا عنّي؟ أنا أفضل الصفحة البيضاء. لا غرف مظلمة من أجلي. ولا مقصورات مغلقة في ذهني.

لا علبة سيجار كتلك التي يضعها كونولي في درج مكتبه والتي لا يفتحها إلاّ عندما تأخذ الأمور فيها مساراً خاطئاً، خاطئاً جداً.

أنا أكتب أفكاري بدلاً من ذلك. أعيش على الصفحة. هذا هو الموطن بالنسبة لي الآن: بيتي الحقيقي. وتلك الشقة في سانت لويس مع الأثاث من إيكيا ومجموعة إميلي من البطانيات وجميع كتبنا من فاسار وغيرها... ذاك خيال. إنه فيلم، حياة مختلفة أظهرت رجلاً ما آخر شاركني اسمي وجسمي لبعض الوقت. لقد رحل.

لقد مضى زمن على رحيله الآن.

ليل

النظرة بعيدة المدى. العيون التي اتّخذت لنفسها حياة خاصة بها. علقت إميلي في آخر مرة كنا فيها معاً على الأمر، ظلت تقول لي أن أنظر إليها، وليس عبرها إلى فضاء رمادي ما. أين أنت يا نيك؟ بماذا تفكر؟ وبعدها في وقت لاحق، عندما صفعتنا صدمة الفراق أخيراً بكل قوتها ما انفكت تقول: أنت اخترت الانفكاك بعيداً يا نيك. كان لديك خيار. كان عليك أن تعرف أن هذا يمكن أن ينتهي. لقد حاولت أن أشرح لك، ولكن لطالما كنت على بعد أميال مني. استطعت أن أرى ذلك في عينيك. كنت على بعد أميال. ماذا حدث لك؟ هل تستسيغ طعم الرمال؟

على بعد أميال.. أنا في الرابعة والعشرين من العمر، ولكني هرمت كثيراً. عيناي ثقبان لم يعد الضوء يخترقهما. ماذا توقعَت؟ أنا لم أعد الشخص الذي أعرفه. لقد شهدت انكسار لبـي وانفصاله بعيداً عني.

أغمضت عيني، فقط لهذه الليلة. الشمس تغفو بالنسبة لي، حيث تستيقظ هي.

لماذا لم تنتظريني يا (إم)؟ أرى وجهك في الرمال في كل مكان.

الليلة سوف أحلم بك. في الخارج يسطع القمر هلالاً. بريق من الحراشف الصفراء على سريري. الليلة سوف أغرق في متاهتي.

نهار

في غضون أيام قليلة، سوف ينتهي الصيف. أنا أعرف لماذا أصبحت واعياً جداً لمضي الوقت، يا أبـي. أخشى ألا أستطيع رؤية ابني مرة أخرى. هذا ما يبقيني يقظاً طيلة الليل، ثم عندما يحل الصباح، أنا لا أريد أن أغادر السرير. حتى الارتياح الناجم عن البقاء على قيد الحياة أربعاً وعشرين ساعة أخرى يمكن أن يبدو سريع الزوال. أضحى من الأسهل تقريباً السير إلى السلك ومشاهدة تلك الجبال الهائلة التي تجتاحنا ظلالها. من العجيب كيف تبدو الجبال منعزلة عنا، والصحراء كذلك ببرودتها المتفاوتة. والمناظر الطبيعية الخالية من أي سمات مميزة. مناظر الموت التي لا مستقبل فيها. ومع هذا يعتادها المرء بعد فترة من الزمن.

ولكن حينما أعاود التفكير، لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة كنت فيها بالقرب من غابة. أو نهر أو حديقة أو بركة، أو منتزه أو بحيرة.

لقد سمعنا شائعات عن بساتين الفواكه المخبأة في أعماق الجبال، وبساتين التوت والعنب. وأيضاً النباتات الشائكة الأطراف والسنديانيات والأرز، والراتينجية العملاقة والسرو. إلا أنني حين أنظر إلى الوجوه الخشنة الضارية التي تواجهنا بها الصخور، تبدو لي تلك الشائعات غير ممكنة. ولكن من ناحية أخرى، تعد الفواكه من بين الصادرات الرئيسة لهذه الأرض المختنقة بالغبار، وبخاصة البطيخ والرمان.

للعنب. أربعة عشر نوعاً مختلفاً، أيمكنك أن تتخيل؟

أما بالنسبة للبطيخ فقد أكد لنا أفراد الجيش الأفغاني الأزبكيّون أن أفضل الأنواع منه ليست تلك التي تأتي من قندهار، بل من أشكالون الواقعة إلى الشمال حيث أدخلها إلى هذه الأرض اليونانيون الذين جاؤوا قبل ألفي سنة بقيادة أليكساندر - والذي يسمونه هم الإسكندر - بعد أن جلبوها معهم من مقدونيا.

بالمناسبة، لا تزال روح الإسكندر تهيمن على هذا المكان كتمثال ضخم. عندما أفكر في الجيوش التي قادها ذهاباً وإياباً على الجبال في فصل الشتاء، في مطاردة الفرس والقبائل المحلية، أشعر بأنني بصراحة عاجز تماماً عن الكلام. أفترض أن الأمر ينطوي على عبقرية عسكرية. من الواقعي أن نفكر أننا لا نملك - بشكل قاطع - أياً منها فيما يتعلق بالقيادة.

ليل

ماذا يمكنني أيضاً أن أخبرك عن طبيعة هذا المكان؟

في الصحراء هناك الضباع والثعالب. نسمع نداءها في الليل، ولكني لم أرها بنفسي. الذئب الرمادي كان شائعاً هنا - إنه النوع نفسه الذي يوجد في وطننا - لكن الطالبان اصطادته بالكلاشينكوف، والآن ربما بقي منه القليل.

ثم هناك الطيور. أمس التقطت صورة لهدهد، طائر مخطط بالأصفر والبيج بحجم العقعق، ذي عرف لامع يميل إلى اللون الأسود. أخبرني الرقيب إسبينوسا بأن هناك طائر باز يحوم حول برج المراقبة بهدف بناء عش فيه. لقد رأيت ذلك بنفسي مرة أو اثنتين، إنها أنثى هزيلة بلون بني صدئ، ذات مخالب صفراء حادة. وهي تهبط كل صباح من أحد قمم الجبال العالية.

تتوق نفسي أحياناً للوصول إلى قمم الجبال. في الواقع، سنقوم بذلك عاجلاً أو آجلاً، إذ إنه جزء من مهمتنا أن ننشئ سلسلة من المخافر. نحن نخطط للذهاب من وادٍ إلى وادٍ، والتعرف على مجالس الشورى المحلية وتجنيدهم للمساعدة ضد المتمردين.

أخبرنا الجنود الأوزبكيون في الجيش الأفغاني أنهم سمعوا أن نساء الباشتون يسرن كاشفات الوجوه في الوديان الجبلية. وأن الجن يحتل أعلى القمم. وأن أعمدة الغبار التي تجتاح السهول هي ملك للشيطان. وبرودة المساء الضبابية هي أنفاس الموتى.

لكل هذه الأسباب وأكثر من ذلك، عندما يجد أحد الأوزبكيين قطعةً من الفخار في الرمال، فإنه يدفنها على الفور مرة أخرى خوفاً من السحر الأسود الذي يمكن أن تحمله، ثم يقف مرتجفاً مع رفشه في زاوية خيمته بقية يومه. هذا هو نوع الرجال الذين نعمل معهم. ويدّعي العسكريون الذين يرسلونهم إلينا أنهم مدربون تدريباً عالياً. آمل أن تبتسم عند قراءة هذا، أبـي: هذه السطور تهدف لجعلك تبتسم.

ليل

لقد كنت أقرأ الكتاب الذي أرسلته لي، دي فيغني: *عبودية وعظمة السلاح*، ووصلت إلى هذا المقطع الذي كنت قد وضعت تحته خطاً (أتراك فعلت من أجلي؟): "الرجال الجدد، رجال الساعة التي أكتب فيها، متشككون وساخرون من كل شيء آخر. ولكن كل واحد منهم ينقلب جادّاً في اللحظة التي يذكر فيها اسمه. وهذه ليست نظرية، وإنّما ملاحظة. - اسم الشرف يحرك شيئاً في الرجل، هو جزء لا يتجزأ من نفسه...".

ثم مرة أخرى، وعلى صفحة أخرى: "هذه الفضيلة الغريبة الفخمة تحفّزها حيوية غامضة، وتقف منتصبة في خضمّ كل الرذائل لدينا، ممتزجة معها لدرجة أنها تتغذّى من طاقتها".

أتمنى لو كان بإمكاني أن أخبرك بأن هذا هو نوع الحرب التي أقاتل فيها، يا أبـي. ولكني لا أعرف - أنا حقاً لا أعرف، والكذب عليك في هذه اليوميات سيكون كذباً على نفسي - إلى أين سيفضي بنا ذلك؟ نحن نستخدم طائرات بدون طيار لمحاربة مجموعة من الفلاحين الأميين يحملون بنادق متواضعة، وهذا يترك طعماً معيناً في الفم أبعد ما يكون عن مجد حملات الإسكندر المقدوني، إن كنت تعرف ما أقصد. أو حتى حملات نابليون في السياق ذاته.

نهار

التقطت أمي الهاتف عندما اتصلت بك اليوم. لقد اتصلت في الوقت المعتاد، لذلك دُهشتُ حين أتاني صوتها. حضرْتُ نفسي لأتلقّى صوتها الرخيم مبهم الكلمات، والذي كانت عادة ما تبذل جهدها لئلا أستشعر فيه رنة السُكر، لكنها بدت متماسكة نوعاً ما على نحو مثير للاستغراب. بالكاد تبادلنا بضع كلمات عندما قالت: والدك يود أن يتحدث إليك.

أتيتَ على الخط. وقلتَ: هل هذا سانت كاترين من سيينا؟

قلت: أبـي؟ هذا أنا.

قلتَ: أنا آسف، لا بد من أني طلبت الرقم الخطأ. كنت أحاول الاتصال بالمستشفى.

قلت: أبـي؟ ماذا يحدث هنا؟ هذا أنا، نيك.

قلتَ: سامحني. لقد طلبت الرقم الخطأ.

ثم سمعتُك تقول لأمي: بيكي، هذا ليس المستشفى.

أخذتْ الهاتف منك.

قلتُ: أمي...؟

أنا آسفة، نيك. إنه ليس بحالة طيبة.

احتد صوتي: منذ متى حدث هذا؟

لقد بدأ ينسى منذ بضعة أشهر. فقدَ طريقه في المدينة الأسبوع الماضي واضطررت إلى القيادة إلى حيث كان وإحضاره إلى المنزل. ذهبنا إلى الطبيب بعدها. والآن هو في حال أسوأ، كما هو واضح بالنسبة لك.

لم يكن لدي أي فكرة!

مع ذلك يبدو أنه لا يزال يتعرف على بعض الأشياء، منها رسائلك، على سبيل المثال.

رسائلي؟ حقاً؟

استمر بالكتابة. يقول الطبيب إن هذا قد يساعده.

ماذا يقول الطبيب غير ذلك؟ إلى أي حدٍ الوضع سيّء؟

حسناً، تمر بنا أيام جيدة وأيام سيئة. بالأمس كان الوضع سيئاً. فهو لم يتمكن من التعرف على نفسه في المرآة، فهلع لوجود غريب في البيت.

هل يعرف من أنتِ، يا أمي؟

واظبْ على الكتابة له، نيك. لا تقلق عليَّ. أنا بخير.

ليل

الليل يستحضر كل شيء إلى الذهن مرة أخرى.

كيف أمكنني أن أكون أعمى إلى هذه الدرجة؟ كيف أمكن أن أكون غافلاً جداً عن تراجع صحة والدي؟ أو إدمان والدتي على الكحول؟

قصدْتُ الإنترنت وقرأتُ كل ما أستطيع عن مرض ألْزهايمر. لا أعرف إذا كان هذا يجعل وضعي أفضل أم أسوأ. قرأت لساعات دون انقطاع. غفوت وأنا لا زلتُ أقرأ.

وأنت أيقظتني. تفاجأت وأخذت أحدق بك.

أبـي...؟

قلتَ لي: إميلي مرت بـي اليوم يا نيك. قلتُ لها، بعبارات لا لبس فيها، أنها كانت مخطئة لتركك.

قطعت المسافة كلها من سانت لويس؟

يجب أن تكون هي، أو على الأقل، المرأة التي تحدثت معها كانت تشبهها. ولكن ربما كانت شخصاً آخر. أنا لا أعرف ما حدث للناس في هذه الأيام يا نيك. أنا لا أتعرف عليهم. أمشي في الشارع ولا أتعرّف على وجوههم. أنا لم أعد أتعرف على وجوه.

لا تقلق بشأن ذلك يا أبـي. سوف أهتم بكل شيء في أقرب وقت عندما أعود إلى المنزل.

لقد قلت لها: إن لدي معاييري، وربما كنت من الطراز القديم نوعاً ما. ولكني، كقاعدة عامة، لا أعيد النظر في الدرجات التي أمنحها. لقد كانت ورقتك حول أنتيغون تحت الوسط. وقد خاب أملي.

إميلي لم تدرس عندك يا أبـي. ذهبت إلى فاسار. ذاك هو المكان الذي التقيتها به، أتذكر؟ في فاسار، وليس بنينغتون.

إذاً لماذا حدثتني عن درجاتها؟ أنا لا أفهم.

لا يهم يا أبـي. سأتحدث معها عن ذلك. أنت فقط خذ قسطاً من الراحة.

نهار

كان يمكنني... كان عليّ...

كان من الممكن أن أقضي المزيد من الوقت معك آخر مرة كنت فيها في المنزل. كان عليّ أن أسألك كيف كنت تتعامل مع مرحلة التقاعد، أنت، الذي أحببت أكثر من أي شيء آخر الوقوف أمام طلابك والتحدث عن هيرودوت، ثوسيديدس، بريكليس.

أتذكر حين قلت لي إن قراراتي أثرت على الجميع. في ذلك الوقت اعتقدتُ أن إميلي كانت المعنية بكلامك. الآن أتساءل عما إذا كنت آنذاك تحاول تحذيري بشأن حالتك. قلتَ لي: إن اهتمامك يا نيك ينصب في كثير من الأحيان بعيداً عنا. أجبتك: كل منا يسير وحده.

بدا ذلك بشكل واضح إشارة إلى إدراك متأخر. أنّى لي أن أعرف؟

من سيقرأ هذه اليوميات الآن، يا أبـي؟ لمن سأمضي في الكتابة؟

ليس إلى إميلي، بالرغم من أنني لا أزال أتوجه إليها في نومي.

وليس إلى جاك الصغير - بالرغم من أني سمعت في أحلامي أصوات ملعب أطفال تتلاشى.

هل يجب أن أكتب لنفسي؟ هل أنا حقاً وفعلاً وحيد الآن؟ هل هذا ما كنت تحذرني منه؟

سوف أكتب لنفسي. سوف أمشي وحيداً.

ليل

أربعة أراجيح انتصبت في فسحة بين أشجار الغابة تحت شجرة البلوط القديمة. صنعت من خشب البلوط والكستناء. السماء مظلمة ولكن لا أستطيع أن أحدد ما إذا كان الوقت ليلاً أو نهاراً. ثلاث من الأراجيح مدهونة بالأبيض، وواحدة سوداء. الأرض تحت كل أرجوحة فيها أخاديد عميقة قد حُفرت فيها. مخروط مشرق من الضوء يضيء عبر الفسحة ويسقط مباشرة على عيني. ضباب يحوم بين الأشجار، فيخفي فروعها. وحيثما يلامس الضوء الضباب، يظهر الضوء منتثراً، كما لو أنه قد تمت تصفيته عبر غربال من الغبار. مرّتْ ورقة طائرة ورقية عبْرَ الفسحة وجّهتْ انتباهي إلى الجدول على الجانب البعيد.

جلست عائلتي على ضفاف الجدول، أبـي، أمي، وأختي الصغيرة، إيفا، ولكن بشرة وجوههم صفراء وهم ساكنو الحركة بصورة غير طبيعية. أريد أن أركض نحوهم ولكن كشّافاً يتتبع كل حركة آتي بها، ويبدو لي أني غير قادر على الوصول إليهم. يتشبث الضباب بالجدول. والطائرة الورقية تنزلق مرة أخرى من خلال الفسحة الشجرية. تواصل عائلتي الجلوس بلا حراك، غافلةً عن محاولاتي للوصول إليهم. هل هذا المشهد ذكريات من طفولتي، أم أنني أخترع هذه الأمور؟ لا أستطيع أن أتذكر، ولا أستطيع أن أفهم لماذا نُحّيت بعيداً جداً عنهم. في النهاية، نال اليأس مني لانفصالي عنهم، واستيقظت غير قادر على التحرك أو الكلام.

نـهار

أهم المبادئ التوجيهية لنفسي في تارساندان: اهتم دائماً مائة في المئة بالمهمة المطروحة. افصل دائماً بين المشاعر الشخصية واتخاذ القرارات المهنية. تذكر أنه عليك أن لا تبدو منهمكاً أمام رجالك. شجع التغذية الراجعة الإيجابية والسلبية عبر السلسلة القيادية كلها؛ استخدم وقت الفراغ لدراسة وحفظ التضاريس البشرية والمادية (أي، إتقان اللغة المحلية ودائماً احمل الخريطة).

الليل

إذاً هذا ما في متناول يدي على الطاولة القابلة للطي، ودون ترتيب معين. الحاسوب المحمول، وبندقية M-4، مسدس M-9، ومخازن الذخيرة من عيار 9 ملم و5.56 ملم، سترة الصوف، طقم الإسعافات الأولية، جهاز استقبال، والدروع الواقية، خوذة مكافحة متقدمة، مصباح يدوي ذو العدسة الحمراء، نظارات للرؤية الليلية، مشاعل ملونة، وقنابل يدوية، وقنابل يدوية للدخان، وثلاثة أجهزة لاسلكية، وأربعة مشاعل، ومجموعة من الوجبات الجاهزة، وجرة من نوتيلا،

ومنشار دائري، وبندقية نكص بـي آر^{2}8 مم (هدية من قائد الجيش الوطني الأفغاني في قندهار)، وسيف الساموراي.

سترة المطر، أقلام الشحوم، أقلام الرصاص، وزوجان اثنان من القفازات، وخريطة ميشلان لعام 1976 لمقاطعة قندهار ونظارة شمسية وأخرى بعدسات ملتفة، وشاح بمربعات بيضاء وسوداء، وبطانية من الصوف وملابس قتالية وزجاجة من الماء سعة لترين وأكواب من الستايروفوم للقهوة وقبعة بوني ومجموعة قواميس للغة الإنكليزية - الباشتو، والإنكليزية - داري، وكتاب جمل، سدادات الأذن، واثنتان من آلات التصوير الرقمية، مطوية العلم الأميركي، ومشغل MP3، وأخيرا، صورة ذات إطار لإميلي مع جاك. هذه هي الأشياء التي تساعدني على الاستمرار من يوم لآخر.

تحققت من ساعتي. إنها 11:21 مساء بتوقيت قندهار، وهو ما يعني 1:51 بعد الظهر في سانت لويس. إميلي ستكون الآن في استراحة من العمل لأخذ جاك من الحضانة ووضعه لدى حاضنة الأطفال. رحلتها تستغرق عشرين دقيقة تستمع خلالها إلى محطة NPR على الراديو. وعادة ما يبث برنامج *All Things Considered* في هذا الوقت من اليوم، ولكنهم في بعض الأحيان يبثون برامج البستنة المفضلة لديها. إنها تحب القيادة بسرعة: لطالما فعلت. خففي السرعة، يا إم، خففي السرعة، أنت دائماً ما تقودين بسرعة كبيرة. علام العجلة يا فتاة؟ أنت دائما في فكري، وخصوصاً عندما أكون هنا. أنا أحبك كثيراً، بالرغم من كل شيء.

أحبكما كليكما كثيراً.

في ذاك الجزء من العالم، على الأقل، لم يطرأ، ولحسن الحظ، سوى القليل من التغيير.

هذا هو السبب في أنني هنا، لأتأكد من بقاء الأمر على هذا النحو.

وهذا هو السبب في أنني حرصت على أن أعلن لجميع من في الديار بأنني في قلب المكان الذي يجب أن يتم فيه احتواء قوى الفاشية - بكل ما تنطوي عليه الأصولية الدينية والقمع المجتمعي والكراهية العنيفة. عندما أطعن في عواقب أفعالي، أطلب من الشخص أن ينظر إلي وجهاً لوجه وأسأله فيما إذا كان يعتقد حقاً أن السلام سيعود وأن حالة النساء والأطفال، بشكل خاص، ستتحسن إذا قررنا مغادرة هذا المكان. كما ترى، أنا لم يعد بإمكاني أن أخوض في النقاشات لأجل النقاش بعينه، أو من أجل إثارة الجدل وحسب.

ليس عندما كنت وجهاً لوجه مع عواقب لهمجيةٍ ليس بالإمكان تصورها.

أنا قد لا أكون عميلاً حراً، ولكنني عميل للحرية، الحرية التي تتولى على عاتقها مسؤولية ضمان إصلاح مجتمع مدمر. هذا هو السبب في أنني يمكن أن أستخدم كلمات مثل النزاهة والشرف

دونما تهكم. وإذا سمحنا لهذا البلد بأن ينزلق مرة أخرى إلى الظلام، فسنكون جميعنا شركاء في الإبادة الجماعية التي ستتبع رحيلنا وهي أمر واقع لا محالة، كما هو قدوم الليل لا بد من أن يلي النهار.

هل تفهم؟

أنت يا من تدين بجهلك المريح لتضحياتنا.

لا أحد في الوطن يكترث بشأننا. لا أحد يهتم.

إنه الواقع.

نهار

في آخر مرة كنت فيها في المنزل، أيقظتني إميلي في إحدى الليالي، وأخبرتني أنني أكز على أسناني بصوت عال إلى الحد الذي أقلق نومها. وقالت إنها في البداية لم تكن تعرف مصدر الضجيج، ثم أدركت أنني كنت مستلقياً بجانبها بجسمي المشدود ويدي المقبوضتين وفكي الذي يعمل مثل المكبس. أضأت النور وجلسنا معاً. كنت غارقاً في العرق. والفراش على جانبي من السرير قد بلله العرق كذلك. سحبتني إليها وضمتني بين ذراعيها.

قالت: حبيبي، ماذا يفعلون بك؟

وكان ذلك قبل أسبوع كامل من الليلة التي استيقظتُ فيها وأنا أصرخ بأنه قد تم اختراقنا من قبل العدو وأطبقت على عنقها، ظناً مني أنها على وشك أن تقتلني.

استيقظ جاك على صراخي، وكان نائماً في سريره عند آخر سريرنا. أمضت إم بقية الليل محاولةً تهدئته وإعادته للنوم مرة أخرى. وفي الوقت نفسه، كنت أنا أذرع الطريق ذهاباً وإياباً أمام شقتنا محاولاً تهدئة روعي.

ليل

وهكذا غادرتُ إميلي، وأضحت الزوجة السابقة.

أعتقد أنني قد تصالحت أخيراً مع الألم. أعتقد ذلك حقاً.

على الأقل، لقد توقفت عن الإيمان بأوهام مثل الحب والزواج. لقد بتّ واقعياً - إذا كانت هذه هي الكلمة التي أبحث عنها - عندما يتعلق الأمر بهذه الأشياء. أنظر إلى الوراء، إلى زواجي المحطم، ولا أعرف ماذا أقول عن هذا الشيء الذي أقمته مع شخص آخر - هذا الأمل الذي بنيته - والذي تحطّم تهشم فجأة قطعاً صغيرة. هذا الأمل، كأنه حلم ليلة صيف مشرق وجميل، وتحول بين

عشية وضحاها إلى كابوس لعين، مثقل بالحزن، مكبل بالصمت. كالدم الذي ينسكب مفارقاً الجسم ويتركه جثة متغيّرة. يتآكلها الضوء...

لا أعتقد أنني أكرهها. أريد أن أصدق أنني يوماً ما سأكون قادراً على أن أشعر باللامبالاة تجاهها.

ليل

أنا لا أريد أن أعرف أسباب تركِكِ لي. فالحب ليس فيه مكان للمنطق.

فقط، أتوسل إليكِ، ألا تذهبـي، أرجوكِ. ابقي معي لفترة أطول قليلاً إلى حين أتمكن من العودة إلى الديار وأعيد الود بيننا كما كان مرة أخرى. هذا كل ما أطلبه. تمسكي بقضبان سرير طفلنا - إذا كان هذا هو ما يلزم - وتذكري أننا أنجبناه ونحن مؤمنين بمستقبلنا معاً كأسرة واحدة.

أنا ما زلت نيك نفسه يا إم؛ كل ما هنالك أنني قد هوّمْتُ في أماكن مظلمة جداً.

لذلك لا تغادري، رجاءً. لا تكرري خطأ والدتك. تذكري ألم والدك.

تمسكي بشدة بالبيت الذي نتشاركه، بالذكريات، بطفلنا، طفلنا...

لا تتركيني.

نهار

تلقينا أولى إصاباتنا اليوم. لقد كانت كارثة تامة. بدأ كل شيء قبل بضعة أسابيع عندما زارنا وفد من شيوخ القبائل من أحد الوديان الجبلية القريبة. لقد كان أول لقاء لنا مع السكان المحليين، لذلك كنا مبتهجين جداً. جلس الشيوخ في دائرة وراحوا يشرحون وضعهم في حين قدمنا لهم الشاي. قالوا بأنهم يتعرضون للمضايقة من قبل "رجال سيئين" يعبرون بانتظام من الملاجئ على الجانب الآخر من الحدود مع باكستان. وقد دفعهم اليأس للاتصال بنا بوصفنا الممثلين الوحيدين للقانون والنظام في منطقة لا أثر فيها للحكومة الأفغانية. وعدهم كونولي بتقديم يد العون، وحددنا موعداً مع الشيوخ في الجبال. واتصل مع المقدم مارك لوتسلاغر، قائد الكتيبة، واتفقا على أن هذه هي الفرصة المثلى لوضع موطئ قدم لنا في الجبال، وبناء مركز قتالي يديره اثنان من الفرق العسكرية تتمركز داخل دائرة نصف قطرها خمسة أميال من تارساندان. ثم جعلنا كونولي أنا والملازم هندريكس، بوصفنا قائدي فرق، نسحب القرعة ليقرر أي من وحدتينا سوف تذهب، وفاز هندريكس.

في وقت مبكر من هذا الصباح، قاد ديف هندريكس الفرقة الثانية في سياراتنا العسكرية عبر مسارات جبالٍ شديدة الميلان إلى أبعد مكان باستطاعتها أن تصل إليه، ومن ثم مشوا بقية المسافة إلى مكان اللقاء. لقد كان فخاً. فقد علمت حركة طالبان المحلية بالاجتماع، وبدلاً من شيوخ

القبائل، كان هناك أربعون من المتمردين المدججين بالسلاح بانتظار جنودنا. أبرق هندريكس سريعاً إلى تارساندان، فاستدعى كونولي الدعم الجوي وأرسل الفرقة الأولى. وصلت طائرات الأباتشي وميديفاكس قبل أن أصل مع فرقتي، ولكن تم إيقافها بواسطة حمم من نيران الـ آر بـي جي وقذائف الهاون. لا يزال بإمكاني سماع هندريكس يصرخ في جهازه اللاسلكي: نحن محاصرون! أرسلوا لنا مؤازرة وإلا فلن ينجو منا أحد!

عندما تمكنا من التوصول إليهم، كان كل من الملازم هندريكس والرقيب بريان كاسترو قد أصيبا. ثم أسقطت طائرة F-15 ذخيرة الهجوم المباشر المشترك حيث كان تركيز العدو على أشده مما أنهى المعركة فعلياً. فقد المتمردون ستة عشر رجلاً قبل أن يتراجعوا. وسحب طاقم الإخلاء الطبـي ديف وبريان، لكن أيا منهما لم ينج من العمل الجراحي. لقد كانا أولى خسائرنا البشرية منذ انتشارنا في مقاطعة قندهار. في تقرير الحالة الخاص بـي كتبت: 16X متمرداً قتلوا في الاشتباك (تم التأكيد) و24 X متمرداً فروا عبر الحدود.

جاء كونولي إلى كوخي هذا المساء وكال اللوم لنفسه لعدم إرساله دعماً جوياً برفقة الفصيل الثاني. قال: لا أستطيع أن أصدق أن ديف قد رحل. أنا فعلاً لا أريد أن أصدق أنهم ذهبوا إلى غير رجعة.

تمشيت حول محيط القاعدة في الساعة 22:00. وسمعت أحد الرجال القائمين على المراقبة - أعتقد أنه كان المجند سبيتز - يقول لآخر: أنا لا أريد أن أكون بطلا، أريد فقط العودة إلى وطني على قيد الحياة. سأله الرجل الآخر: أأنت خائف، سبيتي؟ قال سبيتز: أليس هذا حال الجميع؟

ليل

لا أستطيع النوم الليلة. أستلقي على سريري، ثم أعود فأجلس فيه ويداي متشابكتان فوق رأسي. قدرتي على التفكير عادة ما تكون في أوجها ليلاً. لكنني لم أستطع الآن. فدماغي ضبابـي، وأفكاري مسلوبة مني.. أحاول التعامل مع العزلة التي تجعل وظيفتي مختلفة تماماً عن التضامن الذي يفترض أن يربط الجنود المشاة ببعضهم. لقد كتب أحدهم ذات مرة أنه لا وجود لثنائيات الجيد/السيّء في القرارات القتالية، إن الخيارات كلها تقع ضمن مدىً من البدائل السيئة - لكنّ هذا لا يجعل مهمتي أسهل عندما أحاول التأقلم مع عواقب الأخطاء التي تؤدي إلى وقوع إصابات.

هل أشعر بالذنب لعدم قدرتي على إنقاذ ديف وبريان؟ يا للجحيم بالطبع أفعل. في زمن الحرب، يصبح الخط الفاصل بين صنع القرار الرائع والقرار الغبـي أشد ضبابيةً حتى مما هو عليه أصلاً.

وفي حين أنني لا أريد أن أشكك في صواب الإجراءات التي اتخذها كونولي، لأن ما حدث قد حدث، لكنه ربما قد عبر ذلك الخط بإرساله للمشاة سيراً على الأقدام إلى الجبال. لقد كان

هندريكس وكاسترو ضابطين من ذوي الخبرة، كذلك هو ايريك بيتراك، ضابط استطلاع الفصيل، ولكن ربما كونولي أخطأ في قراءته للمهمة؟

فإذاً بتنا وحدنا نرزح تحت أعبائنا، هو وأنا: عبء معرفتنا أننا في كل مرة نرسل فيها الرجال خارج خط الأسلاك، يمكن أن يعني ذلك أنهم سيلاقون حتفهم. ينتشر حولي ظل داكن، وحيثما ذهبت، فهو يسبقني أو يسير في إثري. الشخص الوحيد الذي لم يتأثر بهذا الظل هو والدي: بفقدانه الذاكرة بقيت أنا محمياً. لا أستطيع أن أقول ذلك عن أي شخص آخر، وبخاصة عن إميلي، التي كانت الأقرب إليّ. كثيراً ما تساءلتُ في نفسي عن هذا الأمر، تساءلت ما إذا كانت تستطيع أن تستشعر وجود هذا الظل وهي ممددة بجواري، وتتذوق سمه، حتى بلغ السيل الزبى في نهاية المطاف وقررت الانفصال...

نهضت من سريري لأشرب بعض الماء فألفيته دافئاً بشكل لا يَسُرُّ، ولم أشعر بأنني أفضل حالاً بعد أن انتهيت من الشرب. أحسُّ بحرقة في بشرتي، وحكة في وجهي: أنا مغطى بلدغات البراغيث الرملية. الجو خانق داخل هذا الكوخ. صرخة من طائر ليلي تتلاشى ببطء في طيات الصمت. يحوم طيف ديف في الظلام، وألتقط لمحة عابرة من وجهه - أم لعله هو وجه براين؟ طوال الليل سأواصل سماع صوتيهما في رأسي.

ليل

راجعت أحداث المعركة مراراً وتكراراً في رأسي. هل كان بإمكاني فعل الأشياء بشكل مختلف؟ ربما لو أنني حركت فرقتي عبر الجبال بشكل أسرع لكنّا تمكنا من الوصول إلى هندريكس ورجاله في وقت أبكر؟ وحتى بعد الوصول إليهم، كان تواجدنا خاطفاً، فقد بدا العدو في كل مكان، ولكن ربما كنت نشرت الفرقة بشكل مختلف؟ في النهاية، كان الوضع مشابهاً للقتال معصوبي الأعين. ولم نتمكن من إنقاذ ديف وبريان.

الصباح الباكر

لا نوم في الليلة الماضية. لم يذق أحد منا طعم النوم. ظللنا نتوقع هجوماً على القاعدة، الأمر الذي لم يحدث لحسن الحظ.

الصباح

أشعر أنني مدمّر. ولا أبدو قادراً على التركيز على أي شيء.

تمنيت لو أن هناك مكاناً ما يمكنني الذهاب إليه والصراخ فيه ببساطة بملء فمي وذرات كياني.

عليك أن تحبس كل شيء داخلك، أيها الصبي، فأنت قائد الفرقة.

أنت

الملازم

الأول. يا إلهي، كنت أضغط بشدة بالقلم حتى أني مزقت الورق. هذه أول مرة. حسناً يا نيك، سيطرْ على نفسك.

وقت الظهيرة

كان الغداء اليوم دجاجاً مقلياً، وكانت رائحته أفضل من أي وقت مضى يمكن تذكّره. شعرت بالذنب وأنا أتناول الطعام، لكني كدت أهلك من الجوع. جلست إلى الطاولة أحدق في طبقي وأتساءل ما الفكرة من كل ما حصل. على الجانب الآخر من المكان الذي أجلس فيه كان المقعد الذي اعتاد هندريكس أن يشغله، فارغاً بطبيعة الحال. شعرت بالغثيان في معدتي من الحزن والجوع في آن واحد.

في النهاية، أكلت بشهية مهولة.

ولكن بعد ذلك، في طريق العودة إلى كوخي تقيأت كل شيء.

مساء

تراجعت إلى كوخي مع جهاز الإيبود خاصتي. أعرف بالضبط ما أريد أن أستمع إليه. موزارت "قداس لراحة نفس الميت": سمعته باللاتينية: يا رب، امنحهم رحمة أبدية

واجعل نوراً دائما يتألق فوقهم

لك تقدَّمُ الأناشيد في صهيون

وتقام الصلوات في القدس

يا مجيب الدعاء إليك يتوجه كل كائنٍ حي

امنحهم رحمةً أبدية، واجعل

نوراً دائماً يتألق فوقهم

يا ربّ ارحمْ

يا ربّ ارحمْ

يا ربّ ارحمْ

عندما انتهى القرص، ضغطت على زر إعادة التشغيل. وسمعته بالإنكليزية: يا رب، امنحهم راحة أبدية

واجعل نوراً دائما يتألق فوقهم

لك تقدم الأناشيد في صهيون

وتقام الصلوات في القدس

يا مجيب الدعاء إليك يتوجه كل كائنٍ حي

امنحهم راحةً أبدية، واجعل

نوراً دائماً يتألق فوقهم

يا رب ارحم

يا رب ارحم

يا رب ارحم

عندما انتهى القرص، ضغطت على زر إعادة التشغيل باللاتينية....

أيها الحمل الوديع الذي يحمل خطايا العالم

امنحهم الراحة

أيها الحمل الوديع الذي يحمل خطايا العالم

امنحهم راحةً أبدية

ومرة أخرى بالإنكليزية...

أيها الحمل الوديع الذي يحمل خطايا العالم

امنحهم الراحة.

أيها الحمل الوديع الذي يحمل خطايا العالم

امنحهم راحةً أبدية

ومرة أخرى، كلما انتهى القرص، كنت أضغط على زر "تشغيل"...

ضغطت زر إعادة التشغيل. وإعادة. وإعادة. وإعادة. وإعادة مرّة أخرى...

ليل

يا إلهي، يا إلهي، أنا أعلم أننا جميعا سوف نرحل عن هذه الدنيا في يوم من الأيام، ولكن إذا كان مقدراً لي أن أموت في أرض الأعداء الغريبة هذه، فأرجوك يا إلهي أن تجعل موتي سريعاً.

ليل

أقسمت على أن أمتنع عن الكتابة، ولكن هأنذا أكتب مرة أخرى، ولمَ لا؟ إنها ملجأ ضروري بالنسبة لي. أكتب محاولاً فهم الأشياء قبل أن أصاب بالجنون. لا أستطيع أن أسمح لنفسي بالاستسلام للوهم بأنه لا وجود لمعنى أكبر لهذه الحرب، وبأنه لا حقائق جوهرية، ولا تسامي أكبر من مراقبة مرور الأيام واحداً تلو آخر. ومع ذلك، ليس هناك سلام بعد النصر المكتسب بشق الأنفس، ولا راحة، ولا مكان للواقع، فقط مساحات فارغة بدلاً من الأصدقاء، وهواء مسموم، وصمت مظلم لا نهاية له.

نهار

بدأ الفجر مع رقائق صغيرة من الضوء. الجو حار رغم أن أشعة الشمس بالكاد تخترق الجبال. اكتست الصحراء بألوانها المألوفة: أربعة ظلال من الرمادي، خمسة من البني، وتسعة من كل من البرتقالي والبيج. ضيّقت عينيّ وأنا أنظر إلى القمم المسننة، التي لا تزال منحدراتها مكللة بظلال الليل. قريبا جداً سوف نضطر إلى القتال في تلك الجبال، أو أننا سنبقى مقيدين هنا، يوماً بعد يوم، عالقين على جزيرة صحراوية ضيقة وصغيرة. علينا أن نخرج وننشئ تلك المراكز العسكرية، إنها مسألة وقت فقط. مسألة انتظار اللحظة المناسبة.

الحرب هي العلاقة الحقيقية الوحيدة بيننا وبين شعب هذا البلد.

إنهم يعلمون ذلك. ونحن نعلم ذلك. نحن نفهم بعضنا البعض. لدينا اتفاق.

كل منا لديه رمز يطلقه على انتقامه، هم يدعونه بدلاً، ونحن ندعوه رد الصّاع.

إنها الدوامة الأزلية المكوّنة من الهجوم والانتقام.

والفرق الوحيد بيننا - وهو بالغ الأهمية - هو أننا زوّار في هذا المكان. نحن لا ننتمي إلى هنا. نحن لسنا محاصَرين بتاريخ ممزّق، وسجلٍّ من الإخفاقات، ومستقبل غير مؤكد. وهذا ما يجعلنا نقوم بما يتوجب علينا القيام به، وأن نفعل ذلك بسرعة، وأن نخرج من هنا. نخرج قبل أن نصبح جزءاً من دورة الإخفاق والعنف. نخرج قبل أن نصبح مجرد قبيلة مخفقة أخرى.

نهار

يقف الرجال بصمت في زيّ المعركة الكامل في شمس ما بعد الظهر المتأخر، وقد تركزت عيونهم المؤطرة باللون الأحمر على زوجَيْ الأحذية والبنادق المغروسة فوهاتها في الأرض. صوت قسيس الكتيبة الذي يتلو صلواته وعظاته الرتيبة بلا توقف لم ينجح سوى في إضفاء المزيد من اللاواقعية على الأجواء. وسرعان ما يغمرنا العرق فيزركش زيّنا الموحّد باللطخات الملحية. وقف كونولي على مسافةٍ مني، عيناه تظللهما قبعة بوني. حلقي يشكو من العطش، وفمي جاف ولزج. عندما حان دوري في الكلام، ذكرت الأوقات التي أمضيناها معاً أنا والملازم هندريكس والرقيب كاسترو في مقاطعة خوست، والتزمتُ بموجز الكلام. كنت أودّ لو أنني قلت أكثر من ذلك، ولكني ببساطة لم أكن قادراً على ذلك.

وآخر الذين تحدثوا كان كونولي، وكان صوته متهدّجاً. وبدأ بالقول إنه لا يرى أيّ مغزى من إعطاء الرجال تفسيراً جاهزاً من شأنه أن يبدو مهلهلاً حتى له. قال لهم إنه لو كان الأمر متروكاً لنا، لكُنّا سوّينا أمور هذا المكان بسرعة كبيرة. الجيش الأميركي يعرف كيفية القيام بعمله، والقيام به على أكمل وجه. ولكن هذه ليست الطريقة التي تم بها إعداد الأمور هنا، فنحن لدينا التزام تجاه الشعب الأفغاني - الرجال العاديين والنساء والأطفال - وهو عدم التخلّي عنهم في وقت حاجتهم. هذا هو الاختبار، كما يقول، وحتى ونحن تتفطر قلوبنا على قتلانا، فسنفعل الصواب ونتذكّر ذلك. لعل هذا الملخص للوضع بالكاد يرتقي إلى عظيم مصابنا، ولكنه هو المتاح لدينا لجعلنا نتحمل خسائرنا. نحن شعب شريف، أرسلنا هنا لنجسّد مثالاً يحتذى لأولئك الذين يتطلعون إلينا.

وأنهى كلامه بالقول إننا قد عُهد إلينا بمهمة ومسؤولية، ونحن سوف نفعل ما يلزم لأدائها.

حين سرت بعيداً، تساءلت في نفسي كم من رجال الفرقة 2 يا ترى قد ألقوا باللوم علينا لوفاة قادتهم. إنه التقاطع الذي يجب على كل قائد مشاة أن يتعلم التعايش معه، لأنه الشيء الوحيد في الحرب الذي لا يمكن له أن يصبح سهلاً بعامل التجربة. أشعر بالغثيان، وفي طريق عودتي إلى كوخي، سمعت المجند لوسون يتحدث إلى أحدهم بكلمات عبّرت عما كان يعتلج في داخلي إذ قال: أشعر وكأنني تلقيت جرحاً عميقا في داخلي وهو دائماً يؤلمني. دائماً، دائماً، بلا انقطاع...".

قررتُ أن أتوقف عند كوخ كونولي. إنه يستمع إلى مذياعه على الموجة القصيرة للأخبار حول آخر الجهود التي يبذلها النظام المحلي الذي ندعمه للتصالح مع عدو منكبٍّ على إبادتنا.

يتحول إليّ ويقول: هذا يجعلني أرغب بالتقيؤ. هلا قام أحدهم تكرّماً بإخبار أصحاب البزّات الذين يديرون الاستعراضات في العاصمة بأن حركة طالبان والقاعدة ليستا مهتمتين بالحصول على قضمة من الكعكة، وأنهما تريدان الغنيمة الملعونة كلها لهم؟ إنهم ملتزمون باستراتيجية كل شيء أو لا شيء، ونحن نشكل الخط الأحمر الرفيع الذي يقف بينهم وبين هدفهم المعلن بوضوح: الحضارة الغربية.

في نقطة معينة من التقرير، يبدأ بالصياح على الراديو: يا إلهي! نحن نتحدث عن قوم يعتبرون قطع رأس خصومهم هو العقاب الصحيح، وليس عن أتباع لاتفاقيات جنيف اللعينة!

أطفأ الراديو باشمئزاز، بينما سرت إلى ترسانة الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها من المتمردين. إنها مجموعة موتلي من RPG7s، كلاشينكوف متنوعة، البنادق الآلية الصينية، M-16s ،RR82mms الأميركية الصنع، أسلحة نارية يدوية لي إنفيلد وبنادق موسين - ناغانت، وحتى إحداها بندقية قنابل مضادة للطائرات. كومة الأسلحة تشغل زاوية كاملة من الكوخ. واحدة من M-16s عليها سلسلة من الحروف العربية والأرقام محفورة على واقية اليد البلاستيكية. قمت بترجمتها بتردد: "هدية إلى جنود أمير المؤمنين الملهمين، 1996".

وبعبارة أخرى، في السنوات الأولى من حكم طالبان، كان زعيمهم الجاهل وظيفياً، ذو العين الواحدة، الملا عمر، يطالب بعباءة عمر، الخليفة الراشد في القرن السابع في المجتمع الإسلامي الوليد وقائده الثاني بعد وفاة النبـي محمد. تواضع بتطلعاتك أيها الواعظ الآتي من سانغيزار، من تلك القرية الصغيرة الواقعة على بعد ساعة بالسيارة شمال قندهار.

ليل

أنا أعيد قراءة "دي فيغني" التي أحبها جداً جداً، ووصلت إلى هذا المقطع، الذي أحبه جداً، ولا بد وأنني قد تجاوزته في المرة الأولى: "بدت الحرب لنا أنها حالة طبيعية لنا جداً لبلدنا، حتى أننا كنا عندما يطلق سراحنا من الفصول الدراسية، نلقي بأنفسنا في خضم الجيش إلى جانب المسار المألوف المتدفق لأيامنا، لقد وجدنا أنفسنا غير قادرين على الاقتناع بوجود سلام هادئ دائم".

عندما أمرّ على المقطع مرة أخرى، يخيّل إليّ كما لو أنني أستطيع أن أسمع إميلي تقرأه لي، فينتابني إحساس غير مريح بشكل واضح، كأنه الإحساس بالذنب.

ليل

نحن نجثو أرضاً بجانب الطريق، ثم نعدو عبره في رتل إفرادي. هناك ضباب كثيف، لكنني أعرف هذا المكان جيداً. نجري متجاوزين المنازل المظلمة، متخذين من ظل الأشجار غطاء لنا. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى الفناء الخلفي، فإن الفرقة كلها كانت قد تجمعت. أعطي تانر الإشارة ويتولى هو القيادة متقدماً حتى باب الشرفة ثم يدفع الباب بكتفه بقوة. بعد لحظات، خرج الشباب يجرون وراءهم إميلي شعثاء متسخةً مع صغيري جاك وهي تسحبه معها. انتزعت ابني منها، وثبتها تانر أرضاً باسطاً أطرافها وربط معصميها من وراء ظهرها. كانت تئن من الصدمة. زرعت مسدسي في مؤخرة رأسها. وأنا أسحب الزناد، سمعت نفسي أصرخ: لقد أقسمتِ. لقد قطعت على نفسك عهداً!

استيقظت شاعراً بالاختناق. يداي مشدودتان. ويجتاحني شعور بالوهن والانفصال عن المحيط.

الكوخ بارد بفعل الليل. خارج الكوخ، السماء سوداء والظلام يخيم على المكان كله.

زوج. وعد والتزام. وأنا - أحترق من الداخل.

وانفصال عن هذا المكان.

النهار

بعد ظهر هذا اليوم، سألني المجند سيمونيس، أحد القناصة لدينا، فيما إذا كان باستطاعته فحص الأسلحة المحتجزة. واختار واحدة من الأسلحة الثقيلة، طويلة الماسورة لي - إنفيلدس. المصنعة من قبل التاج البريطاني، وكان عليها ختم مصنع البنادق الحكومي في إيشابور، الهند؛ وتاريخه هو 1916. وبعبارة أخرى، كنا نهاجَم بسلاح يبلغ من العمر 94 عاما تم الاستيلاء عليه من غزاة سابقين.

راقبت سيمونيس وهو يفكك البندقية. لقد تم الحفاظ عليها وتزييتها بشكل جميل، وبساطة تصميمها ضمنت لمن تم تجنيده إلزامياً من مقاتلي طالبان سهولة الاستخدام وإمكانية الاعتماد عليها. وأشار سيمونيس أيضا كيف أن آلية ضرب النار تزيد من الدقة بما أنه يتوجب على مطلق النار أن يحرك المزلاج لتفريغ الرصاصة المستخدمة وسحب الرصاصة المقبلة ووضعها في الخزان الداخلي، والذي يتيح له التركيز على الهدف. إلى جانب هذه الدقة هناك القدرة، كل رصاصة مصممة للقتل في طلقة واحدة على نطاقات من 500 إلى 700 متر أو أكثر. وبالمقارنة، نادراً ما تشارك وحداتنا خارج 350 متر. إنني سعيد حقاً لأن العدو لا يملك بنادق M2 ،M1، أو 03A3 سبرينغفيلد، المستخدمة من قبل قناصة الولايات المتحدة في كوريا.

الليل

تلازم مخيلتي صورة لواحد من مقاتلي طالبان. كان طويل القامة، شاباً، ينضح قدرة كما لو كان لا يقهر. وكان يبدو غير مهتم بتاتاً بسلامته وهو يتنزه، وأنا أستخدم هذه الكلمة عمداً، تحت الرصاص الذي أمطرناهم به. ويطلق النار على مواقعنا من خلال رشاش الكلاشينكوف خاصته. وأذكر أني شعرت بالذهول، ثم بالرعب من لامبالاته. إذا كان هذا هو معدن الرجال الذين نحاربهم، أناس مدفوعين بلهفة للارتقاء إلى السماء، فإن تدريبنا المتبجح كله لا يساوي شيئاً. حتى أنا، مع فكري وتعليمي، لم أكن أملك شيئاً يمكن أن يماثل هذا النوع من الاعتقاد.

في وقت لاحق، عندما تلاشى الدخان الناجم عن الهجوم المباشر المشترك، رأيته يحاول الزحف حتى منحدر صخري وقد فقد ذراعه وساقه الأيمن جراء الانفجار. كان رجالي يهللون

جذلين، ولكنني ألفيت نفسي غير قادر على المشاركة في ابتهاجهم. في نهاية المطاف أطلق أحدهم عليه النار في رأسه ووضع نهاية لبؤسه. لقد كان الأمر كقتل أسد صغير في المسلخ، عمل دونما أي فضل أو كرامة. ليس من أجل هذا طلبت المشاركة في هذه الحرب. الطريقة التي مات فيها جعلتني أشعر بالغضب والعار.

النهار

العار.

عاش الإغريق القدامى وماتوا من خلال رمز الشرف - عاشوا ضمن دستور ينصّ على أن القوى التي تدعم وجودهم، تستقي صورتها الأساسية جداً عن الذات، من خلال النظر إليها والحكم عليها من منظور تلبيتها لهذا الرمز. وكان العار هو القطب المعاكس للشرف، حتى أنه عندما أتى محارب هوميري مثل أجاكس بعمل مخزٍ، كانت النتيجة انهياراً مفاجئاً وكاملاً للشخصية.

وهذا يذكرني بالباشتون. رموزهم غريبة بالنسبة لي - أنا أمقت تعطشهم للدماء وبغضهم للنساء - ولكن أعتقد أنني أفهم وأتعاطف مع وضوح ثنائية الشرف والعار لديهم.

خلال فترة عملنا في مقاطعة خوست، سألت واحداً من مقاتلي الطالبان الذين أسرناهم، والذي لا يمكن أن يتجاوز عمره الستة عشر عاماً، لماذا حارب مستخفاً بهذا الشكل الصارخ بمسألة الحفاظ على ذاته. سألته إذا كان لا يخاف من الموت، ولا يزال بإمكاني أن أتذكر رده كلمة بكلمة: ولماذا أخاف؟ يوماً ما ستبتلعكم عجلة الزمن كما ستبتلعني. إنها مسألة كم من الوقت لدى المرء استعداد للانتظار. وفي الوقت نفسه، إن السماح لكم بترويع أرضنا هو عار، وقلة شرف أنكى من الموت.

هوميروس لم يكن بإمكانه أن يصوغها بشكل أفضل من هذا.

الليل

لقد حدث لي شيء غريب اليوم. لدى تنظيف واحدة من بنادق العصر الفيكتوري القديم ذات المزلاج المتحرك التي استولينا عليها من طالبان، علق إصبعي البنصر بطريق الخطأ في ثقب في لوح في مخزنها الخشبي. وكلما حاولت تحرير إصبعي، انحشر أكثر. كان يوماً مستعر الحرارة: لا بد من أنني انفصلت عن المحيط برهة. إذ شعرت بنفسي أتوحد مع المخزن، البندقية، الأرض، والحقل في الخارج، وحتى الجبال. لسعَ غصنٌ كالسوط وجهي. انسكبت الرمال من ركبتي؛ وأحرقت الشمس رأسي الصخري الرمادي. كل ما حولي كان شظايا من الزجاج المكسور.

أصابتني نوبة من الهلع، ولويت إصبعي محرراً إياه بعنف كاد الظفر معه أن يقتلع من مكانه. لكن فرحة العودة إلى الواقع كانت كافية للتغلب على الألم. كدت أنشج بالبكاء من الفرحة. ثم توجب علي الذهاب إلى دوك لاقتراض زوج من الملاقط لإخراج الشظايا. قال لي إن إصبعي يبدو

وكأنه فرشاة أسنان. استغرق الأمر مني ساعة لإخراج كل الشظايا الصغيرة المسننة منه. كانت رائحة البارود تفوح من البندقية ومن إصبعي على حد سواء.

النهار

رداً على التقرير الإخباري الذي كان من الواضح أنه ما انفكّ يؤرقه منذ أن استمع إليه قبل أسبوع، طبع كونولي قائمة مفيدة لبعض الأشياء التي يحظّرها الطالبان عندما كانوا في السلطة. وقام بتوزيع نسخ منها على كل عضو في السرية، جنباً إلى جنب، مع مذكرة مكتوبة بخط اليد كتب عليها: أريد أن يكون هذا بمثابة تذكير، إذا كان هناك من حاجة إليه، بنوعية الناس الذين نقف ضدهم: 1. لا يسمح للمرأة بالخروج من المنزل إلا بصحبة محرم (قريب من الرجال الأقرباء مثل الأب أو الأخ أو الزوج).

2. لا يسمح للمرأة بالشراء من أصحاب المحلات الذكور.

3. يجب أن تكون المرأة مغطاة بالبرقع في جميع الأوقات.

4. أي امرأة تظهر الكاحلين يجب أن تجلد.

5. لا يجوز للمرأة أن تتحدث أو تصافح الرجل. ليس لغريب أن يسمع صوت المرأة.

6. يحظر الضحك في الأماكن العامة.

7. يحظر على النساء ارتداء الأحذية مع الكعب كما لا يجوز لغريب أن يسمع خطى المرأة.

8. مستحضرات التجميل محظورة. أي امرأة لونت أظافرها ينبغي قطع أصابعها.

9. لا يسمح للمرأة بممارسة الرياضة أو الدخول إلى نادٍ رياضي.

10. تحظر الملابس النسائية ذات "الألوان الجذابة جنسياً".

11. يحظر على النساء غسل الملابس في الأنهار أو في أي مكان عام.

12. يحظر على النساء الظهور على شرفات منازلهن. جميع النوافذ تُدهَن بحيث لا يمكن رؤية المرأة من الخارج.

13. يجب تغيير اسم أي شارع أو مكان يحمل اسم المرأة أو أي إشارة أنثوية.

14. لا يسمح لأحد بالاستماع إلى الموسيقى. لا يسمح بالتلفزيون أو مقاطع الفيديو.

15. يمنع اللعب بأوراق اللعب أو الشطرنج. لا تحليق للطائرات الورقية.

16. لا حجز للطيور - من يحتفظ بالطيور يسجن والطيور تقتل.

17. تمنع جميع الصور في الكتب والمنازل.

18. أي شخص يحمل كتبا غير إسلامية يعدَم.

19. على جميع الناس حمل أسماء إسلامية.

20. على جميع الرجال، وكذلك الأولاد، أن يرتدوا ملابس إسلامية ويغطوا رؤوسهم بقبعات أو غترات. تمنع القمصان مع الياقات.

21. يجب على الرجال عدم حلاقة أو تقليم لحاهم، والتي ينبغي أن تنمو بطول يساوي قبضة اليد ابتداء من نقطة الذقن.

22. يجب على أي شخص غير مسلم ارتداء قطعة قماش أصفر مخيطة على ملابسه لتميزه عن المؤمنين.

ارتأيت إرسال نسخة إلى إميلي لتذكيرها لماذا زوجها السابق يقاتل في أفغانستان، ولكن بعد ذلك قررت ألا أفعل ذلك لأنه جهد ضائع. لقد ذهبتْ، وعليَّ أن أتصالح مع ذلك.

النهار

اليوم عيد ميلاد جاك. طفلي سيبلغ الثالثة من العمر. أقف في فترة مراقبتي على حافة جدار الهيسكو وأتخيل أني أحمله بين ذراعي، مشيراً إلى الحقل الرتيب والجبال البعيدة. تلك الجبال - كانت تلقي كل يوم ظلالها الطويلة في وقت مبكر على وجوهنا: وبحلول الساعة الرابعة نصبح محاصرين في ظلامها. كل يوم كان يتأخر شروق الشمس بحيث ننهض ونجول في ظل الليل الممتد على نحو غير طبيعي. كل مدافعنا وقنابلنا تبدو مضحكة أمام عظمتها. مما يحدوني للتساؤل عما إذا كان هذا ما شعر به الآخيون حين كانوا يحدقون من شواطئهم نحو قلعة طروادة الحصينة، مع إيمانهم بآلهتهم بأنها مصدر الحماية الوحيدة لهم. ولكن من ناحية أخرى، قد تكون هذه الجبال أقدم من كلٍّ من طروادة أو مسّينا.

وماذا عن حمايتي؟ ربما سأستقر من أجل طفلي.

في ذهني، أراني أحملك بين ذراعي، يا ولدي الصغير، وأرفعك عالياً في الهواء مثل شمعة لتمنحني الشجاعة على المضي قدماً. أنت النور الساطع بالنسبة لي في هذه الأرض المظلمة.

النهار

زارنا بعد ظهر اليوم رئيس شرطة المنطقة. إنها زيارته الأولى لقاعدتنا، بل للمنطقة برمتها كما اعترف هو نفسه. تم تعيينه في منصبه منذ أكثر من عام، ولا يزال يعيش في كابول، هذا البطل المزعوم لحرب المقاومة ضد السوفييت. إننا ندفع للحكومة التي تدفع له للادعاء بالقيام بتنفيذ التزاماته المأجورة. وقد أتقن ابن العاهرة الذي يعدّونه رمزاً، كيف تتم اللعبة. قبل مغادرته، طلب من كونولي التوقيع على ورقة مختومة تثبت زيارته، والتي أطلق عليها مصطلح التفتيش. فما كان من كونولي إلا أن أشار إلى الطريق الترابية المؤدية إلى الجبال، وقال له إنه سوف يوقع على الورقة عندما توضع مخافر الشرطة على طول الطريق. جدية كونولي القاتمة فاجأت ضيفنا. فقال إن المنطقة تقع ضمن نطاق مسؤوليتنا. شعرت بالفخر للطريقة التي عالج كونولي بها الوضع.

قبل ثلاثين عاماً، أشار قائد الشرطة: "كانت هناك مراكز شرطة في الجبال". ثم ابتسم بعدم ارتياح وهو يستطرد: "إنها موجودة الآن فقط في مجال الذكريات".

ابتسم كونولي أيضاً وقال: "كما هو الحال مع وثيقتك المختومة". ثم أضاف: "لقد تغيرت قواعد اللعب منذ أن توليتُ أنا زمام الأمور، يا همبابا. لقد أصبحت: ادفع كي تلعب".

همبابا؟ ولكن اسمي شير علي... وهو ما يعني "النمر".

قال كونولي: يمكنك أن تناديني كلارك كينت - وهنا هو حصن أميركا. حسناً؟".

ثم رافق الرئيس إلى سيارته التويوتا وأخبره ألا يعود قبل أن يكون لديه خطة للسيطرة على الجبال.

الليل

يبدو أن حاكم الباشتون عبد الرحمن خان صاغ مصطلح "ياغستان" - بلد الثوار - كي يصف بلاده. لا يحب الباشتون أن يحكمهم آخر، كما قال، ولا حتى من قبل قبيلة أخرى أو قبيلة فرعية. فكرت في السوفييت الذين أقاموا في الأصل هذه القاعدة قبل أكثر من عشرين عاما، ثم تركوا على عجل عندما اتّحدتْ قبائل الجبال واجتاحتهم في هجوم متضافر. لا تزال هناك بعض الكتابة الروسية على الجدران الطينية الجافة بجانب خيمة الطعام. على سبيل المثال، حمل أحد الجدران شخبطة كتب فيها: "حديقة غوركي"، قد ترجمها لي واحد من جنود الجيش الوطني الأفغاني. أحدهم - وربما كان من فرقتنا - خربش بجانبها باللغة الإنجليزية: "لينكين بارك".

جدار آخر سجلت عليه المسافة من القاعدة إلى "موسكو: 5197 كم". وضعت في ذهني ملاحظة أن أبحث عن المسافة من هذا المكان إلى واشنطن، دي. سي.

ليل

قرأت مقطعاً الليلة ساعدني على فهم السكان المحليين. كان من كتاب *جيرمانيا*، من تأليف تاسيتوس: "عندما لا يشاركون في الحرب فإنهم ينفقون قدراً معيناً من الوقت في الصيد، ولكن أكثر منه بكثير في الكسل، ولا يفكرون في أي شيء آخر إلا النوم والأكل. بالنسبة إلى الرجال الأكثر جرأة والمولعين بالحرب ليس لديهم عمل منتظم، فرعاية المنزل والحقول متروكة على عاتق النساء والرجال المسنين والضعفاء في الأسرة. ومن ثم فإنهم بتبديد وقتهم يظهرون تناقضاً غريباً - فهم في الوقت نفسه يحبون الحرب ويكرهون السلام".

أطلعت كونولي على المقطع، فأرسله إلى العقيد لوتنسلاغر في الكتيبة، والذي وجده طريفاً ومسلياً.

يحاول كونولي بجد أن ينهض من حالة الانهيار التي أصابته في تلك الليلة. أنا أفهم ذلك، ولكن لا أستطيع أن أنكر أنه كانت هناك أوقات أردت فيها أن أخبره بأن يرمي بموقف العارف لكل شيء الذي يتبناه في القمامة، دونما ضغائن شخصية تجاهه.

في الوقت نفسه، لا أستطيع أن أمنع نفسي من سؤاله عن الاستراتيجية التي جعلتنا نتحرك على عجل من موقعنا السابق في مقاطعة خوست وأن نتمركز هنا في قندهار في منطقة بعيدة عن خطوط الدعم الثابتة. تصلّبَ فكه بالحركة المعتادة، وأصرّ بعناد أن الجنرالات يعرفون ما يفعلون. رداً على موقفه، استشهدت بمقطع قرأته في هيرودوت في يوم ما، كُتب في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو يربط كيف تمكّنَ الكهنة المصريون من تلاوة أسماء الملوك البالغ عددهم 330 الذين حكموا منذ تأسيس مجتمعهم، قبل أن يضيفوا أن أياً منهم لم يحقق أي إنجازات مهمة يمكن أن تقترن باسمه.

أخبرت كونولي أن المقطع قد ذكرني بقيادتنا العليا. مرة أخرى، وبأسنان مطبقةٍ تصرّ، كرَّرَ شعاره حول الجنرالات الذين يعرفون بشكل أفضل. فاستسلمت وتركته لقناعاته الخاصة.

إيفان كونولي يمثل الضابط المثالي المتوسط المستوى، متشنج، لكنه منظم، ذو خيال محدود ومبادرة مقيّدة - تفكيره الاستراتيجي لا يتعدى جدران الهيسكو التي تحيط بقاعدته. إنه من نوع الضباط الذي ينفذون الأوامر بشكل أعمى، ويصعدون سلم القيادة بشكل مطرد، وينتهي الأمر بتعزيز ديمومة الأخطاء التي ارتكبها الجنرالات السابقون قبلهم. وبسببهم - نحن، الباقين - محكوم علينا بأن نعيش العبودية، محرومين من العظمة التي ترافق الانضباط في الخدمة العسكرية. هؤلاء هم الرجال الذين يقودوننا ضد الباشتون، رجال ولدوا للبندقية والسيف. يا إلهي.

النهار

تراءت لي اليوم يد أبـي وهي تلفّ يدي أثناء تنظيفي لبندقيتي الـ M-4 بعد ظهر هذا اليوم. كنت أمسح التجويف بممسحة من القطن عندما شعرت بضغطة يده. انتابني إحساس كما لو أنه

أراحها هناك للحظة - بينما بقيت أنا في حالة سكون شديد. لقد رأيت خاتم الزفاف المألوف على بنصره، علامة الحرق القديمة على معصمه، والأوردة البارزة على ظهر يده.

تدفق الحنان في داخلي وعدت مرة أخرى طفلاً بين ذراعيه. لم تعد الشمس التي تنعكس على الفولاذ المغطى بالزيت هي شمس قندهار بل شمس ريف فيرمونت. كنت أسمع الشحرور يغني، وصوت جرافة قديمة تنطلق في مكان ما بعيداً، وإيفا تركض في الفناء. الألوان ألوان الباستيل الرقيقة الزاهية الخاصة بنيو إنغلاند؛ والروائح روائح نيو إنغلاند اللطيفة. حينما عدت لتنظيف نابض المخزن، فإن ما يلوح أمام عيني لم يكن الغبار والحصى التي تغطي بندقية الـ M-4 عادة، بل هو طين وغبار الصيف الأميركي. لقد استغرقت عميقاً بهذا الشعور. كنت وأبـي ننظف هذه البندقية معاً، ونعمل يداً فوقها يد.

ليل

تتناثر أعمدة طويلة غرست بالأرض المظلمة، والتي اتضح بعد التدقيق أنها ماء. صفيحة من الماء الساكن غير واضحة الحدود، مضاءة فقط بواسطة ضوء كشاف ينتشر مشكلاً دائرة ذات إضاءة خلفية باتت بديلاً عن السماء. ليس الوقت ليلاً ولا نهاراً، لذا لا أستطيع أن أحدد الساعة. هناك شكل غير واضح المعالم ينجرف بين الأعمدة، ولكن شكله كان ضبابياً إلى درجة أنه قد يكون قارباً أو قد يكون شيئاً آخر تماماً. ثلاثة أو أربعة غربان جثمت على الأعمدة بلا حراك. انتظرت أن يحدث شيء ما، وبالفعل فإن رأساً داكناً خرج من الماء. وسرعان ما أخذ ذاك الكيان يخوض في الماء التي وصلتْ حتى ارتفاع الصدر متقدماً بصعوبة، كنت على درجة من اليقين لا أستطيع تفسيرها، أن ذاك الكيان كان لإميلي. انحنت وسحبت شيئاً خارج الماء. أنا أعلم أنه جاك، ولكن أغرب ما في الأمر هو الطريقة التي تمسكه بها، إذ سحبته من الكاحل، وما تبقى منه كان تحت الماء. هممْتُ أن أصيح بها عندما رفعته، ورأيت - بكل وضوح - ثقب رصاصة في وسط جبهته. ليس هناك دم، ولكن أستطيع أن أنظر تماماً من خلال الحفرة حتى الجانب الآخر. أحاول الوصول إليهم ولكن شيئا يمسك بـي ويمنعني فأستيقظ صارخاً.

أنا ألقي باللائمة في مثل هذه الكوابيس على دواء الملاريا الميفلوكين. أرغب بالتوقف عن أخذه - ضارباً عرض الحائط التهديد المستمر بالإصابة بالملاريا. لذلك أمضيت بقية الليل مستمعاً إلى صوت البعوض، دون أن أكون قادراً على العودة إلى النوم.

نـهار

وصلتنا أخبار اليوم حول هجوم طائرة بدون طيار قبل بضعة أيام على مجموعة من المتمردين الذين عبروا الحدود. وفي تلك الليلة نفسها، حققت عملية مشتركة قامت بها القوات الخاصة وبمساعدة الأفغان بإزالة معقل لطالبان في جنوبنا. مرر كونولي الخبر السار للمجموعة

وقابله الرجال بالهتاف. لم يكن هناك أي اشتباك مباشر بيننا وبين العدو، ولكننا نعتبر كل ضربة ضد العدو جزءاً من تسديد الحساب عن مقتل هندريكس وكاسترو.

وفي وقت لاحق، أوقف كونولي المجند غينز وهو يتجول في قبعة مسطحة من الصوف كان قد أخذها من أحد ضحايا البعثة إلى الجبال وطلب منه أن ينزعها. عندما سألته عن ذلك في وقت لاحق، قال: على عكس المستعمرين البريطانيين، نحن لن نغدو كالسكان الأصليين. على الأقل، ليس في ظل قيادتي.

نهار

قمت اليوم بزيارة مفاجئة إلى أكواخ القوات الأفغانية على الجانب الآخر من مكان تجمع المركبات. وقررت هذه المرة عدم سحبهم لأحاسبهم على المخالفات. وكما لو أنه يعبر عن امتنانه، أعطاني أحدهم ساقاً من الكمون الأسود، وقد استراحت الحبوب على قمم النهايات الحادة والحساسة. وقال لي مبتسماً أنني إذا احتفظت بها تحت وسادتي فإنها ستعطر أحلامي.

طلب رجل آخر أن يقرأ قصيدة على شرفي. عندما وافقت، قال لي، بحزن، إنه كان موسم البطيخ في قندوز، حيث ينتمي هو إلى هناك، وكانت القصيدة مخصصة للطعم الرائع للفاكهة. وقال إن الإمبراطور المغولي بابور مغرم بهذا البطيخ نفسه وأقسم في إحدى المرات أنه مستعد للتخلي عن عرشه وكامل ثروته مقابل بطيخة عَطِرة واحدة من قندوز. ولكن بعد ذلك بدأ يضحك دون أن يستطيع السيطرة على نفسه بينما كان يحاول قراءة القصيدة لي، وأدركت حينها أنه كان تحت تأثير الحشيش. سألته عما كان يعمله قبل الحرب، فأجاب أنه كان يعمل في فرن من الطوب منذ سن السابعة. ويبدو أنه بيع من قبل والديه إلى مالك الفرن، الذي كان أيضا رئيس قريتهم، لسداد ديون قديمة، ولكن لم أستطع أن أجزم ما إذا كانت هذه هي الحقيقة أم أن كلامه بفعل الحشيش. فإن كان يقول الحقيقة فلا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كان والداه قد أقنعاه حقاً بمسألة تسوية الديون. مرة أخرى، سيكون ذلك في نطاق المعقول الوارد حدوثه، نظراً لما عرفته عن هذا البلد وشعبه.

مساء

حين رأيت تارساندان للمرة الأولى، اعتقدت أنني وصلت إلى أقصى نهايات الأرض. ذكرني المكان بوادي الموت، عدا أنه كان أسوأ. أما الآن فأنا لم أعد ألحظ حتى الخراب. بل إنني في بعض الأحيان أتأثر برقة لوحة الصحراء المرتسمة أمامي، أو تألّق شروق الشمس وغروبها في الصحراء. هذه الليلة، على سبيل المثال، يتراءى درب التبانة كطريق سريع يتوهّج وهو يشقّ السماء. قال لي دوك إن السكان المحليين يعتقدون أن درب التبانة هي المسار الذي تبعه البُراق، حصان النبي محمد، في طريقه إلى السماء. رفعت بصري إلى الأعلى - بينما كان جنود الجيش الأفغاني الأوزبكيون يباشرون صلاة المساء - وفهمت كيف يمكن أن أفسر اعتقادهم ذاك. يرفع الأوزبكيون راحات أكفهم أمام وجوههم ويهتفون بسم الله الرّحمن الرّحيم. لكم كان ذلك يزعجني في

البداية، ولكنني تعلمت مذئذ تقدير الإيقاع الذي تمنحه صلواتهم لساعات اليوم. خيالاتهم الراكعة أمامي راحت تتلألأ قبالة السماء المرصعة بالنجوم.

على بعد مسافة منهم، في المنطقة المفتوحة قرب ساحة المركبات نهضت للقيام بتدريبات التاي تشي المسائية خاصتي. إلى يساري، كان المجند سيرانو يستمع إلى مشغل MP3 الخاص به، ويلوح بذراعيه كما لو كان في تجمع برنينغ مان. والن داخل كوخه قد شغل معزوفات البلوز على الغيتار. رائحة الهواء حلوة، ورطبة من الضباب. عبر نجم سيّار السماء راسماً قوساً خلَبَ بلمعانه وتألقه لبـي. فاجأني شعور الرضى الذي غمر نفسي، والذي يثبت أن هناك جمالاً حتى في حالات الركود الأكثر كآبة.

ليل

إنه صباح جميل. درجة الحرارة في الستينات العليا، الشمس تغطس وتظهر في أحضان السحب القطنية، السماء زرقاء قزحية اللون. سأتزوج بإميلي على أرض ميلز مانشن، بعشبها الأخضر المتألق الممتد على مساحات حتى الهدسون. ترددتْ إميلي قبل إدخالها الخاتم في إصبعي، وقد جهدتُ على أن أحتوي صبري النافد، مدركاً أن الرجال ينتظرونني حتى أنتهي وأنضم إليهم. وحين أعلن القسيس تبريكاته، نظرت إلى الغيوم وأغلقت عيني. ثم قلت وداعاً على عجل وحملت على كتفي حقيبتي وبندقيتي. ثم ركضت بين صفوف الضيوف المتسلسلة وصولاً إلى النهر، حيث اصطفّت فرقتي في تشكيلتها منتظرة إياي. التفتُّ لألوح مودعاً فراعني رؤية الظلال تنتشر عبر الحديقة المشمسة، وثوب زفاف إميلي الذي استحال إلى الأسود. أريد أن أناديها، لكن الكلمات لا تسعفني. لقد كانت تحدق في وجهي بحزن يفوق الوصف.

استيقظت ووجهي تغسله الدموع. لماذا الوداع صعب إلى هذا الحد؟

أنا لن أتوقف قط عن الإيمان بنا يا إميلي. إن ما حدث لن يغير الطريقة التي أشعر بها.

والكلمات التي لم تحضرني... أتذكرها الآن.

إنها، بكل بساطة: يا حبـي.

النهار

الحرارة مائة وعشرون درجة. الأرض ابيضَّتْ مستحيلة إلى قشرة جافة بيضاء ببياض العظام. لا نسيم، ولكن غبار وحصى في كل مكان. نسير في المكان وقد غلَّفَنا الغبار، غارقين حتى الركب بالغبار، حتى أننا نسعل غباراً. أدنى حركة تطلق غيوماً من الغبار الذي يبقى معلقاً في الهواء كالريش. أصبحنا نظهر ونختفي كما لو أنها خدعة سحرية، عدا أن الغبار يبتلعنا ثم يلفظنا كمخلوقات مغلفة بالغبار. ارتديت نظاراتي التي تلتف حول العينين وغطيت رأسي بوشاحي ذي المربعات البيضاء والسوداء؛ فيما لف دوك نفسه من الرأس إلى أخمص القدمين بما يبدو وكأنه

خيمة محمولة؛ أما الرقيب تانر فقد عثر على خوذة دراجة نارية مع قناع وقفازات جراحية. والن أضحى الأكثر بياضا بيننا، بالرغم من كونه قد التف بمعطف. للمرة الأولى منذ وصولنا هنا، لا أستطيع حتى رؤية الجبال. مر اليوم في سديم أبيض، مكوناته أشعة شمس حارقة وغبار لاذع. ومن المفترض أن يزداد الجو سوءاً في اليومين المقبلين. لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكن ذلك.

ليل

لا يزال الطقس حاراً، حتى في الليل، ولكن الرياح تحركت. إنها تهب من الجنوب الشرقي، مباشرة من السهول الجنوبية الجافة. فجأة امتلأ كل شيء بهذه الرياح وبالغبار والرمل اللذين تجلبهما معها. الغبار يسبب صعوبة في التنفس، وكل منا يحس بالاختناق لأن رئتيه مملوءتان به. الرمل يطقطق تحت القدمين وعندما أستلقي على سريري، بإمكاني أن أحس بالرمل يتسرب أسفل ظهري. أحاول القراءة، ولكن كتابي تنهمر منه الرمال: حتى يبدو أن الكلمات تنزلق مع حبات الرمل خارج الصفحة. أتخلى عن الفكرة وألتفت لمراقبة سقف الكوخ وهو يسرب الغبار بدلاً من ذلك. الريح تضرب الباب؛ هناك رمال تتسرب من خلال الشقوق في الأرض. من الصعب الحفاظ على أي شيء آخر في الذهن.

عندما أخطو إلى الخارج، كل ما أستطيع أن أراه هو سحب بنية واسعة تكتسح الظلام. كما لو أن الريح قد تمكّنتْ أخيراً من أن تجتثّ شيئاً لم يسبق له أن اقتلع من موضعه، فثار الآن ليمسح ماهية العالم المألوف بأسرها، مستبدلاً الأفكار من عقولنا والكلمات من أفواهنا، وكل ما يمكننا القيام به هو مشاهدة هجومه بحَيْرة.

نهار

وصلت القاعدة بأكملها إلى طريق مسدود. عاصفة الغبار لا تزال ثائرة وقد انخفضت الرؤية جراءها إلى الصفر.

هناك غبار داخل كوخي، على مكتبي، على سريري، ولا يمكنني أن أتحرك دون رفع سحابة من الغبار. أنا أرتدي قناع الوجه ولكني لا أفتأ أزيله لأنه خانق.

كم أمقت احتمال أن أمضي ليلة أخرى دون نوم.

نحن جميعاً متعبون جداً ونكاد نصبح في عداد الأموات.

تباً لهذا.

أعني، تباً لهذا الهراء!

أنا غاضب، ولا أرى أي داع للتخمينات على الإطلاق.

استدعيت والن إلى مكتبي وأخبرته بأنني اكتشفت أن رجالنا قد قاموا بإطعام الفتاة الأفغانية القابعة خارج الأسلاك، وأن هذا ببساطة غير مقبول ولا مبرّر له.

سألته مغضباً: "أتريد أن تخبرني ما الذي يجري يا رقيب أول؟ منذ متى كان لدى الرجال الكثير من حرية الحركة خارج محيط القاعدة؟ ماذا يفعل هذا المترجم اللعين وهو يركض مثل أرنب بطارية إنيرجايزر السخيف؟ من أعطاه الإذن للتحدث إلى الفتاة؟ ما الذي حصل لإجراءات الأمن والسلامة الخاصة بنا بحق السماء؟".

استغرق بعض الوقت للرد، وعندما أجاب كانت نبرته كئيبة وهو يقول: "يمكنك القول بأنني كنت على خلاف طبيعتي المعتادة منذ لحظة اكتشافي أنها بدون ساقين يا سيدي. عندما كنت أسير باتجاهها، وأتوقع وجود قنبلة في طرفها، كل ما استطعت أن أفكر فيه هو أنا ونفسي وذاتي. ولكنها عندما رفعت البرقع، جمّدَ المشهدُ الدمَ في عروقي وشلّ أطرافي. لم أعد أرغب بالمضي في تفتيشها، لكنني فعلت بالطبع، وحاولت أن أكون مراعياً لظرفها، لكن الموقف هزني. ماذا يمكنني أن أقول يا سيدي؟

لم أكن أتوقع أن أجدها بجذعين بدلاً من الساقين. هناك أمور في الحرب يمكن أن تؤثر في المرء. وكان هذا واحداً منها".

أجبته: "بحق يسوع. لم أكن أتوقع أن أسمع منك هذا الهراء. هل تقول لي إنك ستستخدم هذا الهراء كمبرر لتعريض أمن القاعدة كلها للخطر؟ يا رباه. بإمكاني أن أتسبب بفصلك لتحايلك عليّ يا ماركوس!".

"لقد تركتَ القرار لي يا سيدي، وفعلت ما اعتقدت أنه الأنسب".

"اللعنة، أنت تعرف أكثر من أي شخص آخر أنني لا أملك حتى القوات الكافية لتنفيذ نصف المهمات التي يتوقعونها مني. وأنت تجلس هنا أمامي ببساطة وتخبرني كيف أن قلبك ينزف لغريبة دون أرجل وأن هذا كان سبباً كافياً بنظرك لإهمال أكثر الإجراءات الأمنية أساسية! أعني، لماذا لا تقوم بتفكيك جدران الهيسكو التي تحمينا وتزيل الأسلاك الشائكة مرة واحدة؟ بل ضع لافتة أيها الرقيب أول، واكتب عليها: ميدان تدريب على الرماية، أيها الطالبان أهلا وسهلا بكم هنا!".

رمقني بنظرة متوترة، ولكنه التزم بالصمت. فبذلت جهداً للتحكم بنفسي، وبصوت أكثر رسمية، قلت له مستطرداً: "أنا لست بلا قلب يا رقيب أول، وقد أثرتْ إصاباتها الشديدة بـي أنا أيضاً. لكن هذا لا يشكل عذراً لما حدث. عندما يكون الرجال خارج الأسلاك، فهم في خطر كبير من التعرض لنيران الرماة في الجبال. هذا تجاوز كبير للخطوط الحمراء".

قال: "لقد كانوا خارج نطاق قناصة العدو حيث ذهبوا يا سيدي".

"توقف عن قذف التفاصيل التقنية في وجهي يا رقيب أول. يمكن أن يكون لديهم ترسانة ملعونة كاملة من المدفعية الثقيلة هناك، ونحن ينبغي أن نكون أكثر حكمة في تصرفاتنا".

تأملني بنظرة عميقة قبل أن يرد: "مع كل الاحترام الواجب لما تقوله يا سيدي، إن الفتاة مرمية هناك في تلك العربة منذ يوم ونصف. كانت تجلس خلالها محدودبة تحت الشمس المحرقة وأثناء الليل البارد بينما كنا جميعاً قابعين في أكواخنا وخيامنا. الوضع ليس سليماً هكذا".

"هذا هراء"، قلت باقتضاب. ثم تابعت: "ما خطبك؟ أتسعى أن يتم نقلك إلى فيلق السلام أو إلى أحد مراكز الرعاية النهارية؟ لا أستطيع أن أصدق ما أسمع! هل تسعى لمخالفة القواعد العسكرية؟ لن يطول بنا الأمر قبل أن تخبرني أنك قمت بتغيير قوانين الاشتباك مع العدو وأننا سنرسل لها الزهور".

تردد قبل أن يقول: "أعتقد أن هناك أوقاتاً لا يكون فيها للحرب مغزىً تماماً، يا سيدي".

حدقت في وجهه وأنا أشتعل غضباً: "أخارت عزيمتك؟ ثمانية عشر عاماً في الجيش وينتهي بك الأمر إلى هذا؟".

رد بهدوء: "هذا ليس انهياراً يا سيدي. إنني أعتمد على خبرتي كلها لأخبركم بأن هذا الوضع لا يشابه الوضع في ساحة المعركة. إنها مشكلة إنسانية. حقل المعرفة المتعلق بها بشري. والقوالب التي تقاس فيها الأمور هي قوالب القلوب والعقول".

"نحن نقاتل في حرب تقليدية يا رقيب أول. إنني لا أؤمن بالأساليب الودية في مكافحة المتمردين. وليس لدينا القوة العاملة الكافية لدعمها أصلاً. إن موقعنا، وواقع التضاريس المادية المحيطة بنا، يطأ كل شيء تحته. ولهذا السبب أريدك في كل مرة تنظر فيها إلى تلك الفتاة، أن تضيّقَ عينيك كالصقر وتنظر من خلالها إلى تلك المنحدرات، أفهمت؟ إنها تفعل بالضبط ما يفترض

بها أن تفعله: ألا وهو إقناعنا بالتخلّي عن وضعنا الدفاعي بحيث يتسنى لقومها أن يمسحونا عن وجه الأرض في غمضة عين. إنها الشرك الذي ينصبونه لنا أيها الرقيب أول. وهي تخدعنا لتوقعنا فيه. بحق السماء إنها تحدق في أعيننا تماماً متحدية إيانا بشكل واضح وضوح اللون الأسود من الأبيض، في كل لحظة ملعونة تمر بها وهي هناك".

أجابني بهدوء: "وأنا أقول لك إنك مخطئ. إن فكرت بالأمر بشكل موضوعي ستجد أنه ما من شيء أبيض وآخر أسود حول هذا الوضع: كل ما فيه رمادي".

قلت له: "بمجرد أن تشرع بالتفكير بهذا الشكل، فقد حان الوقت لك إذاً أن تستقيل. أما بالنسبة لتفكيرك الموضوعي فبصراحة تامة أنت تعرف أين يمكنك أن ترميه".

حفزت عبارتي تلك كل دفاعاته فجلس ومال إلى الأمام على مكتبي، وقال: "كنتُ في الجيش عندما كنتَ أنتَ في المدرسة يا سيدي، ورأيت ما يكفي لأقول لك إنك تقرأ الموقف كله بشكل خاطئ. نعم، بالتأكيد، في الجيش يفترض بنا أن نفكر بثنائية الأبيض والأسود لأننا نعيش في عالم رمادي 24 ساعة/7 أيام في الأسبوع فهذا يبسط لنا الأمور؛ ولكنه يؤدي أيضاً إلى أخطاء، وهنا يأتي دور القيادة. هنا تبرز مسؤوليتنا لنقول للأولاد خارجاً ما يجب عليهم القيام به وما يفترض بهم التفكير به. والأولاد مشوشون بسبب الفتاة. إن وضعها يشذّ عن القالب التقليدي، والأمر يدفعهم سريعاً نحو الجنون".

"هراء. في المرحلة التالية ستجعلهم يتحلقون حولك كالمخنثين يلتقطون باقات الزهر في حين يسحقنا العدو مرة أخرى. لقد فعلوها من قبل، فقد تلاعبوا بنا وكادوا أن يقضوا علينا. إذا تخلينا عن دفاعاتنا، فإنهم سيفعلون ذلك مرة أخرى. فإذاً حالتها مزرية؟ يا للهم الكبير. كبير جداً. أنا أحتاج منك أن تخرج إلى الرجال وتطلب إليهم أن يتجرّعوا غصّتهم حيال هذه الحالة المزرية ويتعاملوا معها كما يجب".

حدق بـي طويلاً مرة أخرى وقال: "نتجرع غصتنا إذاً، يا إلهي!" هزّ رأسه وتابع: "فإذاً يفترض بنا أن نعبّ من هذه القذارة بشكل مطرد إلى حد الإعياء؟ أمر لا يصدق يا سيدي. إننا الجيش الأميركي، ويفترض أن نعمل في سبيل أشياء تتجاوز القتل والقاتل وحسب. نحن نفعل الصواب في هذه الحياة".

ضربْتُ بكلتا يدي على المكتب وصحت به: "لا تتطرق إلى تلك الناحية يا ماركوس. لم يتبقَ إلا أن تسألني متى كانت آخر مرة نظرت فيها إلى الوحش الذي في المرآة".

ردَّ بحدّة: "إنها دائماً فكرة جيدة أن تتفقّد سلامة مسار ذلك الاندفاع الهائج الذي في نفسك بين الحين والآخر يا سيدي".

وبنظرة مستعرة أجبته: "سأطلب رأيك الشخصي عندما أحتاجه يا رقيب أول. أنت يدي اليمنى، بحق السماء، أنت قائد القادة الخاص بـي يا رجل. من المفترض أن تكون بمثابة الصخرة

الراسخة لهذه الوحدة، الشخص الذي يحافظ على الانضباط، ويشدّ أزْر من وهنوا فيها. ودورك الأهم هو دعمي ودعم قراراتي. هناك عمل يجب القيام به. فسيطرْ على نفسك".

ثم خفضتُ صوتي، وقلت: "لا مزيد من الاتصال مع المواطنة الأفغانية، هل هذا واضح؟".

تلاقت عينانا، وكانت نظرات عدم الرضى تنضح كئيبة من عينيه. ثم قال بهدوء شديد كدت معه لا أتبين حتى صوته: "مفهوم، سيدي".

غرستُ سيجارة في فمي، باذلاً جهداً واضحاً للسيطرة على نفسي. وقلت له: "هذا كل شيء يا رقيب أول".

راقبته وهو يخرج، ومن ثم نهضت وسرت بانفعال إلى زجاج الأمان الواقي الذي يشكل النافذة الوحيدة في الكوخ. كان مغلفاً بطبقة رقيقة من الغبار. ضغطت وجهي عليه ناظراً إلى الخارج فطالعتني ظلال طويلة تمتد عبر القاعدة، وضوء العصر يحشر نفسه بينها ليغطي كل ما عداها. وعلى الرغم من عدم وجود النسيم، أخذت بعض أجزاء الخيام ترفرف خافقة من تلقاء نفسها من حين إلى آخر. وعندما التفتُّ ثانية إلى الغرفة بدت الأخيرة شديدة الظلمة.

عدت إلى المكتب، وفتحت غطاء قارورة صغيرة، ثم صببت القهوة القديمة التي فيها في كوبي. أخذتِ الساعة القديمة الطراز التي على المكتب تصدر تكّاتها معلنةً انسياب الثواني. حركتُ السكّر في القهوة، وابتلعتها دفعة واحدة وأرسلت في طلب توم إليسون بعدها. عندما دخل، رفعت القدح مع تكشيرة وقلت له: "هذه أسوأ قهوة شربتها على الإطلاق! أعني، أنا لست أتوقع الحصول على الإسبرسو، ولكن مع ذلك هذا الشيء رديء".

رد مبتسماً: "سوف أدعوك إلى خلطة إيغل سكريمنغ عند مقهى غرين بينز في المرة القادمة التي نزور فيها مطار قندهار يا سيدي. إنها النوع المفضل لدي. هل أردت أن تراني؟".

"نعم، بالفعل. كيف حالك يا ملازم؟".

"لا بأس، كل ساعة في حال يا سيدي".

"لست متفاجئاً. لقد كنت في حالة خدر أنا نفسي منذ معركتنا الأخيرة. من الصعب ألاّ نكون كذلك، وبقع الدم الجاف تطالعنا في جميع أنحاء القاعدة".

"سأهتم بالأمر، سيدي".

"حسناً، هذا أمر، وهناك أيضاً شيء آخر يؤرقني".

"الأفغانية التي في الخارج؟".

"أجل".

أومأ برأسه وقد بدا لي مضطرباً وهو يقول: "وجودها يمثل عامل صرف انتباه كبير".

قلت باقتضاب: "بلا ريب أيها الملازم. هل فقد الجميع عقولهم اللعينة؟".

حدق في وجهي كغزال باغتته المصابيح الأمامية لسيارة توشك أن تنقض عليه، وقد أفزعته حدة لهجتي المفاجئة. فتمتم متلعثماً بشيء ما قبل أن ينطلق فيقول: "آه، حسناً، أعتقد... أعتقد أن الرجال غير معتادين على ظهور أنثى فجأة في منطقة القتال بعد شهور من العزلة يا سيدي. بخاصة بعد معركة شهدت إصابات لمقاتلينا. إنهم ببساطة ليسوا مستعدين نفسياً".

"يا للهراء. وأفترض أنني لم أحظَ بنعمة وجود ضباط أكفاء يستطيعون التواصل مع رجالهم وإفهامهم بأننا لسنا بشركات تعمل على تقديم الخدمات اللوجستية".

تضرج وجهه حمرة وقال: "لا تقلق يا سيدي. سأقرأ عليهم بند أعمال الشغب".

"حقاً؟ أتزعم لي أنك لم تكن تعرف بأن واحداً من الرقباء الذين كانوا تحت إمرتك، كان هو القائم في الخدمة ساعتها؟".

"لا يا سيدي. لقد عرفت ذلك... بعد الواقعة". تردد، قبل أن يضيف: "وبكل صدق، ربما كان عليّ أن أذكر لك ذلك مباشرة و-".

"وأيضاً تعاملت مع مرؤوسيك دون أن تنتظر مني أن آتي على الموضوع؟".

"نعم سيدي. اعتذاري، سيدي. أفترض أنني تصرفت بطرق لم أعهدها تليق بـي".

"انضم إلى النادي أيها الملازم"، قال والن وهو يدخل مرة أخرى.

"أهلاً يا رقيب أول. ما الأمر الآن؟". سألته باقتضاب.

فكر لحظة، ثم، ومن دون النظر إلي، قال: "في الواقع، لقد مررت إلى هنا كي أعلمك أنني بصدد جلب الفتاة إلى الخيمة الطبية لتقييم وضعها. أريد أن يفحص دوك جذعيها ويستبدل تلك الخرق البالية بضمادات نظيفة، على أقل تقدير".

لم أقل شيئاً. بدلاً من ذلك، عقدت أصابعي معاً ونظرت إليه بثبات لبضع ثوان. ثم قلت: "الإذن مرفوض، إذا كان هذا ما تلتمسه.

سوف ننتظر من الجيش الوطني الأفغاني التعامل معها عندما يصلون غداً. إنها وظيفتهم".

"مع كل احترامي، أنا لا أعتقد أن جنود الجيش الوطني الأفغاني مختصون طبياً يا سيدي".

"إننا أجانب، ورجال. وستكون محقة تماماً إن هي رفضت مساعدتنا. وهذا ما أرجح أنها ستفعله إذا كنت أعرف أي شيء عن ثقافتهم. أما في حال كنت تنوي فرض أشياء معينة عليها بالقوة، فستنتهي الأمور بحادثة مؤسفة بالإمكان تجنبها تماماً منذ الآن".

"لا يزال الأمر يستحق المحاولة. لدينا التزام قانوني وأخلاقي بتقديم الرعاية لها يا سيدي. سأحاول إقناعها بأن -".

قاطعته قائلاً بصبر نافد: "لا تتعب نفسك يا رقيب أول، قد *تعتقد* أن لديك مسؤولية تجاه الفتاة، ولكنني *أعلم* أن لدي مسؤولية أكبر تجاه جميع من في القاعدة".

أشحت بوجهي عنه وأنا أتوجه إلى كليهما بالكلام: "أعتقد أن هذا الأمر قد تجاوز مداه، أليس كذلك؟ أريدكما أن تحتويا هذا الموضوع وأن تركنا مشاعركما الخاصة في مكان آخر بعيداً من هنا. كقادة، أنتما بحاجة للحفاظ على ثباتكما عندما يفقد الجميع أعصابهم. لا يمكننا أن نفقد صوابنا جميعاً فجأة لأجل هذه الفتاة. ينبغي أن نكون في غاية السذاجة كي نسقط في حبائلهم. أعني، لم يمض سوى يومين منذ أن فقدنا الملازم فروبنيوس والآخرين. أقل ما يمكنكم القيام به أنتم ورجالكم هو تذكر من قتلهم وأن تسيطروا على أنفسكم".

حدّقا في وجهي. وساد صمت مطبق في الكوخ. ثم أخرج إليسون منديلاً ومسح أنفه.

"إذاً أنت لا تزال تعتقد أنها زُرعت هناك عمداً، سيدي؟". سألني بعد برهة.

"وماذا غير ذلك؟". رددت عليه.

"وما هي غايتهم؟". سأل والن فجأة.

"ما غايتهم؟ أوه - أنا مقتنع بأن رفاقها يقبعون هناك على تلك المنحدرات، خارج نطاق الرؤية لدينا. وفي اللحظة التي نتخلى فيها عن حرصنا - بانغ! يقضون علينا. وحقيقة أنها ستكون واقعة في طريقهم أثناء الاجتياح لن تؤخرهم لأنها امرأة، فهي بلا قيمة بالنسبة لهم".

"لست أدري يا سيدي"، قال إليسون وقد بدا عليه جلياً الصراع الذي يعتمل بداخله: "أما كانوا ضربوا ضربتهم عندما خطا الرقيب أول خارج الأسلاك ليفتشها للتأكد من خلوها من المتفجرات يا سيدي؟".

"هذا لا يعني أنني سأسمح لها بدخول القاعدة وقد شهدنا جميعنا كم التشويش الذي تسببه للرجال هنا. لا أستطيع أن أخاطر بذلك. لقد فقدنا الكثير من الرجال حتى بت أشعر وكأننا نمشي وقد رسمت على جباهنا دوائر الرماية. لم يعد لدي هامش واسع للمخاطرة بأحد".

أجابني بارتباك: "نعم، بالطبع سيدي".

أضفت: "ولكن سأقول لك شيئاً. سأعرض عليك عدداً من الثغرات في قصتها تكفي لتعزيز قناعتي بأنها تختلق كل شيء".

نهضت عن المكتب متجهاً إلى الحائط خلفي، ونزعت الخريطة المثبتة عليه، ثم عدت لأفرشها على المكتب. وقلت لهما: "لنلق نظرة على هذه"، فأقبلا نحوي وانحنيا على الخريطة.

حددت موقع تارساندان ثم تتبعت بإصبعي خطاً يصل إلى الوادي الذي قالت إنها قدمت منه. وقلت لهما: "تلك هي أحد عشر كيلومتراً من طيران الغراب، وثلاثة وعشرون كيلومترا عند اتخاذ مسار طريق ترابـي هابط يتعرج بين ثلاث سلاسل جبلية شاهقة. ناهيكم عن الجداول التي سيتوجب عليها أن تعبرها هنا عند سفح هذا الجبل، ومن ثم مرة أخرى في هذا المكان".

اعتدلت ونظرت إليهما مبتسماً.

"الآن: إذا كنتما تريدان حقاً أن نصدق قصتها بأنها زحفت الكيلومترات الثلاثة والعشرين وحيدة على متن كومة الأخشاب تلك التي على عجلات، فافعلا. أحضرا لها احتياجاتها الطبية. افعلا كل ما يلزم لجعل رحلتها جديرة بالتعب، لأنه سيكون إنجازاً لا مثيل له. ولكن إذا كنتما تشاركانني شكوكي، عندئذ سأطلب إليكما الانتظار حتى تصل الطائرات هنا غداً. فذاك أقل ما يمكننا فعله احتراماً لذكرى الرجال الذين فقدناهم".

"ولكن ماذا لو كانت قصتها صحيحة يا سيدي؟" سأل إليسون.

"أي جزء منها؟".

"كلها".

"أن شقيقها ورجاله لم يكونوا جزءاً من طالبان؟ ما الفرق الذي يحدثه هذا بالنظر إلى أننا تعرضنا لهجوم من قبلهم. بل والأنكى، عانينا إصابات قاسية بسببهم؟ بالكاد يمكنك لومي على أنني لست مهتماً بقصته. أو بقصتها، لهذا السبب".

"لا، بالطبع لا يا سيدي... لكنها **هي** لم تكن جزءاً من الهجوم، وإن كانت قد نجحت فعلاً بالوصول إلى هنا من تلقاء نفسها للمطالبة بجسد شقيقها، ألا يشكل هذا أرضية تدفعنا لأخذ مطلبها بعين الاعتبار؟".

بدأ إصرار إليسون يضغط على أعصابـي. فرددت بنزق دون أي محاولة لإخفاء انزعاجي: "كيف لك بكل سخف أن تعرف أنها لم تكن جزءاً من هجومهم؟ كان من الممكن أن تكون مراقبة أو مستكشفة، أو مائة شيء آخر إلى جانب ذلك".

ولدهشتي، فإن والن دعمه إذ قال: "مع كل الاحترام الواجب، سيدي، نظراً لحالتها البدنية، فإنه من الصعب تصور أنه بمقدورها أن تكون جزءاً نشطاً من -".

انفجرت قائلاً: "يا رباه! أنت تتحدث عن فتاة تدعي أنها استخدمت هذه العربة المتهالكة للنزول إلى هنا من الجبال!".

"أنا واثق من أنك تعرف ما الذي أرمي إليه بهذا الكلام يا سيدي".

كانت النظرة في عينيه نظرة استرحام واضحة جداً إلى حد دفعني إلى الإشاحة بنظري عنه باشمئزاز. فكرت بمرارة أنه لا بد أنّ حظي العاثر هو من جعل سريتي محشوة برقباء أُول من ذوي القلوب الرهيفة، كأنهم مبتدئين قد خرجوا لتوهم من التدريب.

"أليس هذا ما يجعلنا مختلفين عن العدو؟" قال والن بإصرار.

أجبته: "أنا لست بحاجة إلى محاضرة منك حول ما يجعلنا مختلفين عن العدو".

"إذاً ليس هناك ما يمكننا القيام به لمساعدتها". قال والن فجأة. "أهذا ما ترمي إليه يا سيدي؟ أننا لم نعد نفرق بين المدنيين العزل والمقاتلين المسلحين؟".

للحظة، حدّق كل منا بالآخر. كدت خلالها أن أوجه إليه توبيخاً قاسياً حين لاح أمام عينيَّ طيف خاطف للفتاة وهي راكعة في عربتها، وقد أسدلت برقعها على جوانبها، كفّاها الخَشِنان ينزفان دماً من دفعها الأرض بيديها لتتقدم عربتها. نظرت إلى يديّ ذاتِ الأصابع الثخينة التي تعبّر عن قوة أجيال كثيرة سبقتها من البنائين من عائلة والدي. كانوا رجالاً غير معقدين، مستقلين وعنيفين. أياً كان ما يقع في قبضتهم فهو يغدو ملكاً لهم.

سمعت إليسون، وهو ينقل خطاه في مكانه بعدم ارتياح ويرمق والن بنظره.

رسمت ابتسامة خفيفة على شفتي وأنا أقول: "سأخبركما ما سنفعله. نزولاً عند رغبتكما أنتما الاثنان ووساوسكما السخيفة، سوف أهاتف الكتيبة لمعرفة ما إذا كان يمكن التحقق من قصتها. أنا أتوقع أن نسمع منهم أخباراً على أي حال بخصوص الطائرة بدون طيار التي تقوم بمسح المنحدرات بحثاً عن آثارٍ للعدو. فإذا ما أكدوا لي أنها خالية من كل ما يريب، وإذا كان هناك حتى مثقال ذرة من الحقيقة في حكايتها، فسوف أتيح لكما فرصة تقييم وضعها، ***وأيضاً*** سأحادث العقيد لوتنسلاغر حول إرسالها إلى مستشفى ميداني".

كان من الواضح أن إليسون قد بهت لكلامي، فقد فتح فمه، ولكن بعد ذلك أغلقه مرة أخرى.

تنحنح والن بدوره وقال: "إذا كنت مصمماً إلى هذا الحد ولن تتراجع فسأوقف الموضوع"، قال باستسلام. "ولكن سوف أحتقر نفسي كل دقيقة بسببه".

لا بد من أنه كان يفكر بأن التنازلات تحتاج لأن تكون متبادلة، ويبدو أنه تفاجأ عندما اقترحت خلاف ذلك. فقلت بحسم: "لقد انتظرتم يوماً ونصف، وليس لدينا أي فكرة عن كم من الوقت

قد مضى منذ أن فقدت ساقيها - ربما منذ أشهر، إن لم يكن مدة أكثر. لذا فبضع ساعات أخرى لن تحدث فارقاً".

أومأ بتشنج، واستدار على عقبيه دون أن ينبس بكلمة وخرج من الكوخ.

تابعته بنظري متجهماً ثم توجهت بالحديث إلى إليسون وأنا أضع الخريطة بعيداً.

"الآن حان دورك، أيها الملازم. وافِني بأدق المعلومات الخاصة بهذا العمل اللعين، أعني حملكم الطعام إليها".

بدا متكدراً وهو يقول:

"أعتقد أن كل شيء بدأ عندما خرج الرجال بفكرة مباراة على غرار الفيلم ***نادي القتال*** يا سيدي، ليحددوا من سيكون الشخص الذي سيخرج إليها".

"هل انهالوا ضرباً على بعضهم البعض بحق؟".

"شيء من هذا القبيل، سيدي".

"ومن الذي فاز؟".

"المجند المتخصص سيمونيس، سيدي".

"وأيّهم هزم؟".

"المجند غرول، سيدي".

"إذاً كان سيمونيس من حمل الطعام إليها؟".

"نعم، سيدي، يرافقه المترجم".

"حسناً، هذا خبر مريح. كنت أكره أن أتصور غرول وجهاً لوجه معها. هذا الصبـي يكره السكان المحليين. يجب أن نحرص على إبقاء العين عليه".

"نعم سيدي".

"أي نوع من الطعام حمل إليها سيمونيس؟ ديك حبش ملعون وفطيرة تفاح؟".

"لقد سخّن الرجال بعض الحساء من الأطعمة الجاهزة يا سيدي، وأعدّ لها الجندي راميريز شطيرة فيلي اللحم بالجبن المشهور بمهارته في إعدادها".

"وهل رفضت هي الطعام؟".

"نعم سيدي، لقد فعلت".

هززت رأسي غير مصدّق، ثم بدأتُ بالضحك.

"علي أن أقر لها بهذا الموقف! لو كانت هي لديّ في السرية بدلاً من مجموعة الأطفال رطبي الأنوف أولئك، لكنا استطعنا تجاوز هذه المنحدرات أسرع من لمح البصر. على أي حال، بتنا نعرف الآن ما ستكون عليه ردة فعلها حيال مسألة الفحص الطبي. ستردّنا على أعقابنا خائبين بكل فظاظة".

"أتظن ذلك؟".

"بل أعرفه يقيناً. أنا أكره أن أكون القائد المتسلّط المتعنّت لرأيه أيها الملازم، ولكنك عندما تخوض غمار هذه اللعبة ردحاً من الزمن مثلي، سيصبح تجاوز ما يطفو على السطح والنظر إلى عمق الأمور من البديهيات لديك. فبقاؤك على قيد الحياة - وبقاء رجالك على قيد الحياة - مرهون بذلك".

"ربما كنت على حق يا سيدي"، قال ذلك وتوقف قليلاً قبل أن يستطرد: "هذه الحرب لم تتبلور على النحو الذي كنت أتوقعه يا سيدي، إنما لعل رؤيتي هذه تعود لنقص في خبرتي".

ثبتّ نظري عليه وأنا أقول: "وهي لم تكن على النحو الذي يتوقعه الملازم فروبنيوس أيضاً. وقد كان لديه الكثير من الخبرة".

تضرج وجهه حمرةً، واتسعت عيناه الزرقاوان الشاحبتان وغدتا أكثر شحوباً من ذي قبل.

"إنها مسألة حظ"، قلت بكآبة: "عليك أن تغادر هذه الحياة عندما يحين وقتك".

"لا مجال للحصول على فرص ثانية، سيدي؟".

"قلما يحدث، أيها الملازم. هذا البلد كله يشبه عبوة ناسفة واحدة ضخمة بالنسبة لنا - وبمجرد أن تدوس على واحدة من تلك الأشياء، فإنك محظوظ إذا كانت ساقاك هي كل ما تخسره".

"ماذا عن الفتاة يا سيدي؟ ما نوع الحظ الذي لديها؟".

كنا ننظر كل منا في عين الآخر، لكننا الآن أشحنا النظر بعيداً في آن واحد. بعد فترة من الوقت، قلت: "يجب أن أعترف أنني كنت أتوقع أن أجد ذَكَراً وراء الأكفان التي تلتحفها كالأشباح. في الواقع، كنت مقتنعاً بأنه صبي، شيء ما في صوتها ذكّرني بمخلوق كان بحالة مزرية، قابلته

مرة قرب أحد الأنهار في بغداد. صوته كان عالياً وجريحاً، ومع ذلك كان لديه هذا التماسك الغريب. كان بارداً لا يمكن لشيء أن يثيره".

بدا مثبط العزيمة وهو يقول لي: "لقد أثرت في الرجال، سيدي. أستطيع أن أرى ذلك".

أجبته: "أنا لست مندهشاً. بحق الجحيم، لقد أثّرتَ فيَّ أنا أيضاً. من المستحيل ألا تتأثر، فنحن مجرد بشر. شيء كهذا ينهشك من الداخل. ولكن كما يمكنك أن ترى، يجب عليّ أن أرسم حداً لذاك التأثر في مرحلة ما، ولسبب وجيه. نحن لسنا هنا في مهمة إنسانية تافهة. إنني بحاجة لأن يخلع رجالي عباءة التعاطف ويعاودوا ارتداء بزاتهم العسكرية استعداداً للقتال. وكلما أمكننا إبعاد الفتاة بسرعة من هنا، كلما ضمنا عودتهم بصورة أسرع. من المهم بالنسبة لنا أن نعود إلى نظامنا الطبيعي مرة أخرى. مهم جداً".

"نعم سيدي".

"هذا كل ما يهم، في الواقع. يجب أن نظل على قمة السلسلة الغذائية. إنه قانون الغابة، أيها الملازم".

أومأ دون كلام، وأنا فتحت حاسوبي المحمول، مشيراً إلى نهاية حديثنا.

بعد أن غادر، كان أول شيء فعلته هو تسجيل مكالمة مع الكتيبة كما وعدت والن. شعرت بارتياح غريب لإنجازي هذا الأمر وإبعاده من الطريق.

1800

قررت الخروج للتمشي قرب الأسلاك الشائكة عند غروب الشمس.

لقد حل الغسق حاملاً تموجات واسعة من الألوان التي راحت تنعكس قبالة الجبال. الهواء يبرد بسرعة، والنجوم تظهر واحدة تلو الأخرى. ألقيت نظرة على ساعتي وفكّرت أن جينا تُلبِسُ الطفلين الآن استعداداً للمدرسة، وشعرت بغصة في حلقي. أردت أن أضمهما في ذراعيّ وأحتفظ بهما هناك. حمى الرب أولئك الذين يحبهم. ليحمِهم إلى أن يعود المحاربون الجوالون إلى ديارهم.

سمعت صوت خطى خلفي فالتفتّ. فإذا هو الجندي راميريز، الذي كان واحداً من الطواقم المسؤولة عن مدافع الهاون، وقد ارتدى قميصاً أضحى غامق اللون من العرق. قال: "مساء الخير يا سيدي".

"مساء الخير، أيها الجندي".

"لا تؤاخذني يا سيدي. أنا فقط أضع العلامات لمجال تسديدي". ثم أومأ برأسه إلى الجبال سائلاً: "متى سنذهب لندك حصونهم، يا سيدي؟".

"قريباً، أيها الجندي، قريباً. وإذا حشدوا لنا قبل أن نفعل ذلك، أريدها أن تكون آخر تجربة قتال في حياتهم المزرية".

هز سلاحه الـ M-4 بيده غريزياً وزمجر: "أنا متشوق للذهاب، سيدي، أنا على استعداد لطحنهم".

"إنها مسألة وقت فقط، أيها الجندي"، رددت عليه، ونظرت إليه وهو يقفل عائداً ببطء مرة أخرى إلى موقعه من الهيسكو.

بدأت رياح قوية تهب عبر السهل، فانتفخ على إثرها كل من قميص المترجم الطاجيكي الذي يصل إلى ركبتيه، وسرواله الفضفاض وهو يمر بجانب راميريز. لم يسلّم الاثنان على بعضهما، لكنه حين اقترب مني رفع يده إلى قلبه وقال: "سلام، كوماندان صعب".

أجبته: "سلام، مسعود. تشي هال دارد؟".

ارتسمت علائم الدهشة على وجهه ثم أشرق بابتسامة سعيدة قائلاً: "أنت تتحدث الدارية! لم أكن أتخيل ذلك أبداً! لم أسمعك تتكلمها في وقت سابق".

"أنا أعرف بضع كلمات تكفيني لأسلك أموري وحسب".

قال بسرعة متداركاً: "لقد نسيت آدابـي. لقد سألتني عن أحوالي، أنا بخير، كوماندان صعب، شكراً لك. خب أستوم، تشكّر". ثم قال: "ميباخشيد، كوماندان صعب، اعذرني لوقاحتي، ولكن لقد أخذتني على حين غرة. فلا أحد من الجنود الأميركيين الآخرين يتحدث لغتنا. ولا حتى جندي واحد".

"أحقاً يا له من أمر معيب، أليس كذلك؟".

أعتقد أنه لم يدرك تهكمي، ولكن في هذه الأثناء، صرف انتباهي عنه سرب من الطيور المحلقة فوق رؤوسنا، سألته: "هل تعرف ما تلك الطيور يا مسعود؟ هل هي طيور مغردة؟".

"أنا لا أعرف اسمها، كوماندان صعب، لكنها جيدة من أجل شيكار كاردان".

"إنها صغيرة ولا تصلح للصيد، أليست كذلك؟".

"لا، كوماندان صعب، إنها لذيذة جداً، وبخاصة الصغيرة منها. هذه الطيور تجعل أعشاشها على الأرض على سفوح التلال ونحن نحصد الكتاكيت منها بالمئات ونعد منها وجباتنا الخفيفة".

رفعت بصري إلى الطيور ثانية. كانت ذات لون أصفر وأخضر مبهج أخذ يلتمع على أطراف أجنحتها وهي تعكس نور ساعة المغيب الذي يذوي.

سألته: "لا أعتقد أن لديكم أي قوانين لحماية الطيور وما شابه ذلك، أليس كذلك؟".

قال مع ابتسامة حزينة: "أوه، هناك قوانين، ولكنها لا تعدو كونها حبراً على ورق هذه الأيام. عندما يصبح لدينا حكومة جديدة، ستضعها حيز التنفيذ. ولكن يجب علينا أولاً التخلص من توباك سالاران".

"حسنا، سأفعل ما يقتضي من جانبـي لأساعدك على التخلص من حكام السلاح إذا كان هذا ما سيؤدي إلى حماية الحياة البرية. فأنا أؤمن بأن الحيوانات لديها الحق ذاته في الأرض كما الإنسان".

رمقني بنظرة جانبية وسألني: "هل أنت مولع بالطيور، كوماندان صعب؟".

"نعم، بالتأكيد أنا كذلك. لقد نشأت في المروج، والتي هي مساحات واسعة من المراعي. لدينا العديد من الطيور غير العادية. كدجاج البراري، على سبيل المثال".

ولكي أريه، نفخت صدري وتبخترت رافعاً يدي باستقامة إلى جنبـي مقلّداً رقصة التزاوج للطيور الذكور.

"أنت أفغاني حقيقي!" قال بحماس "جميع الرجال الأفغان يحبون الطيور والزهور. نحن نحب الجمال في جميع أشكاله".

"والنساء الجميلات؟".

"النساء، ليس كثيراً. نحب فقط الأشياء التي تنطوي على جمال حقيقي".

علقت بنبرة جافة: "وكأنني لا أعرف". ثم أشرت إلى الفتاة في الحقل وسألته: "ما الذي تفهمه من وجودها؟".

قال: "لقد خرجت للحديث معها بعد ظهر اليوم، كوماندان صعب. أردت أن أسألها لماذا رفضت طعامنا. إنها عنيدة جداً، وشديدة الاعتداد بنفسها. لم ترغب بالحديث معي. قلت لها أننا يجب أن نكون أصدقاء. فصرفتني بعيداً".

"لم تقل أي شيء على الإطلاق؟".

"فقط أنها غير مهتمة في أي شيء آخر سوى دفن جسد شقيقها".

"هل تعتقد أن هذا صحيح؟ هل هذا هو السبب فعلاً في أنها هنا؟".

صوب نظرة حادة باتجاهي وقال: "إذا كنت تريد أن تعرف الحقيقة، كوماندان صعب، فسوف أخبرك بها. أعتقد أن الفتاة قد وضعت هنا لتحويل انتباهكم عمداً. إنها مُلك لطالبان ذوي القلوب السوداء. بمجرد أن تتخلوا عن حذركم، فسوف يهجمون تحت جنح الظلام".

"فإذاً أنت تعتقد أنها الطعم لفخّهم؟".

أتى جوابه سريعاً ولا لبس فيه، قال "بيسير باليه، نعم بالتأكيد. لا يوجد تفسير آخر لوجودها".

ثم أضاف: "نحن في قلب ولاية قندهار، حيث معقل طالبان. ليس لدي أي شك حول حقيقة هذه الفتاة. كل أولئك الناس لديهم السم ذاته يسري في عروقهم".

خلال الهدوء الذي تلا ذلك، لفتت نظري النسور المحلقة عالياً فوق رأسي، وشعرت بالرياح ترسل شياطين الغبار متسابقة عبر الحقل.

رفعت منظاري إلى عيني ماسحاً المنحدرات.

"حسناً، مسعود، شكرا لك. سوف أراك لاحقا. بعدان مبينم".

"صبا ميبيناميتان، كوماندان صعب! أراك لاحقاً، كما يقول الأميركيون".

وهم بالمغادرة، عندما أوقفته. إذ أنزلت المنظار ووقفت قبالته وأنا أقول بشكل عرضي: "أوه بالمناسبة، قبل أن تذهب، سمعت أنها أصدرت عويلاً شديداً كالبانشي عندما تركتها بعد ظهر اليوم. ما الذي حدث؟".

"أوه، لا شيء مهم. أخبرتها عن شقيقها، كوماندان صعب، وأنها لن تستعيده".

"ولم عساك تفعل شيئاً كهذا؟".

"لأن هذه هي الحقيقة، كوماندان صعب".

شعرت بوجهي يتلون غضباً. لكني سيطرت على نفسي وقلت بحزم: "الزم حدودك. أنت لست هنا لاتخاذ القرارات، مفهوم؟ تلك هي مهمتي، وأنا أتخذها في الوقت الذي أختاره. كان من المفترض أن تعرف بذلك غداً، على أي حال. ولم تكن هناك حاجة للتسبب في معاناتها".

"أنا لا أريد أن أسبب المتاعب يا كوماندان صعب، أنا أحاول فقط أن أفهم. هل ستعاني أكثر إذا اكتشفتِ الحقيقة الآن أم إذا تركناها ترتعُ في جهلها لِما يحدثُ حولها ليوم آخر؟".

هببت في وجهه قائلاً: "هذا هو تماماً نوع الأسئلة الذي يسبب المتاعب. ما الذي يستعصي على الفهم؟ مهمتك هنا هي الترجمة لنا والرد على الاستجوابات الخاصة. وللقيام بأي شيء خارج ذلك، تحتاج إلى أن تطلب الإذن من الملازم إليسون، الرقيب الأول والن، أو أيٍّ من الضباط الآخرين. هل هذا واضح؟".

"نعم، سيدي"، قال بانكسار تام.

"جيد. يمكنك الذهاب الآن".

1900

صادفت كلاً من إليسون ووالن في خيمة الطعام. كنا هناك جميعنا للسبب نفسه: القهوة. كان الرجال جميعهم من حولنا ينساقون فرادى وجماعات إلى جدار الهيسكو. راقبتهم لدقائق ثم سألت والن: "ما الذي يحدث؟ هل لدينا حفل موسيقي ملعون مرة أخرى الليلة؟".

نظرا إليّ بحذر، ثم تبادلا النظرات. قال والن: "أعتقد أن بعض الرجال يأملون بأنها سوف تعزف".

فاعترضت جملته: "وأنا آمل بأنها ستخرج من رأسنا بدءاً من الغد". نظرت إلى ساعتي وقلت: "الليلة الماضية بدأت العزف على الساعة الثامنة والآن لا تزال الساعة السابعة فقط. فما الذي يقض مضجع هؤلاء الرجال؟".

رد إليسون: "ربما ذهبوا في وقت مبكر للحصول على مقاعد جيدة، سيدي".

قلت متذمراً: وهذا يظهر مدى قلة الأعمال التي ينشغل بها كل منهم. مما يذكرني، بأن غداً سيكون يوماً حافلاً. ستأتي الطائرات في الظهيرة حاملة معها بدائل للجنود الذين خسرناهم. وسيغدو عددنا مكتملاً مرة ثانية. كما سنحصل على سيارات ستتم قيادتها من مطار قندهار لتعوض عن سيارات الهامر التي أصيبت في إطلاق النار. سيارات أوشكوش M-ATV جديدة تماماً آتية من أرض المصنع إلينا مباشرة. ونحن بدورنا سنستعملها للعودة إلى الجبال. ومن ثم، في وقت لاحق من الأسبوع، سيكون المقاولون بيننا ليعملوا على إعادة بناء برج الحرس وتوصيل المواسير اللازمة حتى نتمكن أخيراً من الحصول على مرشات تعمل للاستحمام".

سألني والن: "هل تريدني أن أقوم بإعداد فرق العمل يا سيدي؟".

"هذا يعتمد على الوضع مع المقاولين. لكن قبل أن نتمكن من التعامل مع أي من ذلك، علينا أن نفرغ من المهام المعلقة لدينا وعلى رأسها تلك الفتاة. وبمجرد إبعادها من الطريق، أريد عقد

قداس مهيب على شرف الرجال الذين فقدنا. وفي حين أنني أدرك أنه ما من قداس يمكن أن يوفيهم حقهم إلا أننا سنتذكر أخوتنا وبطولاتهم، وأنا لا أريد أي مشوشات سخيفة".

حتى وأنا أتكلم، أحسست بالتوتر يطبق خناقه على حلقي، وأن علي التوقف عن الكلام لبرهة قصيرة. لقد انتابني إحساس وكأن نيك فروبينوس سيقبل علينا من خلف الزاوية.

رأيت الدموع تترقرق في مقلتي والن كذلك. وإليسون راح يسعل ويشيح بنظره بعيداً. من جهتي نسيت أمر الحصول على القهوة، فاستأذنت منهما، وتركت خيمة الطعام فجأة، مصطدماً بأحد الجنود وأنا في طريقي للخروج ولكني لم أتوقف.

دخلت كوخي وأنا أشعر بالامتنان لنعمة الصمت الذي يسود فيه. ترنحت خطواتي وصولاً إلى مكتبي، فأوقعت كومة من المجلدات أرضاً دونما انتباه. شعرت بقلبي يطرق جنبات صدري. فجلست وأرحت جبهتي على المكتب. اجتاحني ما يشبه نوبة من الذعر، ثم على الفور تقريباً، تبعها شعور بتعب مفرط. كان الإعياء شديداً جداً كما لو أنه كان يلتهمني وأنا على قيد الحياة.

وغرقتُ في نوم منهك بعدها بثوان قليلة.

2000

تناهى إلى سمعي صوت موسيقى مألوفة تخترق نومي، يليها، على الفور تقريباً، صوت طلق ناري.

تتوقف الموسيقى.

ضجيج الأصوات يتعالى، فاستيقظت فزعاً.

ركضت إلى الخارج حاملا سلاحي الـ 9 مم فرأيت حشداً متجمعاً خارج أحد الأكواخ. فشققت طريقي بين الرجال ودخلت الكوخ لأجد دوك ووالن والرقيب الأول سكوت هناك قبلي. كان والن يمسك بجندي بين ذراعيه. ودوك يعلق إبرة وريد على كيس محاليل. ثم لاحظت مسدساً على الأرض فالتقطته وإذا به ما يزال ساخناً، وضعته على أقرب سرير.

سحبني سكوت جانباً. وقال مخفضاً صوته: "محاولة انتحار، سيدي".

"ممن؟".

"المجند المتخصص غارسيا يا سيدي".

"ما مدى سوء حالته؟".

"خدشت الرصاصة جمجمته. لكنه سينجو".

نظرت في أنحاء الكوخ المزدحم بالبشر. وقد انبعثت فيه روائح العرق والأجساد. لم أعرف ماذا أقول. وبعد مدة، أومأت إليه وطلبت منه أن يجعل والن يوافيني بتقرير مع دوك عندما يصبح الوضع تحت السيطرة. ألقيت نظرة على غارسيا مرة أخرى وغادرت الكوخ.

خرجت إلى الحشد الصامت المنتظر. ووقفت للحظة لأخاطبم. أحسست بفمي جافاً ولزجاً، وما زلت أعمش العينين من النوم. فاكتفيت بالقول: "سيكون بخير".

سمع صوت قماش إحدى الخيم يصفق في مكان ما في الظلام.

"هل تأذى كثيراً يا سيدي؟" سأل أحدهم.

"ليس بقدر كبير كما رأيت"، رددت عليه بلطف وأنا أشعر بداخلي برغبة شديدة في حمايتهم.

تنهد أحد الجنود الأقرب إلي - كان علي زاده على ما أعتقد - تنهد بارتياح وغطى وجهه بيديه. فربتُّ على كتفه واتخذتُ طريقي عائداً إلى كوخي.

كنت قد شرعت بكتابة تقرير عن الحادث عندما ظهر والن ودوك. نظرتُ إلى وجهيهما المكفهرّين وقد بدا عليهما التماسك. "إنه بخير"، قال دوك متجهماً، "مخدر وتحت المراقبة".

"جيد، أريد تقريرك في أسرع وقت ممكن. سأرسله بعيداً من هنا غداً. إنه يحتاج الى الرعاية النفسية، هذا واضح تماماً". أمسكت عن الكلام منقلاً بصري بينهما ثم سألتهما: "ماذا عنكم أيها الرجال؟ كيف هو صمودكم؟".

أقر دوك: "إنني على درجة من الإعياء تمنعني من التفكير يا سيدي".

أما والن فقال: "أنا بخير".

أجبته: "رجل جيد. ما هذا إلا تعقيد سخيف آخر للأمور سيستهلك المزيد من وقتنا، ولكن علينا التعامل معه. لا يمكننا أن ندع ما حدث يهيمن على يومنا، أو أن يثبط عزائم الرجال. هناك الكثير مما يتوجب علينا الاهتمام به".

رد والن: "سوف أعتني بالأمر. سأقوم بتجميع ضباط الصف وأجعلهم يجلسون مع مجنديهم. إنها المرة الأولى بالنسبة لمعظمهم، لذا فإنهم سيحتاجون بعض الوقت لتجاوز ما حدث". ثم صمت ومرر يده على وجهه بتعب. "أتريد أي شيء آخر؟".

"ما حدث أمر كبير يا رقيب أول، ولا يمكننا أن نسمح بأن تتعثر مسيرتنا بسببه. يجب أن نحرص على بقائها حالة فردية".

هز رأسه: "لن نتعثر بسببها. سأحرص على التأكد من أن كل واحد من جنودي على ما يرام".

"ربما لن يكونوا قادرين على النوم الليلة، وهذا أمر مؤكد".

"عليهم أن يجدوا طريقة للتعامل مع ما حدث"، قال دوك، "ولكن من باب الاحتياط سأتفقد حال الشباب في كوخ غارسيا".

سألت: "هل لدينا أي فكرة عن سبب الواقعة؟".

"زوجته تخلت عنه"، أجاب والن.

"كان ينبغي أن يأتي إلينا".

"لقد فعل. وكنت أعتزم إرساله للحصول على الاستشارة في الكتيبة".

انفجرت لاعناً: "غبي، غبي ملعون! أكان يجب أن يحدث هذا الآن. أكان يجب أن يحدث معنا نحن".

تحولت نظرة والن المتعبة إثر انفعالي إلى نظرة استسلام.

اتكأت مرة أخرى على كرسيي واستجمعت نفسي. فكّرت كيف أنني عندما التحقت بالسلك العسكري لأجل القتال في الحروب لم أكن أتخيل قط أن ذلك سيشمل الاهتمام بمكونات الصحة العقلية للجنود. شعرت أنني مرهق إلى أبعد الحدود وعلى استعداد للإقرار بالهزيمة. وأخيراً، هززت كتفي، وكسرت الصمت الثقيل الذي ران علينا بأن قلت لدوك: "ضع ذلك في تقريرك. أنا لا أريد أن تنتشر عنا السمعة بأننا مشغولون عن العناية برجالنا بتدليل أنفسنا".

بعد مغادرتهم، واصلت الجلوس في مكاني بلا حراك لفترة من الوقت.

يدخل الهواء الليلي من الباب، محملاً برائحة الصحراء، رائحة غبار معدنية حادة إلى درجة القسوة في نفوذيتها.

0045

لقد استلقيت على السرير مجاهداً لأعاود النوم مذ استيقظت. أخذت أتقلب يمنة ويسرة في التجويف الذي صنعه جسدي كالقالب في المرتبة. وسادتي الغارقة بالعرق راحت تصدر صوتاً

مزعجاً كلما حركت رأسي عليها. وأخيراً، حسم الأمر طنين ذبابة كانت تطير حول الكوخ فوضع حداً لأي مزيد من التفكير في الراحة. استسلمت ونهضت متعباً من السرير. أدرت النور، فكان أول ما وقع نظري عليه هو كتاب سوفوكليس اللعين الذي أعارني إياه فروبنيوس. تناولته وقلبت في صفحاته، وأنا أسمع صوته يخترق عقلي: "عليك أن تقرأ هذا. إنه يتضمن تحليلاً مقنعاً أكثر من أي شيء آخر للوضع الذي نحن فيه اليوم".

"وأين نحن، وفقاً لك؟".

"نحن في كاليوج أيها القائد. إنه عصر الظالم كريون. غير أنه قد انتشر في كل مكان، فبات هو الحكومة والشركات وكل شيء ذو تأثير. وهو مجهول تماماً. إنه آلة، نظام، لديه منطقه الخاص، وبمجرد أن تصبح جزءاً من ذلك، فإنه لا يهم حقاً إن كنت في رتبة جندي مشاة أو الفريق الأول: فأنت عالق في سير ناقل يحمل الموت والدمار. وهذا هو أكثر ما يحزن في الأمر، ألا وهو أننا جزء من كريون. نحن جميعاً مهددون ولا شيء باستطاعتنا القيام به حيال ذلك. الأمر يشبه فقدانك لعذريتك، إذ لا يمكنك استعادتها بعدها".

"إن هذا الكلام يعبر عن جنون ارتياب لا يصدق أكثر من أي شيء آخر قد سمعت به على الإطلاق، أيها الملازم".

"إن لم أكن مصاباً بجنون الارتياب في ظل هذه الظروف فهذا يعني أنني ميت أخلاقياً أيها القائد. أنا لا أمازحك".

وضعت الكتاب من يدي بصبر نافذ وبدأت أمشي ذهاباً وإياباً. في أحد زاويا الكوخ، شب شورتي على قدميه وقد استيقظ بسبب أرقي. فرحنا نسير معاً جنباً إلى جنب. ثم دهنت بعض النوتيلا على بعض قطع البسكويت لآكلها. أعطيته أيضاً قطعة بسكويت، ولكن من دون نوتيلا متجاهلاً احتجاجاته: هذا الكلب يحب الطعام الحلو. لقد قررت اصطحابه معي عندما أعود إلى الوطن. فالقاعدة العسكرية ليست مكاناً لكلب. فإلى جانب كون جينا تملك ميلاً للحيوانات، فقد حان الوقت للتوأم للحصول على كلبهم الأول. وفكرت بأنني سأبقي الأمر مفاجأة لن أخبرهم حتى يحين الوقت للقائه في المطار. ابتسمت ونفسي تطير شعاعاً لتلك اللحظات، ولكن سرعان ما تحول ذهني مرة أخرى من مباهج المستقبل إلى جحيم الحاضر.

جلست إلى مكتبي المغطى بالأتربة، ثم انحنيت إلى الأمام على ركبتي. الأرض تحتي طين ملتحم الشقوق، تخللته هنا وهناك انخفاضات تشكلت بفعل أعقاب وسطوح أحذية عسكرية لا تعد ولا تحصى قد مرت فوقها. أخذ خفاش ينقر على زجاج نافذتي الصلب؛ وبين الفينة والأخرى، يصلني صدى صياح بومة من الجبال. مسحت العرق عن رقبتي بمنديل وحاولت عبثاً أن أهش الذباب الأسود الضخم الذي عذب شورتي. طوال النهار هناك الذباب، وفي الليل ينضم إليه البعوض. وفي حين قاومت النزعة للهمود التي بدأت تهدد بالسيطرة علي، شعرت بغضب بات مألوفاً حد الملل

حيال فكرة قضاء ليلة أخرى بلا نوم، ستفضي بعدها إلى نهار آخر يحمل مواجهات مع موجات الحرارة التي توشك أن تعمي الأبصار. التقطت الكتاب مرة أخرى، ترددت، ومن ثم ألقيته بعيداً.

عليك أن تقرأها حقاً - يردد فروبنيوس في رأسي قبل أن أقاطعه قائلاً: "اذهب إلى مكان آخر يا نيكو. ليس لدي وقت للدردشة. ربما كان التعليم الذي تلقيته مزرياً، ولكن بالنسبة لي العمل هو كل شيء".

"ولكن ألا ترى، أنه بسبب القمع الذي جبل عليه هذا المكان، فإن السكان المحليين قد خرجوا بالحرب كحل؟ إنها مفترج واسع من الحرارة والغبار والذباب".

"آه حقاً؟ حسناً، قل ذلك لتلك المرأة القابعة في وضح النهار في الخارج تحت الحرارة والغبار. إذ يبدو أن الحال يعجبها".

"المرأة القابعة في الخارج...؟ هل تقصد أنتيغون؟".

"أياً كان، أيها الملازم. أنا لست مهتماً".

قطع سلسلة أفكاري عواء عالي النبرة من شورتي، فابتسمت له مشفقاً وقلت: كلب طيب.

قررت أن أذهب إلى جدران الهيسكو، لأتحقق من استتباب الأمن وأتنفس بعض الهواء النقي، لعل ذلك يساعدني على النوم. انتعلت حذائي، وارتديت سترتي الصوفية وحملت منديلاً كبيراً ثم غادرت الكوخ. أسرع شورتي معي، مهرولاً عند كعبي. وما إن تجاوزنا أطراف الخيمة، حتى لفحنا البرد بقوةٍ جعلت شورتي ينبح مستطلعاً، بينما تقوقعت أنا على نفسي شاداً عليّ سترتي. مررنا في مسيرنا أمام علم السرية يرفرف عالياً على عمود. كنا من قبل قد رفعنا أيضاً راية كتب عليها "المجد القديم"، لكن الأوامر أتت من الكتيبة بإزالتها لأننا "لسنا في هذه البلاد كقوة احتلال". جفلت للذكرى، وفكرت: أجل، صحيح.

محطتي الأولى كانت عند حفرة الهاون، مع برات، باريلا، وراميريز وهم يقومون بالمناوبة.

كان راميريز ينظر عبر منظاره الحراري المتصل ببندقية الـ M-4 خاصته. حوّلَ نظره إليّ وأنا أقرفص بجانبه، وأسأله: "كيف هو وضع الصورة؟".

"كألعاب الإثارة يا سيدي"، أجاب مع ابتسامة.

فقلت له بنبرة جافة: "سعيد لسماع ذلك، مادام شيء ما يحفظك مستيقظاً...".

طلبت منه بندقيته ونظرت عبر منظاره الحراري، ضاغطاً وجهي على الكوب المطاطي الذي يطوق العدسة حيث تعمل آلية العرض والتبريد. ثم كبرت الصورة مركزاً على العربة في

الحقل. كانت العربة تضيء كشكل بيضاوي أبيض اللون وراءه خلفية سوداء. لا توجد حركة: لا بد وأنها نائمة. نظرت إليها لبضع ثوان ومن ثم أعدت البندقية إلى راميريز.

قال برات: "عندما أنظر من خلال المنظار الحراري إلى العربة يا سيدي، أرى عيناً عملاقة، تقع الفتاة في بؤرتها".

"هل هذا صحيح؟".

"كما أقول لك يا سيدي. أستطيع أن أشعر بقلبها ينبض في الظلام فتصل ضرباته مباشرة إلي. إنها تجعلني حزيناً. حزيناً حقاً".

"هكذا إذاً. حسناً...".

نهضت وهممت بالابتعاد عندما شعرت فجأة بفورة غضب فعدت لأقول له: "أنا لا أمانع شعورك بالتعاطف نحوها، ولكن عليك أن تبقيه تحت السيطرة. ابق عينك على الهدف، مفهوم؟ لا مكان في الحرب لجندي عاطفي".

أجابني راميريز جواباً غير متوقع: "هل نشن الحرب على فتاة معاقة، يا سيدي؟ أهذا ما بتنا نفعله الآن؟".

"لا"، أجبته مندهشاً: "لا بالطبع لا! لا بد أنك تعرف ما أعنيه".

قال باريلا: "أعتقد أن اضطرارنا للجلوس هنا والنظر في وجهها كان أمراً ثقيل الوطأة على نفوسنا. إنها ليست مثل أي إرهابي مجرم، مع كل احترامي لرأيك، سيدي. إنها فقط تفعل ما كان كل واحد منا سيفعله لو كان في مكانها. لنقل معظمنا، على الأقل".

أجبته: "ولسوف يكون الوضع أشد لو أنك تخليتَ عن حذرك ثم تعرضنا للهجوم في منتصف الليل. تذكر ما حدث قبل يومين. أنت لا تريد أن ينتهي بك المطاف ضحيةً في مواجهةٍ كان بالإمكان تلافيها مع العدو، أيها الجندي".

"أنا... أنا أعتقد أن لدينا شعوراً بأنها مختلفة وحسب، سيدي".

"كيف تعرف ذلك؟" قلت بحدة.

"لا يوجد شيء ملموس يا سيدي".

"إذاً حيّد ذاك الشعور جانباً".

"نعم، سيدي".

"نحن مُستنزفون إلى حد كبير يا سيدي"، تدخل برات في المحادثة بهدوء، "وهذا على الأغلب يؤثر على أحكامنا. في بعض الأحيان أشعر وكأني لا أستطيع الإحساس بجسدي على الإطلاق".

قلت دون تعاطف: "انهض على قدميك وتمطى عندما يحدث ذلك".

"وهذا الانتظار يفتك بأعصابنا وبكل شيء"، استمر بحديثه كما لو أنني لم أكلمه: "وبخاصة إذا قمت بالعمل من هذا المكان. كل شيء يبدو لك كتهديد عبر المنظار ليلاً. كما لو كنت مصاباً بالرؤية النفقية".

حدجته بنظرات مشتعلة قبل أن أغادر. لم يمض أكثر من ثوانٍ استجمعت شتات نفسي بعدها متسائلاً عن سر انزعاجي الشديد. وفيما كنت منحنياً في ظل الهيسكو لربط شرائط حذائي، سمعت راميريز يقول: "ما الأمر مع الرجل العجوز؟ كان سيأكل وجوهنا في دقائق! ووه... ووه... أتخلى عن مئة ألف دولار كاملة لأعرف ما الذي يضايقه".

رد باريلا: "لو كان لديك مئة ألف لما كنت هنا يا متأنق".

"لا أزال عاجزاً عن تصديق أنها رفضت شطيرة اللحم بالجبن الفيلي التي أعددتها"، قال راميريز فجأة مغيراً الحديث. "أعني، لقد استخدمت الصلصة الحارة وكل ما يلزم".

أجابه باريلا: "هؤلاء الناس متقلبون يا رجل".

قال برات بحزم: "كلا، ليس ذلك. إنهم فقط لا يريدوننا هنا".

أصر راميريز: "لكن ليس هذا ما يقوله المترجم".

"مسعود؟" قال باريلا: "لا ضير منه".

واصل راميريز: "أنا لا أعرف، يا رجل، أنا فقط لا أعرف. لا أريد أن أكون ذا ذهن منغلق أو أي شيء من هذا القبيل، لكنني لا أثق بالأفغانيين. أعني انظر إلى الطريقة السخيفة التي تركتنا فيها قوات الجيش الأفغاني أثناء المعركة. هذا ليس فعلاً صائباً، يا رجل. إذا رأيت أحد هؤلاء المغفلين مرة أخرى، فهو في عداد الأموات".

"إنه لن يبقى أمامك مدة طويلة كفاية لأن تصل إليه"، ملاحظة كانت في محلها، ثم سمعته يكمل: "حتى لو كنت ستصل إليه، فإنه سوف يثير عاصفة من الصياح مناديا رفاقه المعممين لإنقاذه".

"من الصعب أن تصيح عندما تكون فوهة المسدس محشوة في فمك"، قال راميريز بعنف، ثم أضاف: "أضف إلى أن الأفغانيين الذين كانوا معنا هم أوزبكييون، وأنا لا أعرف ما إذا كان

يمكنك من الناحية الفنية أن تدعوهم بالمعممين، أو أن هذا الوصف محفوظ فقط للطالبان، الذين هم في الغالب باشتون".

أقر باريلا: "ربما كنت على حق".

تابع راميريز: "والباشتون لا يهربون من المعركة. هذا هو السبب في أنهم يمتلكون هذه البلد. أعني، مجرد التفكير في هجوم العاصفة الرملية ذاك يجعل رقبتي تتشنج. لقد مارسوا القتال لفترة طويلة، حتى غدوا لا يعرفون لوجودهم ماهية سواه".

قال برات: "وأنا أوافقك الرأي، فكما كنت أقول قبل أن تتم مقاطعتي بفظاظة آنفاً، شعور الباشتون يختلف عن غيرهم. هذه بلدهم، أفهمت. وتلك الفتاة هناك تقوم بإيصال هذه الرسالة لنا جهاراً نهاراً. أعتقد أن هذا ما يثير أعصاب القائد".

قال باريلا بإعجاب: "إنها متمردة حقيقية، يا رجل. أعني، إنها ليست مثل غيرها من الفتيات المائعات. لا بد وأن ركبتيها قد اهترأتا وهي تزحف لأجل الوصول إلى هنا. إنها بكل بساطة لا تستسلم".

عقب برات: "إنها تضفي على المكان رونقاً. قبل مجيئها كان يبدو كمكب للنفايات".

ضحك راميريز قائلاً: "ماذا يمكنني أن أقول يا رفاق. لدي تسعاً وتسعين مشكلة وهذه العاهرة ليست واحدة منها، أتفهمون ما أعنيه؟".

رد عليه برات بسرعة: "إنها ليست عاهرة، أيها المعتوه".

قال راميريز: "أياً كان يا صاح. لقد سئمت هذا المكان للغاية، ولا يمكنني الانتظار حتى أعود إلى الديار".

سأله باريلا: "ما الذي تنوي القيام به عند العودة؟".

"سأفتح متجر طلاء أجسام".

"لعلك تعني هياكل السيارات وما شابه؟".

"كلا، هذا ممل. أعني طلاء الجسم والوشم. على أجسام النساء وما شابه. جاءتني الفكرة عندما رأيت صورةً لديمي مور في كوخ لوسون. لم تكن ترتدي أي ملابس لكنك لن تعرف ذلك من الطريقة التي وشموها بها. لذلك فكرت في نفسي: هذا ما أريد القيام به. وسأتعلم الكانجي اليابانية للقيام بالوشم بشكل صحيح. لقد انتهيت من البنادق والعنف، يا رجل: أنا سألتفت للفن".

"إذاَ أنت لن تمتطي صهوة المهر الأبيض مرة أخرى عندما تعود إلى باريو يا رام؟" سأله باريلا.

"كلا، لقد انتهيت من ذلك كله".

"سيفتقدونك يا رجل في معرض الرماية".

"كما أخبرتك، سأبتعد عن تلك الأمور، فهي لم تعد تناسبني بعد الآن".

"ماذا عنك؟" توجه برات بالسؤال إلى باريلا.

"أنا سأعمل على الانضمام إلى L.A.P.D.، يا رجل، أنا بحاجة إلى جرعات الأدرينالين".

علق برات بكآبة: "ومن يدري إن كنا سنعود أصلاً. لقد تم تمديد عقدنا مراراً وتكراراً".

قال راميريز: "لعل هذا هو ما دفع غارسيا لأن يحاول الانتحار".

"كلا"، ردّ برات. "سمعت أن السبب كان متاعب مع فتاة".

ساد صمت محمل بالمعاني بينهم قطعه باريلا سائلاً: "أهي حبيبته؟".

"بل زوجته".

"السافلة!".

"ماذا عن القائد؟" سأل راميريز. "ماذا تعتقدون يا رفاق أنه سيعمل عندما تنتهي خدمته؟".

قال باريلا: "حسب الطريقة التي كان يتصرف بها في الآونة الأخيرة، بأن يتسبب في مقتل الناس وخلافه، فإنهم على الأغلب سيركلونه إلى أعلى السلم فيجعلونه رتبة الفريق أول".

"أنا أفتقد الملازم فروبنيوس، يا رجل"، قال راميريز. "كان الشخص الأروع بينهم، أفضل ضابط خدمت تحت إمرته على الإطلاق".

رد برات: "لا يزال لدينا إليسون، مع ذلك".

قال راميريز: "إليسون بغيض، ومتشنج دائماً".

أجابه: "هذا لأنه جديد هنا، كلهم كذلك في الأشهر الأولى قبل أن يستقر بهم المقام".

"ومع ذلك فإنه حاد المزاج، كما لو أنه يرتدي حذاءً صغير الحجم يزعجه على الدوام".

"يجب أن تتحلّى بالصبر"، قال باريلا. "هذا أول ما تتعلمه في منطقة باريو. وهذا ما كان عليه قائدنا سابقاً، ولكنه يتقدم في العمر الآن. لقد بلغ ماذا.. الثلاثين أو شيئاً من هذا القبيل؟ أعني، إنه عجوز جداً! إنك تبدأ بفقدان كل براعتك ومواهبك في سن كهذه".

كشّرت وأنا أقف في الظلال أستمع إليهم. وفكرت: شكراً جزيلاً! أنا في السابعة والعشرين، أنتم يا أصحاب الرؤوس الخاوية!

كانوا لا يزالون يتحدثون عني بأصوات خافتة عندما قررت أني سمعت بما فيه الكفاية ومضيت قدماً. محطتي التالية كانت موقع إطلاق النار المواجه لمنطقة الهبوط، على الجانب الآخر من القاعدة. إيفرهيرت، سكانلون، وبيترافيسا من الفرقة 2 كانوا يتولون المراقبة. كنت ما أزال منزعجاً من لقائي الأخير، فألقيت تحية مقتضبة عليهم: "كيف يسير العمل يا إيفرهيرت؟ ورجاء لا تقتبس الرد من الكتاب المقدس".

"لا يا سيدي"، قال على عجل، وهو يهب واقفاً على قدميه. "لن أفعل ذلك يا سيدي. أنا بخير، سيدي. لقد كانت ليلة هادئة".

"الهدوء لا يعني دائما أن كل شيء على ما يرام".

بيترافيسا كان رافع البصر إلى السماء. ثم نظر إلي مبتسماً وقال: "السماء تذكرني بالوطن يا سيدي".

"نحن لم ندربك لتسرح في السماء، أيها الجندي".

انتبه وقال: "لا يا سيدي. ولن أنظر مرة أخرى، سيدي".

خففت من حدتي معه ونظرت لحظات إلى السماء، ثم قلت له: "موطنك هو هاواي، أليس كذلك؟ أهي النجوم نفسها؟".

"لا يا سيدي، في الواقع هي ليست كذلك. لكنني كنت أنظر إلى درب التبانة. ذكرني بالصابون ورغوته التي تلتف حول طلاء سيارة قاتمة سوداء في المغسل. لقد كنت أعمل مشرفاً في أحدها".

قلت: "هممم. أفهم ما تعنيه. لم يكن ليخطر الأمر في بالي. أنت من عائلة عسكرية، أليس كذلك؟".

"نعم، سيدي. والدي قاتل في فيتنام، وكان جدي في إنشون".

"لا بد وأنهم فخورون بك، أليس كذلك؟".

"لا يا سيدي، ليسوا كذلك في واقع الأمر".

"أوه؟ لمَ لا؟".

"عانى والدي من اضطراب ما بعد الصدمة لوقت طويل، سيدي. لم يكن يريد مني الانضمام إلى الجيش. كان يقول: لا تفعل ذلك يا تيم، إن كنت تعرف مصلحتك. أما أنا فاتخذت موقفاً سلبياً من كلامه، ثم انضممت".

"نعم... تلك هي المشكلة". ترددت للحظة شاعراً بالارتباك، قبل أن أتحول إلى سكانلون: "وماذا عنك؟ كيف حال عزيمتك؟".

"أنا متضايق جداً من نفسي يا سيدي. لقد فقدت خاتم زواجي هذا المساء. كنت سأستخدمه عندما أعود إلى المنزل".

"خاتم ذهبـي؟".

"بل مقلد يا سيدي. من متجر كراكر جاك. ومع هذا فإن له قيمة عاطفية كبيرة لدى ديدي، نظراً لأنها أحضرته لي، منذ أن كانت في التاسعة. لقد كنا مخطوبين لفترة من الوقت قبل زواجنا".

"ربما يمكننا مساعدتك مع مجموعة بحث غداً. أخبر الملازم إليسون أنني اقترحت ذلك، هلا فعلت؟".

"سأفعل، سيدي. شكراً لك سيدي".

ما إن سرت مبتعداً، حتى شعرت بأنني خائر القوى أخيراً، مما أشعرني بالراحة فعدت إلى كوخي على عجل. وشعرت بدوار النعاس يثقل رأسي وأنا أخلع حذائي فلم أكلف نفسي عناء أي شيء آخر سوى الانزلاق تحت البطانية. ورحت في نوم عميق قبل أن يلامس رأسي الوسادة.

0425

استيقظت على مكالمة من الكتيبة. لوتنسلاجر على الطرف الآخر من الخط. يبدو صاحياً ونشطاً إلى حدٍ بعيد في وقتٍ مبكرٍ كهذا من الصباح. كنت أعلم زهوه بنفسه لقدرته على الاكتفاء بساعة نوم واحدة ومواصلة العمل بعدها. بعينين لا تريان بوضوح أمامهما وأنا لا أزال نصف نائم، حاولت أن أركز على كلماته ضمن ضوضاء الاتصال.

عندما وضعت السماعة بعد حوالى عشرين دقيقة، جلست ساكناً لبضع لحظات، ومن ثم تناولت حذائي. وأنا ألبسه، تواثب شورتي أمامي مطالباً بتمسيده الصباحي. فمشطت فروه بالمشط

شاعراً بالاستراخاء يسري منه إلي. في الوقت الذي انتهيت به من تمشيطه، أضحى ذهني صافياً تماماً. وغادرنا الكوخ معاً، وعلى الفور لفّنا ضباب رمادي سميك.

تلمست طريقي من خلال الأشياء حولي والتي غدت قطنية ورطبة الملمس، وسرعان ما غرقت بالندى. وصلت إلى جدار الهيسكو واعتلوته لأنظر ما وراء الأسلاك.

غطت طبقة من الغيوم الجو وانسكبت على شكل أعمدة إلى الأسفل وصلت السماء بالأرض. عندما انجلى الضباب قليلاً، لمحت شكلاً يشبه الشبح في ظلام الحقل وشعرت بشيء من الشك. وبينما كنت أهبط من مكاني، فكرت بكلمات والن عن الحرب الفارغة من المنطق في بعض الأحيان، وتساءلت عما إذا كان يمكن أن يكون على حق في هذه الحالة بالذات. ثم نفضتُ الفكرة عن ذهني.

توقفت قليلاً عند خيمة الطعام للحصول على بعض القهوة. حملت برفق كوب الستايروفوم، وشققت طريقي بين أكواخ الجنود وأنا أستمع إلى أصوات الرجال وهم يستيقظون. في مكان ما، يبدأ صوت صبياني صادح بالغناء لـ U2 أغنية "يوم جميل". كان سرب من الطيور الصغيرة يظهر تارة ويغطس أخرى في الضباب مغرداً بأصوات عالية النبرة. ورفرفت راية السرية مع النسيم. إن الحياة تدبّ في القاعدة. سيكون يوماً حافلاً. أستطيع أن أستشعر ذلك منذ الآن.

0545

قبل الساعة الـ 06.00 بقليل، استدعيت الضباط لاجتماع.

وصل والن أولاً، يليه إليسون، ثم برادفورد وتانر، وأخيراً، بتراك كان آخر من دخل. بدأت بإخبارهم عن الضباط الجدد الذين سيصلون اليوم: "سيكون الملازم أول دان لافاييت هو الضابط التنفيذي المعين حديثاً للوحدة، وسيحل الملازم أول ستيوارت سثيرلاند محل الملازم أول فروبنيوس كقائد أول للفرقة العسكرية، مع الرقيب راندي ميجيا بدل الرقيب إسبينوزا، والعريف مارتي هولمستروم لتولّي ورشة السيارات".

توقفت من أجل الأسئلة، ثم تابعت: "ولكن هذا ليس هو السبب الوحيد الذي دعوتكم إلى هنا من أجله في هذا الصباح المشرق والمبكر. في أعقاب وعدي للرقيب الأول يوم أمس، أجريت اتصالاً مع الكتيبة لطلب المزيد من المعلومات عن المتمردين القتلى، وقد أجابني المقدم لوتنسلاجر هذا الصباح. لقد عرفنا أمرين. أولاً، لقد قالت الفتاة الحقيقة بخصوص شقيقها وهي أنه لم يكن متحالفاً مع طالبان. إذ تبين أنهم يتحدرون من واحدة من قبائل الباشتون الجبلية القليلة التي تكره المعممين والتي استطاع أفرادها صد الطالبان بعيداً عنهم في أيام مجدهم. وهكذا فإن ذلك الجزء من قصتها صحيح. ومع ذلك، فإن اتصالاتنا الاستخبارية المحلية لم تثمر لمعرفة ما إذا كانت فعلاً قد قامت برحلتها إلى تارساندان بنفسها، كما تدعي، أو أنها حُملت إلى هنا من قبل أطراف أخرى. ما

نعرفه بنتيجة تقييم الطائرة التي مسحت السفوح المجاورة هو أنه لا توجد، وأكرر، لا توجد قوات مرئية معادية للأفغان على المنحدرات التي تواجهنا. وبناءً على تلك الأدلة، يبدو أن الفتاة هي فعلاً لوحدها هنا".

ندت زفرات عن المتحلقين حولي. تبعها سؤال من والن: "إذاً هل نستطيع أن نحضرها لنجري لها فحصاً طبياً، سيدي؟".

"نعم نستطيع ذلك. دع دوك يجهز للأمر".

فجأة مال إليسون إلى الأمام ليقول: "هل هناك أي دلائل تدعم ادعاءاتها حول ضربة الطيارة بدون طيار التي قضت على عائلتها؟".

أجبته: "ليس تماماً. هناك تقرير عن ضربة لطائرة دون طيار في أحد الوديان الجبلية قبل حوالى ستة أشهر، ولكن ليس لدينا أي معلومات أنه ضرب حفل زفاف. وفقاً لما يهمّنا، فإننا قد استهدفنا مجموعة من المتمردين ونجحنا في القضاء عليها".

"من هم المخبرون لدينا في هجوم تلك الطائرة؟" سأل والن.

"السكان المحليون في وادي نهر أرغنداب ذوو الاتصالات القبلية مع حاكم مقاطعة قندهار. إنهم جزء من شبكة المخابرات الموسعة المتفرعة من مطار قندهار".

"لا بد من أنك تعني ثقبنا الأسود الكبير في السماء، سيدي"، علّق تانر بلباقة.

"سأسألك عن رأيك عندما أريده، أيها الرقيب"، قلت باقتضاب.

سأل والن: "ألم يكن هناك تقرير منذ بعض الوقت عن عداء بين المحافظ والقبائل الجبلية؟".

"ربما كان هناك واحد، إنني لا أتذكر، ولا أعتقد أن الأمر مهم بشكل خاص. إذا كان هناك عداء، فإن المصالح هي المحرك للعداء كالمعتاد، لأنهم دائما يتقاتلون فيما بينهم، إنهم جميعاً مجانين".

"ولكنه قد يكون ذا أهمية في هذه الحالة تحديداً يا سيدي".

تنحنحت قبل أن أقول: "ما الأمر يا رقيب أول؟ أأنت مسؤول البحث الجنائي في قندهار؟".

"أنا فقط أسأل، يا سيدي".

"ثم ماذا؟ هل من غاية محددة من أسئلتك؟".

"أنا أحاول أن أعرف فيما إذا كان المحافظ قد غرر بنا لنزيل من طريقه وبكل راحة منافساً محلياً مهماً. أي أن ما سيحدث كان مخططاً له".

أطلق برادفورد صفرة خفيضة من شفتيه، فيما مال إليسون إلى الخلف عاضاً على شفته السفلى.

علق برادفورد: "وبعبارة أخرى، لقد تم التلاعب بنا".

استشطت غضباً وأجبته بحدة: "لا، لم يتم التلاعب بنا. أعمالنا تحددها المعلومات الاستخباراتية التي بين أيدينا، وليس بناء على تكهنات عشوائية لعينة، وهذه الاستخبارات قدّمها المحافظ الذي هو جزء من النظام الحالي. وهو النظام الذي ندعمه، أحب أن ألفت نظرك".

يبدو أن إجابتي لم ترضِ أحداً، إذ لاحظت برادفورد يتجنب النظر في عيني. ثم قال تانر بكآبة شديدة: "رجاءً هلا أخبرني أحدكم من هم الرجال الطيبون هنا؟".

نظرت إليه بعينين ضيقتين للحظة قبل أن أميل فجأة على مكتبي ثم أصب عليهم جام غضبي قائلاً: "ما هذا، حفلة للشفقة؟ ما الذي أصابكم بحق الجحيم يا رفاق؟ هل لي أن أذكركم بأنهم سواء كان من الطالبان أم لا فإن أولئك الملاعين قد هاجمونا، وهذا هو بيت القصيد!".

أصر إليسون قائلاً: "ولكن ألا تعتقد أنهم ربما هاجمونا بالتحديد لأننا قد أبدنا قومه يا سيدي؟".

"أنا لا أعرف، أيها الملازم. وأعتقد أن هذا سؤال لا جدوى منه".

"أنا أسأل فقط لأن هذا ما زعمته الفتاة، سيدي...".

فجأة، سأل الرقيب بتراك: "ما أقرب قاعدة أميركية إلى قبيلتها؟".

رد إليسون قبل أن أستطيع الإجابة: "نحن الأقرب".

بقيت إجابته معلقة في الهواء. خيم بعدها صمت ثقيل، طويل، ومشحون، على الجميع.

ثم قال والن متفكراً، تقريباً كما لو أنه كان يتحدث إلى نفسه: "إذا كان الرجل ليس من طالبان، هل هذا يعني أننا يمكن أن نعيد لها جثته؟".

عقدت ذراعي على صدري: "ماذا تعني؟".

"بما أننا بتنا نعلم الآن أنها هنا بمفردها يا سيدي، فمن المؤكد أنه لا شك في صحة روايتها. أعني، كل ما تريد القيام به هو دفن الجثة اللعينة. ألا يمكننا أن نرسل للكتيبة بعض الصور وننتهي من الأمر؟".

نظرت إليه بسخط وأنا أجيبه: "الكتيبة ليست الجهة الآمرة الناهية في هذا الأمر. إن المسألة مرتبطة بجهات أعلى بكثير في سلسلة القيادة. كما أن المسألة ليست مسألة طالبان أو لا. ما يهم هو أنه متمرد قاد هجوماً على قاعدة للجيش الأميركي. هذا هو السبب في أن النظام يريد عرض الجثة: إنهم يريدون استعراض قوتهم بإرسال رسالة واضحة لكلا الجانبين: ناخبيهم وخصومهم معاً. إنهم يقولون لحركة طالبان: أنت تناصبيننا العداء، وسينتهي بك الأمر مثل هذا الوغد المسكين، ولمؤيديهم يقولون نحن لن نقدّم المزيد من الادعاءات الخاطئة مرتكزة على صور مفبركة من الآن فصاعداً".

احتج إليسون قائلاً: "ولكن الحقائق نفسها في هذه الحالة مفبركة إذ إنه لم يكن منتمياً لطالبان!".

أجبته: "هذا لا يهم. أضف إلى أن التراجع يعني فقدان ماء الوجه بالنسبة للنظام. والتفاصيل ليست ذات أهمية بالنسبة لهم".

"ولكن هل هي غير مهمة بالنسبة لنا؟" يقول إليسون متعجباً: "أعني، أين هي نزاهتنا؟ من هي الجهة الملعونة التي نعمل لأجلها إذاً؟".

هتفت متفاجئاً به: "أيها الملازم!".

واصل كلامه: "مع كل احترامي يا سيدي، هل الجيش الأميركي كيان مستقل أم نحن ببساطة خدم لحكومةٍ يعلم الجميع أنها عرضت مهمتنا للخطر منذ بدايتها؟".

"هذا الرجل هاجمنا!" رددت بهدوء. "أناسه قتلوا أناسنا. أنا بالكاد يمكن أن أهتم بما يفعلونه بجثته اللعينة!".

"فإذاً نحن نتبع قوانين العدو بهذا الخصوص يا سيدي؟".

فتحت فمي ثم أغلقته مرة أخرى. وبعد صمت، كل ما أمكنني قوله هو: "سأتظاهر بأنني لم أسمعك، أيها الملازم".

تنحنح برادفورد ونظر إليّ بقلق: "آسف يا سيدي، ولكن أنا مع الملازم فيما يقول في هذا الخصوص".

قلت ببرود: "اسمحوا لي أن أكرر، إنه ليس مشكلتنا. إنه ميت".

"إذاً نحن سنترك إجراءات العمل القياسية في المعارك الخاصة بالنظام تفوز على إجراءاتنا يا سيدي؟".

"في هذه الحالة الأمر ليس مهماً، حسناً؟".

"لست متأكداً من أنني أفهم لماذا يا سيدي".

بيتراك قال مقاطعاً: "أوافقه الرأي. أنا لا أفهم أيضاً". ثم توجه إلي بالكلام مباشرة: "لماذا نحن هنا يا سيدي؟".

تكلم والن بدلاً عني بصوت ثابت على نحو غريب، فقال: "نحن هنا لأن لدينا مهمة علينا القيام بها".

قال إليسون: "حسناً، ما هي المهمة؟".

أجبته: "دعم الحكومة في كابول".

"لكننا نعلم أنهم محتالون! سرقوا الانتخابات. وإنهم ضالون مثل طالبان!".

"ربما، ولكن إذا عاد الطالبان إلى السلطة فكن على يقين من أنهم سوف يجعلون المجموعة الحالية تبدو وكأنها مدرسة ملعونة من الفلاسفة".

"أهذا هو المعيار الذي نستخدمه للقياس الآن، سيدي؟ طالبان؟".

"نحن لا نصدر تلك الأحكام، أيها الملازم"، قلت ببرود شديد. "هناك من يصدرها بالنيابة عنا، لهذا السبب لدينا دبلوماسيون. مهمتنا هي قتال العدو، تنظيف المكان ومن ثم إخلاؤه. كنت أظن أن ذلك كان واضحاً جداً. على ما يبدو، كنت مخطئاً. نحن لا نعمل بالسياسة، وهناك حدود معينة لا نتورط بعدها في حياة هؤلاء الناس. إن الحدود التي تضبط أفعالنا معرَّفة بوضوح".

دار إليسون بجسمه كله تعبيراً عن عدم الرضا وقال: "مع كل احترامي يا سيدي، فإن حدود أفعالنا تلك تؤدي إلى فقداننا رجالاً صالحين لإنقاذ مؤخرة مجموعة من التافهين في كابول الذين يتصرّفون وكما لو كانوا في وول ستريت".

كنت على وشك الرد بغضب، عندما اقتحم مسعود، المترجم، المكان فنظرت إليه متفاجئاً.

انطلق يقول دونما تفكير: "كوماندان صعب، لقد ذبحتْ نظام حملاً على شرفك، وهي تودُّ منك أن تأخذه. أرجوك اخرج إلى الحقل لتقبله منها".

حاولت ضبط أعصابي، ولكن دونما جدوى، إذ صحت به غاضباً: "اللعنة ما هذا؟ لا يمكنك أن تقتحم المكان هكذا!".

بدا لي أنه قد انكمش فعلياً وجسدياً على نفسه، ولكن قبل أن أستطيع أن أقول له أن يخلي المكان، قال إليسون بهدوء، كما لو لم يقاطعنا أحد: "إن كنا لا نستطيع إعادة الجثة، إذاً ماذا علينا أن نفعل مع الفتاة؟".

صرخت: "ماذا...؟" وكنت لا أزال أحملق في مسعود.

"كنت أتساءل عما إذا كانت لديكم خطة تتعلق بالفتاة يا سيدي".

أشحت بوجهي عن المترجم وأرغمت نفسي على الإجابة عن السؤال بهدوء: "إذا حصلت الكتيبة على إذن من اللواء لنقلها من هنا، فسوف يتمّ تحويلها إلى مصحة في قندهار".

عند هذه النقطة، ندّ عن مسعود تعجّبٌ صامت، ولكن والن بادر فأمسك بذراعه بشدة ورافقه إلى خارج الكوخ. سمعناه وهو يقرّعه رشاً ودراكاً، وقبل مضي فترة طويلة عاد لينضمّ إلينا دون المترجم.

"ماذا جرى له بحق الجحيم؟" سألت بشراسة: "هل فقد عقله تماماً؟ ما الذي يجعله يعتقد أن لديه الحق في الدخول إلى مكتبي دون قيد أو شرط؟ وماذا كانت تلك الحماقة حول الأغنام على أي حال؟".

"أنا أستطيع أن أشرح لك، سيدي"، تطوع بيتراك: "الحقل مغطى بالأغنام. يبدو أنها قد أتت هابطة من الجبال - إننا نراقب كل شي، ولكني لم أعرف أن الفتاة قد قتلت الحمل".

(((("ما المفترض أن أفعله بحمل سخيف؟ وكيف قتلته؟ بأسنانها؟".

"أنا لا أعرف، سيدي".

حملقت في والن بنظرات تنطوي على الاتهام وقلت: "ظننت أنك قد فتشتها بدقة".

قال: "ظننت أني فعلت أيضاً، سيدي".

تدخل إليسون بهدوء: "أنا سعيد لأنها ستحصل على الرعاية الطبية".

"من الأفضل لك أن تسر لذلك. فبعد تقييم وضعها في قندهار، ستحمل إلى باغرام، حيث سيجرون لها فحوصات شاملة قبل إرسالها إلى لاندستوهل".

"إلى ألمانيا!".

"أجل هذا صحيح. سنجعل منها مادة تدرس حول إعادة تأهيل الصدمات النفسية. وسوف تزوَّد بأحدث الأطراف الاصطناعية. وما إن يتم لها ذلك حتى تغدو قادرة على المنافسة في الأولمبياد. ما رأيكم في ذلك؟".

سرت همهمة المفاجأة تلاها استحسان بين الحاضرين. حتى ملامح والن ظهر عليها جلياً الاسترخاء. عن نفسي أردت الاستمتاع باللحظة وإطالتها ما أمكن. سألني والن: "هل سنرسلها على متن الطائرة ذاتها مع شقيقها؟".

"أفترض ذلك، نعم. لماذا؟ ما المهم في هذا؟".

"كنت أفكر في الرائحة، يا سيدي".

"أوه، يا إلهي، إن CH-47 طائرة كبيرة جداً! فضلاً عن أنها لن تعرف مصدرها".

قال تانر ممازحاً: "يمكننا أن نربطه بذيل الطائرة مثلاً. على الأرجح أنه قد غدا منتفخاً جداً بالغازات، وسوف يطفو مثل البالون أساساً".

أتى الجواب سريعاً ولاذعاً من برادفورد إذ قال: "عدا أنه ساعتها من الممكن أن يعلق في شفرات المروحية وكل ما سيبقى لهم منه لأجل برنامجهم التلفزيوني هو بالون من العلكة".

حسناً، هذا يكفي، قلت بفظاظة: "أي أسئلة أخرى؟".

"يبدو أنك قد غطيت جميع الأساسيات، سيدي"، قال بيتراك بإعجاب.

"يمكنك أن تشكر العقيد على ذلك. عن نفسي لم أفعل إلا القليل".

رد بيتراك بإخلاص: "حتى ولو، إنه لم يكن ليعرف شيئاً عنها لو لم تخطره بذلك، سيدي".

"حسناً، أفترض أنك محق". ألقيتُ نظرة حادة على مرؤوسيّ قبل أن أضيف: "ومع ذلك لا يزال هناك شيء واحد لم أجد له جواباً بعد".

"ما هو، سيدي؟".

"من أين سأحصل لكم على الأرواب البيضاء وعلى أجنحة ملائكة لترتدوها قبل أن أرسلكم إلى الجبال لتشرحوا لقبيلة الرجل الميت كم أنتم متأسفون لما جرى له".

سرت بعض الضحكات المهمومة بينهم اعترضتها باقتراحي الذهاب للحصول على بعض القهوة وإلقاء نظرة على الحقل: "وبعد ذلك يمكننا تناول الفطور قبل التوجه إلى جلبها".

توقف والن فجأة في منتصف خطوته وحدّق في وجهي متسائلاً: "نحن لن نذهب جميعا، أليس كذلك؟".

"أوه، أنا لا أرى مانعاً من ذلك. بعد كل الضجة التي أحدثتموها، ألا تريدون يا رفاق تكريمها بموكب يرافقها؟".

ردّ قائلاً: "لا يزال الضباب كثيفاً في الخارج، سيدي. قد نضطر إلى الانتظار قليلاً حتى يزول".

"ستكون الطائرات هنا على الساعة 11.00، لذا يجدر بنا أن نكون قد جهزناها للذهاب قبل ذلك. هل نجعل موعدنا في 09.00؟ وإذا اضطررنا للخروج تحت غطاء الضباب حينها، فلا بأس".

"أنت في مزاج جيد أيها القائد"، قال والن مع ابتسامة عريضة.

"ألا يجب أن أكون كذلك يا رقيب أول؟ أنا مسرور بالقرار الذي توصلنا إليه بشأنها. شعور جيد أن ينتمي المرء إلى منظمة تهتم بالنقاط الدقيقة".

ألتفتُ إلى إليسون موجهاً إليه كلامي: "أترى، أيها الملازم؟ لا تقفز أبداً إلى الاستنتاجات حين يكون الجيش الأميركي معنياً. نحن نقدّس معاني الشرف، ونحترم الشجاعة، ونفعل الأمور بشكل صحيح".

اصطبغ وجهه بلون قرمزي وقال بتردد: "بالنيابة عن الرجال، سيدي، هل يمكن أن أقدم لكم شكرنا؟".

أجبته بجفاف: "لا تتعب نفسك يا ملازم، سوف تتعلم. والأكثر من ذلك، أننا في سبيلنا للحصول على الكثير من المشاعر الطيبة جراء هذه القصة. إنها تماماً من الأشياء التي يحبون الكتابة عنها في الإعلام - الأبطال ذوو القلوب، أو شيء من هذا القبيل. ربما سأقترح ذلك على العقيد في المرة القادمة التي نتحدث فيها. من يدري، قد نصل حتى إلى الصفحة الرئيسية من *Stars and Stripes*، أو إذا حالفنا الحظ حقاً قد يضعون قصتنا على غلاف مجلة *Time* مثل تلك الفتاة التي قطع أنفها.

رفع إليسون حاجبيه، ولكنه لم يقل أي شيء.

ظل والن آخراً، وقبل أن يغادر نظر في عينيَّ وقال بصوت خفيضٍ: "هل أنت متأكد تماماً أنه ينبغي علينا جميعاً الخروج لإحضارها، يا سيدي؟".

شعرت بالتوتر، أجبته: "نعم أنا متأكد".

"هل لي أن أختلف مع هذا القرار، سيدي؟".

"يا إلهي، ليس مرة أخرى يا رقيب أول!" همستُ بحدّة: "من الواضح أننا بحاجة إلى إجراء دردشة سوية. لنلتق في أقرب وقت بعد أن نكون قد انتهينا من التعامل مع مسألتها، هل تفهم؟".

"نعم، سيدي"، قال بهدوء، قبل أن يجنح للصمت.

شروق الشمس.

الضباب يميل إلى اللون الذهبـي ثم اللون الأحمر.

جعلت أدفّئ يديّ بفنجاني الثاني من القهوة لهذا اليوم وأنا أسير مع الآخرين باتجاه جدار الهيسكو. كانت القمم الجبلية قرمزية اللون، تلقي بظلال طويلة رمادية على المنحدرات. وكحالي كل يوم تقريباً أشعر بالعجب من شدة مهابة هذا المشهد، وأشعر بالضآلة أمامه.

مشينا مباشرة إلى الأسلاك. ما رأيته قبالتي كان مشهداً سريالياً حقاً. في منتصف الحقل المسودّ بفعل الظلال التي تلقيها الجبال، انتشر قطيع من الأغنام راح يتماوج بعشوائية، في حين جلست الفتاة وسطها بلا حراك، سكونها جعلها أشبه بالتمثال. لم أقدر على رؤية اتجاه نظرتها، فحولت نظري بعيداً. كل سمة من سمات المشهد تبرز باللونين الأسود والأبيض. كان الجو مشحوناً وكأن الكهرباء تسري مع الهواء. كنت على وشك استراق النظر إليها مرة ثانية عندما سقط شعاع من الشمس على الأرض المرقطة بالندى راسماً شكلاً أشبه بالسيف المنحني.

تنحنحتُ ونظرت جانباً إلى إليسون، الذي غدا شاحب اللون للغاية.

"أنا أتحرق شوقاً لإقامة نقطة مراقبة على نتوء ذلك الجبل. إنها أكبر نقطة ضعف لعينة لنا في هذا المكان. سوف تكون هذه مهمتنا الأولى بمجرد إبعاد الفتاة عن هنا. عندها يمكننا التوقف عن القلق حول الرماة، وتلك المنحدرات الحادة المسننة ستبدو أقل إثارة للخوف. سنعالج هذه المشكلة من جذورها".

قال: "أنا أفهمك، سيدي".

استدرت نحو الحقل مرة أخرى ودرسته عن كثب، ثم قلت: "إنه لأمر مضحك نوعاً ما، وجود كل هذه الأغنام ولا أحد يهتم بها، ألا تظن ذلك؟".

تصلب وهو يتبع سير نظري، ولكنه لا يحري جواباً. من الواضح أن الأمر لم يطرأ على باله قبلاً، مما جعل عينيه لا تفارقان الحقل.

استعلمت منه: "هل اكتشفنا كيف قتلت الحمل؟".

"استخدمت سكيناً يا سيدي. بعض الرجال رأوها تفعل".

ألقيت نظرة ذات معنى على والن، لكنه كان يحدق باتجاه آخر. سادت لحظة صمت حرج، وقف خلالها إليسون منتصباً بشدة إلى جانبـي، وعليه علائم الاكتئاب.

"وما هي تلك الأشياء التي تغطي بعض الأغنام؟" سألته بانزعاج.

رفع جهاز المراقبة إلى عينيه: "إنها تبدو كبطانية مطوية في المنتصف، سيدي. على الأرجح لحمايتها من البرد".

"على الأرجح؟ أنت تخمن، أيها الملازم. لا يعجبني عندما لا يستطيع ضبّاطي إعطائي إجابات عن أسئلة بسيطة. هل تفهمني؟".

"نعم سيدي".

نظرت من خلال جهاز المراقبة الخاص بـي وأنا أسأله: "هل تعرف ما إذا كنا قد فحصناها؟".

"لا أعتقد أننا فعلنا ذلك، سيدي".

"يا إلهي! الأغنام اللعينة في منطقة القتل. أكره الأمور المجهولة".

"يمكنني إرسال فريق الآن".

"لا، دع الوضع على حاله. لا فائدة من ترويعها. يمكنك التعامل مع الأمر بعد أن نحضرها".

"سنقوم بمطاردة القطيع الملعون كله إلى المنحدرات، سيدي"، قال بتراك بذكاء.

"مما سيحطم قلب المترجم"، قال تانر ضاحكاً ولكنه أمسك لسانه بسرعة أمام نظراتي الباردة.

قلت للجميع: "حسناً إذاً، لقد رأيت ما يكفي. سنتجمّع هنا عند الساعة 09.00، سواء وجد ضباب أم تلاشى. رقيب أول والن، أريدك أن تجمع فريقاً من الفرقتين الأولى والثانية ليكون مرافقاً لها. سمّه حرس الشرف الخاص بها، إذا أردت. يمكنك طلب المتطوعين".

يتردد والن: "إذاً أنت تعني ما تقول حقاً، سيدي؟".

"ويمكنك أن تراهن على ذلك".

انتقلت إلى برادفورد: "الأفضل أن تحضر مسعود. نحن بحاجة إليه للترجمة".

"نعم سيدي".

"عظيم. دعونا نذهب ونحصل على طعام الإفطار. يمكنني أن أشم رائحة ذلك البيض المخفوق، والبطاطا بالبصل حتى هنا".

0845

ربطت طوق شورتي إلى سريري. إنه غير معتاد على الأسر الأمر الذي جعله لا يهدأ. طمأنته مربتاً عليه وقلت له أنني سأحرره بمجرد أن أعود.

"كلب جيد، أنت ولد جيد".

هزّ ذيله بانزعاج وتذمّر. وحين بدأت بالابتعاد، حاول جاهداً أن يحرر نفسه. ثم بدأ بالنباح بمجرد أن غادرت الكوخ.

0905

شاهدت الرجال يصطفون عند جدار الهيسكو. كان هناك دوغال، ليي، جاكسون، راميريز، وبرات من الفرقة الأولى، وإيفرهارت، بيترافيسا، سكانلون، لوسون، وونك غاينز من الفرقة الثانية. مع منظر أنوفهم المغطاة بالزنك ووجوههم المسْمَرّة من الشمس، بدوا مخيفين حتى بالنسبة لي. هززت رأسي معلقاً: "ألا تنامون على الإطلاق يا رجال؟".

مشيت إلى سكانلون وقلت له: "لا تنس أن تتحدث إلى الملازم إليسون عن خاتم الزفاف الخاص بك".

"لن أنسى ذلك، سيدي. شكراً لك سيدي".

انتقلت إلى برات: "أمسرور أنت للقيام بهذا، أيها الجندي؟".

قال: "نعم، سيدي". ثم تجعد جبينه قبل أن يكمل: "ولكن شيئاً يشعرني بأن خطباً ما سيقع. وأنا لا أستطيع أن أكتشف ما هو". انحنى إلى أسفل ملامساً أرض الصحراء، وقال: "أرض كجلد الثعبان، إنها تمنحني طاقة سلبية".

قلت بسخرية مبطنة: "لعلك قلق لأنها مسلحة، أيها الجندي. لا تنس أن لديها سكيناً".

ضحك واحد من الرجال، ولكنه أغلق فمه بمجرد أن سددت نظراتي إليه.

أتى مسعود يخب لاهثاً وهو ينظر إلي على نحو قلق: "كنت مخطئاً بصددها، كوماندان صعب"، قال بصوت مضطرب: "إنها بارفانه. فراشة".

"عليك أن تتعلم عدم التحدث خارج دورك"، رددت عليه بغضب.

تلاه دوك إذ وصل حاملاً حقيبة الدواء وبطانيتين. فتح الحقيبة وأراني الضمادات الإضافية والشاش.

"أنا جاهز للذهاب، سيدي"، قال وهو يغلق الحقيبة بحركة خاطفة.

انتقلت إلى سكوت وآشوورث. قلت لسكوت: "ما أن نأتي بها، أريدك أن تحصل على قياساتها وصفاتها الحيوية، حسناً؟ لا حجج ولا أعذار، فقط احصل عليها، ولا يهمني كيف تفعل ذلك".

راقبت الجنود وهم يتسلقون جدران الهيسكو وينصبون رشاشتهم لتغطية الحقل والمنحدرات. فالتفت إلى آشورث سائلاً إياه: "ألديك رجال على مواقع المراقبة؟".

"نعم سيدي".

"وغطيتَ جميع الطرق؟".

"نعم سيدي".

أتاني صوت إليسون الهادئ متسائلاً: "لماذا كل هذه الجلبة يا سيدي؟ اعتقدت أن الطائرة بدون طيار أكدت لنا سلامة الوضع".

"إنه التخطيط للطوارئ، أيها الملازم. عندما تمضي في هذا المجال فترة طويلة بما فيه الكفاية، يصبح هذا الأمر جزءاً من طبيعتك".

اصطف الرجال وراءنا على طول جدران الهيسكو في وضعية المراقبة متفحصين الحقل والمنحدرات الظليلة. فيما قام فريق أسلحة من الفرقة 2 بتحريك رشاشٍ من نوع M-240B من مركزه القتالي ووضعه على حامل ذي ثلاث قوائم. وأحد الرجال يلقي أحزمة الذخيرة على كتفيه.

توجهت إلى سيمونيس، الذي كان يربض في موقعه على قمة جدار الهيسكو. والجبال الشاهقة تطل علينا قلت له ونظري مثبت على المنحدرات: "إذا رأيت أي شيء يحدث خارج المألوف، أطلق النار. لا تتردد. هذا أمر ثابت".

رد بخشونة: "تلقيت الأمر سيدي. أمرك مطاع".

راقبته وهو يخرج بندقية القناصة خاصته من حقيبتها ويدير عينيه في الحقل وعلى واجهات الجبال. إلى جواره كان هناك مناظير وبندقية أخرى، وبندقية M-24. تمدد على سرير من أكياس الرمل، إحدى ساقيه ملتوية، وعيناه معلقتان على منظار البندقية. إنه سلاحي الأكثر فتكاً على الإطلاق، مع قدرة على القتل تقارب المائة في المئة، وهذا يطمئنني.

هبطت من الهيسكو وسرت عائداً إلى حيث ينتظرني الجميع. وإذا بغراب يطير منخفضاً قريباً من الرؤوس ويدور بضع مرات فوق الحقل قبل أن يحلق شرقاً باتجاه الجبال.

"هذا فأل سيئ" همهم أحدهم.

تحول والن إلى المتكلم وحدجه بنظرات ساخطة.

توجهت بدوري إلى الرجال: "هل من أسئلة؟".

انتظرت لحظة، ثم قلت مع ابتسامة متحفظة: "الأمور بخير. إذاً، لنذهب".

اندفعنا سوية خارجين من الأسلاك. استهل والن الموكب متقدماً، في حين تريثت قليلاً لابتلع الشعور الذي تضيق له أنفاسي في كل مرة أخطو فيها خارج الأسلاك.

التفت إلى الرجال وقلت بصوت هادئ: "ضعوا نصْب أعينكم يا رجال، أن هذه ستكون عملية سلسة. نحن لن نستخدم أي قوة معها. سنحترم كرامتها ونعاملها بالشرف الذي تستحقه".

كانت عيناها تحدقان بحذر ونحن نتقدم، وقد بدونا ضخاماً بالدروع التي على أجسامنا.

أستطيع أن أرى أساورها تلتمع في الشمس.

ركبنا تنقر مثل الصنجات ونحن نسير في انسجام تام.

العقارب تنطلق مبتعدة بسرعة عن طريقنا.

كدنا نصل إلى هناك، عندما تستدير فجأة وتصل إلى الحمل الميت. سكينها تومض في الشمس، وفي اللحظة ذاتها ألمح حركة على المنحدرات. صرخت: "انبطحوا!"، وهبط كل من حولي ضارباً الأرض بثقله. ارتفعت على إثرها سحابة من الغبار من الأرض صرفت انتباهي للحظات عن صوت إطلاق النار الذي تردد في المحيط. سمعنا الرصاصة وهي تئز مارة بقربنا، ثم شاهدنا الفتاة تقع إلى الوراء مع انفجار أحمر ساطع في المكان الذي كان فيه قلبها.

وفي الصمت المطبق، انبعث صوت من خلفنا حمله إلينا الهواء. إنه سيمونيس، يقول: "هدف".

رحت ألهث، مشوشاً، شاعراً أنني بلا حول ولا قوة.

مسعود هو الوحيد الذي انتصب واقفاً. نظرت إلى ما وراءه غير مصدق، إذ رأيت شورتي يندفع بين صخور المنحدر. كيف تحرر ذلك الكلب؟

سار مسعود مترنحاً نحو العربة كما لو كان أحداً يسحبه بالسلاسل. عندما وصل إلى الفتاة، سقط على ركبتيه. عيناها المفتوحتان على مصراعيهما كانتا تحدقان في وجهه. إنها تحاول الكلام، ولكن وحده الدم ما يتدفق من فمها. إنها تشير إلى الحمل، ويحرك هو بلطف ذراعها الممدودة، بعيداً عن الطريق. انزلقت السكين من بين أصابعها التي فقدت إحساسها. حرر مسعود الحيوان من البطانية الحمراء اللامعة، ورماها بعيداً مع اللجام المصنوع من السلك المجدول الذي قطعته. فظهر صوف الحمل كما لو كان منقوعاً بالدم عدا الجزء الذي كانت تغطيه البطانية. التقطه، وانتصب على قدميه وقفل عائداً نحوي وهو يترنح.

عندما وصل إلي، انحنى ووضعه على الأرض. قال وعيونه تفيضان بالدمع، وبصوت صبـي صغير: "لماذا قتلتها، كوماندان صعب؟ كان الضأن هديتها لك. كنا سنقيم وليمة عليه هذه الليلة. هذا جزء من ثقافتنا".

أشاهد يديّ تمتدان ببطء إلى الأمام، وتغرقان في عمق صوف الحمل. إنه ناعم الملمس إلى حد بعيد.

ἀλλ ᾽ Ὃν πόλις στήσειε τοῦδε χρὴ κλύειν

.καὶ σμικρὰ καὶ δίκαια καὶ τἀναντία

καὶ τοῦτον ἂν τὸν ἄνδρα θαρσοίην ἐγὼ

καλῶς μὲν ἄρχειν, εὐ δ _ ἂν ἄρχεσθαι
θέλειν, δορός τ _ ἂν ἐν χειμῶνι προστεταγμένον

.μένειν δίκαιον κἀγαθὸν παραστάτην

.ἀναρχίας δὲ μεῖζον οὐκ ἔστιν κακόν

αἅτη πόλεις ὄλλυσιν, ἥδ ἀναστάτους

οἴκους τίθησιν, ἥδε συμμάχου δορὸς

τροπας καταρρήγνυσι: τῶν δ _ ὀρθουμένων

.σώζει τὰ πολλὰ σώμαθ _ ἡ πειθαρχία

οὕτως ἀμυντέ _ ἐστὶ τοῖς κοσμουμένοις,
.κοὔτοι γυναικὸς οὐδαμῶς ἡσσητέα

κρεῖσσν γάρ, εἴπερ δεῖ, πρὸς ἀνδρὸς ἐκπεσῖν,
.κοὐκ ἂν γυναικῶν ἥσσονες καλοίμεθ _ ἄν

Sophocles; Antigone

أياً كان من تعينه الدولة

يجب أن يطاع في كل شيء،

في كل صغيرة وكبيرة، عدلاً أم غير عدل على حد سواء.

أحذركم أن شخصاً كهذا في مثل هذه الحالة

سيتألق كالملك أو كذات؛ مثل هذا الرجل

في عاصفة المعركة سيقف بثبات محافظاً على مبادئه،

رفيق حقيقي ومخلص. ولكن الفوضى السياسية -

أي الشرور تلك التي لا تثيرها الفوضى السياسية!

إنها تدمر الدول، وتطيح بالمنازل،

إنها تبدد وتبعد البلد المتورط.

بينما يحافظ الانضباط على الرتب ذات التراتبيّة.

ولذلك، يجب أن نحافظ على السلطة

وألا نُخضع أيّ لقب لإرادة المرأة.

الأفضل، إذا لزم الأمر، أن يلقي بنا الرجال خارجاً

من سماع القول، بأن المرأة أثبتت أنها ندٌّ له.

سوفوكليس، أنتيغون

رسالة من جويديب Joydeep منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والولايات المتحدة تشارك في عمليات عسكرية كل عام، والحرب الدائرة في أفغانستان هي الأطول بينها جميعاً. أطول من الحرب الثورية، والحرب الأهلية، والحربين العالميتين، والحروب في كوريا، وفيتنام، والعراق. بعبارة أخرى، بالنسبة لمعظمنا، لم يمر عام واحد في حياتنا دون نشوب صراع في مكان ما من العالم ونحن جزء منه. إنه سجل جدير بالملاحظة - وإدراك يدفعنا لتهذيب النفس - أن الحرب هي حالنا الطبيعي، وذاك أمر يحمل المرء على التفكير فيه والكتابة عنه.

إن كل حرب تترك في أعقابها ليس أنقاض المناطق الطبيعية وحسب، بل حطام الكيان الإنساني أيضاً. وشأننا شأن المشتركين فيها، فإننا نحن المشاهدين سنُترَك لنصفّي حساباتنا مع الصور الحبيسة داخل أنفسنا عن عنف تعجز عن وصفه الكلمات، من التعذيب، والسجناء، وقطع الرؤوس، إلى الجثث، والحيوانات الميتة، والأطفال الميتين. مَن منّا سيكون قادراً على الإطلاق على أن يجتثّ من نفسه صور أهرامات السجناء داخل سجن أبو غريب، وصورة الرجل مغطى الرأس الذي يقف على صندوق خشبـي ويداه ممدودتان، وأطراف أصابعه مربوطة بالأسلاك، صور صفوف من جثث الأطفال في قرى لا حصر لها في العراق وأفغانستان وباكستان؟ من منا سيكون قادراً على السيطرة على انتشار وباء اضطراب ما بعد الصدمة وغيرها من اضطرابات الصحة العقلية، بالإضافة إلى أعداد الضحايا من الشباب والشابات الذين يرسلون للقتال في هذه الحروب؟

عندئذ، والحال هذه، تصبح المهمة الأخلاقية المنوطة بالكتابة، هي تصويرُ آليةِ القتل الجماعي للبشر. ويصبح من أهدافها إحياء الذكرى، توجيه الحزن في قنوات خاصة، وتسكين حالة الحداد. كل ذلك لا من أجل طلب الغفران أو تبرئة الأطراف، بل كي نصبح قادرين على المضي في حياتنا ببساطة. لذا فالحزن لازم، والأسى ضروري، والحداد ضرورة قصوى.

فالبديل المجرد من هذه الأمور معرض لتكرار الأخطاء نفسها. مما يذكرنا في هذا السياق بالدراسات التي قامت بها شركة ميتشيرليش "Mitscherlich" في ألمانيا ما بعد الحرب، والتي تم نشرها تحت عنوان "*عدم القدرة على الحداد - The Inability to Mourn*".

وبهذه النية المبيّتة، شرعتُ في كتابة روايتي عن الحرب في أفغانستان. إن كل كتابة تخرج للنور تحمل في طياتها على الدوام مؤشرات عن اهتمامات الكاتب، وبذور هذا الكتاب ***المراقبة*** - *The Watch* كانت تبرعم في داخلي لفترة أطول بكثير من هذه الحرب الأخيرة. فأولاً، هناك إقراري الأبدي ببسالة أنتيغون، الشخصية التي رسمها سوفوكليس، ووقوفها ضد القمع. وثانياً، هناك اهتمامي النهم بالتاريخ العسكري الذي تزاوج مع عدم قدرتي على فهم الحرب كآلية مجدية لتسوية الخلافات بين الشعوب، والتي تستهلك الحيز الأكبر من اهتمامي على نفس الدرجة.

وعليه فقد حاولت في رواية "المراقبة - The Watch"، أن أتخذ موقفاً معتدلاً. أنا أدخل النزاع، لا كمحارب، بل كوعاء تتردد من خلاله أصداء أصوات الأشخاص الذين لا صوت لهم، لكل من أُبعِد إلى ما أصفه بـ "أرض الأضرار الجانبية الإحصائية" التي لا تنتمي لأحد، بالإضافة إلى أولئك الذين أرسلوا للقتال، والذين يعانون من الصدمات النفسية، والناجين الممزقين نفسياً. إني بتشكيلي لبطلة روايتي الشخصية بشكل واضح على غرار أنتيغون، إنما أعرض شخصية من الدراما التراجيدية اليونانية - لعلها أنقى الشخصيات فيها - من أجل تمكين القارئ المعاصر من الشعور بحزنها. حزنٌ هائل اكتسبنا، بالرغم من سلامة نوايانا، مناعة تجاه التأثر به في عصر الحرب المتواصلة بلا توقف.

إن ما يفسر التركيز على المأساة اليونانية هو الأهمية التي توليها الأخيرة لكرامة الإنسان وشرفه. لقد غيرت التكنولوجيا الحديثة الحرب عما كانت عليه في عصر سوفوكليس تغيرات لا يمكن إدراكها، إذ إنها جردت البشرية من شرفها وكرامتها. إن ضحايا المعارك، خاصتنا، يتم تهريبهم تحت جنح الظلام، وعدونا يحترق حتى يصبح رماداً بواسطة الطائرات بدون طيار. رواية ***المراقبة*** هي استعادة لما فقدناه، وتحية للسلف اليوناني الموغل قدماً في الزمن. من خلالها، أوجدت مساحة صغيرة لأنتيغون الآتية من مدينة طيبة، مع إرادتها وعزمها الذي لا يضاهى، لأن تسير بيننا مرة أخرى، ولو للحظة واحدة حتى، محاطة بالثبات الوحشي والراسخ لروحها، ومشكّلةً جرس تنبيه ضروري لنا، وجاعلةً من هذه الرواية زجاجاً ننظر من خلاله لما يجري.

من كل قلبـي أتمنى أن تنضم إليّ أيها القارئ في نشر هذه الكلمات.

Notes

[1←]
يغون: في مأساة سوفوكليس في الأدب اليوناني القديم، تعتبر أنتيغون شابة متحدية مستعدة للمخاطرة بحياتها كي يحظى جسد أخيها بطقوس الدفن المناسبة. عمهم، الملك كريون، الذي أعمته السلطة، كان قد أصدر مرسوماً حرّم فيه دفنه واعتبره خائناً وأي شخص يتحدى أمر الملك يُعدم، وهذا المصير الذي واجهته أنتيغون عند اكتشاف أمرها.

[2←]
رة طه - الآية 55

[3←]
ران الهيسكو: نوع من الكتل تنتصب قائمة على شكل متوازي مستطيلات، مصنوعة من الأسلاك والمبطنة بقماش شديد التحمل وتعبأ بالرمال والحصى، وترص جنباً إلى جنب، فتشكل سداً منيعاً يستخدم لإيقاف الفيضانات، وفي التعزيزات العسكرية لحماية محيط القواعد العسكرية. [المترجمة]

[4←]
انشي: في الأساطير الإيرلندية، شبح على شكل امرأة تنذر بالموت بصرخاتها [المترجمة]

[5←]
زة يهوذا: تطلق هذه التسمية على عنزة مدربة على أن تختلط بقطيع من الخراف ثم تقوده إلى وجهة ما (كالمسلخ أو شاحنة النقل.. إلخ) فتتبعها الخراف طواعية. [المترجمة]

[6←]
سمين: هي أخت أنتيغون في مأساة سوفكليس لكنها ذات شخصية تختلف عنها، فهي أقل منها جسارة وأكثر خضوعاً لحكم عمهما المستبد كريون. [المترجمة]